قصص قصيرة
ق

زهر الليمون
وقصص أخرى

علاء الديب



وقصص أخرى

زهر الليمون

علاء الديب

B.HAMDAN
22/8/2008

إلـــى عصمــت . . .

الشيخة

الشـــيخة

(١)

فى الصباح تسقط الشمس على شوارع القرية حادة وصريحة فتجعل الناس يسيرون لصق الجدران . البحر بعيد عن القرية ولكنه داخل فى تركيبها ، أصداء الأمواج ترن على الجدران الطينية ، وملح البحر يضرب فى أرض القرية أبيض وكثيبا ، ويجعل الزراعة على أطرافها ذابلة مريضة كأنها رأس انسان أجرب ، وفى الليل تصل إلى القرية أصوات غامضة من البحر .

سواء بالليل أو بالنهار هذه القرية فى الحقيقة مكان مخيف . الشوارع فيها رملية متعرجة والبيوت طينية جدرانها سميكة وخشنة . وعندما يسقط على القرية الليل تتكور على نفسها وتخبئ ما فى جوفها ، وتزداد رهبة المكان فى الليالى التى تخلو فيها السماء من القمر ، فيختفى الناس داخل البيوت . وتمتد الشوارع ثعابين من الظلام . وتخلو القرية من آثار الحياة ما عدا أضواء شاحبة تتراقص من فتحات البيوت .

أهل القرية – هم أيضا – فيهم كثير من الغرابة ، أكثرهم طويل ونحيف ، لون بشرتهم قاتم وأقدامهم كبيرة وخشنة . بعضهم يزرع الأرض البخيلة وبعضهم يصطاد سمك البحر ، أرضهم لا تنتج الكثير ، وقواربهم لا ترحل إلى البعيد . فى نفوسهم ضائقة ، وحدود خيالهم تقوم فوق جفونهم . عيونهم تحلق فى الاشياء فى بلادة وبله ، يبتسمون دون أن

تنشرح صدورهم .

يقال إنه كان لهذه القرية رب كبير وقوى . وضع كل شئ فى مكانه وخلق هؤلاء الناس وصورهم كما يحب وتركهم فى مكانهم هذا إلى جوار البحر ، ولم يدر أحد هل يجب أن تسير الحياة بهم إلى الامام أم إلى الخلف . فمنذ سنوات والحياة قد أصبحت عندهم بلا معنى . لم يكن هناك داع لأن تستمر . . لا شئ فى القرية يزدهر ولا شئ يبلغ قمته . . وبعض الطيور تهجر البحر وتحوم فوق القرية ، ملقية ظلالها على الأرض الرملية ، ولكنها لا تلبث أن تعود من حيث أتت تاركة القرية تحرقها الشمس بالنهار ويسقط عليها الظلام فى الليل . قبل أن يستريح رب القرية ترك فى وسطها شيخة . كانت تختلف عن كل الاهالى . جسدها سمين ومربع ، امرأة فى الأربعين ، عيونها حادة وقوية ، واطرافها صغيرة وصوتها عريض وقديم .

كانت هذه المرأة وحدها هى التى تعرف . تمسك فى يدها بلجام الحياة . وتحدق فى عين الشمس . تسير وحدها فى الظلام . تسكن بيتا كبيرا قائما فى وسط القرية ، على بابه صخرة سوداء ، يطل من بعيد على البحر . فى الليل تجلس على صخرتها السوداء تسمع عويل البحر وتراقب النجوم وهى تحتضر . وفى النهار تخرج لتسير فى شوارع القرية . عيناها تضربان داخل كل بيت فتختفى النساء من عينيها ويلتصق الأولاد بالجدران ويسقط فى قلب الرجال الرعب .

لم تكن هذه الشيخة شريرة ، على العكس ، كانت تحل كل مشاكل

القرية . . كانت تقول للرجال .

- بكره . . بلاش صيد .

فيمتنع الرجال عن الخروج إلى البحر . كانت تتحسس جسد الفتيات الصغيرات وتقول :

- البنت دى تتجوز .

وبعد أيام يزوج أهل الفتاة ابنتهم لأول عريس .

كانت المشاكل والاسئلة التى تقوم فى القرية تصبح فى يدها هياكل عظمية تلقيها أمام الأهالى فيستغربون كيف لم يفهموا أنها تحل بهذه الطريقة .

قدرة الشيخة كانت ساطعة كضوء القمر ، ولكنها أيضا كضوء القمر باردة ومخيفة . وأصبحت تعرف ما يدور فى غرفهم المغلقة وما يدور فى عقولهم وصدورهم .

ولما لم يكن هناك آخر يذهب اليه الرجال فى الليل أصبحوا يتجمعون كل ليلة كالفراش أمام بيت الشيخة . . وتجلس هى على صخرتها السوداء ويتجمعون هم فى حلقة يرددون أغانى حزينة وبطيئة . ثم تأتى النساء أيضا والاولاد وينعقد أمام بيتها سامر القرية الحزينة .

لم تشترك معهم قط فى الحديث ، ولكنها تعرف دائما كل ما يقال . . وكانوا هم يعرفون أنها تعرف ولم يكن هذا يزعجهم فهم يعرفون أنها هى التى تجمعهم وأنها هى سر وجودهم . وعندما يكون هناك سؤال أو مشكلة فإنهم يجدون عندها الجواب . والمريض يجد فى غرفتها المغلقة الشفاء . .

عندها كل ما يكفى لأن تستمر الحياة كما هى .

ولاشك أنه كان هناك فى أعماق قلوب النساء غيرة من وجودها ، ولاشك أيضا أنه كان يهب فى صدور الرجال فى بعض الأحيان تمرد على سلطانها ، ولكن عاصفة رملية شديدة أو هيجان البحر لعدة أيام كان يكفى لأن يعيد كل شئ إلى ما كان عليه ، ويجعلهم جميعا يشعرون بحب للشيخة ويرغبة فى الالتفاف حول بيتها . .

كل هذا جعل قدرة الشيخة تتطور . أصبحت تتصور أن الانسان الذى يقف أمامها ، أو يأتى ليسألها سؤالا ما هو الا «شلة» من الخيط لا أحد يعرف أين بدايتها إلا هى ، ويكفى أن ترفع أصبعها لتمسك بهذا الطرف فتنحل الشلة ، وتصبح خيطا طويلا مفرودا . وكانت القرية كلها تشعر بهذه القدرة . . تشعر بسلطان الشيخة يكبر ويتعاظم . ولكن للأسف لم يكن أحد منهم يعرف كيف يعبر عن شكره لها أو ولائه .

وفى يوم من الأيام نزل القرية رجل غريب . قامته قصيرة ووجهه شاحب . وجد له عملا وأقام له مسكنا صغيرا وأصبح من أهل القرية . لم يكلم أحدا ولم يعرف الناس عنه الكثير كان اسمه منسى .

وكان يحدق فى أجساد النساء . . ولم يحبه رجال القرية .

فى العصر كان يرتقى تلة من الرمل ويجلس عليها وحيدا يراقب حركة الناس فى القرية وعندما لاحظت الشيخة وجوده سألت عنه . وقال لها الرجال كل ما يعرفون . ثم لم تسأل عنه بعد ذلك . ولكن وجوده بدأ يقلقها . بدأت تشعر بأنه حصوة غريبة فى العجين . وشبحه وهو جالس

فوق تلة الرمل يزعجها حتى ولو لم تكن تراه . ومرت شهور والرجل صامت . لايترك مكانه فوق التلة . ولا يلتفت مع أهل القرية حول بيت الشيخة ، وبدأ الاهالى يضيقون بوجوده ، ولكنه لم يكن يؤذى أحدا . أختفى يومين متتاليين من فوق تلة الرمال فأرسلت الشيخة أحد الرجال يسأل عنه ، ولم تمض لحظات الا وكان فوق التلة فى مكانه المعتاد . قبل أن يصله رسول الشيخة .

وعادت الأمور تسير كما هى ، إلا تقطيبة تفكير صغيرة حفرت وجودها على جبهة الشيخة الضيقة ، وأصبح من المستحيل أن تنسى الشيخة وجود الرجل للحظة واحدة .

وبعد حوالى سنة من مجئ منسى ، وفى ليلة باردة أطلت الشيخة من شباك بيتها فرأت الرجل جالسا على تلة الرمل وقد أعطى ظهره لها . فأخذت تحدق فيه واعتراها شعور حارق وغريب ، وفجأة نزلت إلى باب البيت واستدعت أحد الرجال وقالت له :

- أنده منسى . .

فرفع الرجل وجهه فى وجه الشيخة يريد أن يسأل أو يستفهم ، ولكنها كانت قد أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى ومضت إلى داخل البيت .

بعد لحظات رأى الجمع الجالس أمام بيت الشيخة منسى يعبر الميدان الرملى بخطوات سريعة ويدلف من باب بيت الشيخة . ولأول مرة منذ زمن ، أغلق باب البيت قبل أن ينفض سامر القرية . قام الاهالى واخذوا يتحركون حركات غير مفهومة . ويهزون رءوسهم وقد علاهم الانبهار

وعيونهم مفتوحة وكأنهم كلاب تتشمم رائحة شخص غريب . ثم بدأ خوف غريب يملأ نفوسهم ، وانتعش شئ فى نفوس النساء . ولكن أحدهم لم يقل كلمة واحدة .

كانت النار التى أشعلوها قد قاربت الانطفاء عندما فتح الباب مرة أخرى وخرج منسى يسير بنفس خطواته متجها ناحية التلة الرملية . وخرجت الشيخة لتقف على الباب وتنادى أحد الرجال وتتحدث اليه للحظات ثم تدخل إلى بيتها مرة أخرى .

كان خوف الاهالى وتعجبهم قد بلغ غايته عندما عاد الرجل الذى تحدث مع الشيخة ووقف فى وسطهم وقد تهدل فكه واتسعت حدقتاه وكاد وجهه أن يتصبب منه العرق . كان يبدو عليه أنه يفكر وأن التفكير يرهقه ، ولم يستطع أن يتكلم بسرعة . الناس تتحرك حوله وكأنهم قبيلة بدائية . . ثم فجأة قال الرجل :

– الشيخة راح تتجوز منسى بكره العصر .

فى عصر اليوم التالى كانت الساحة الرملية التى تمتد أمام بيت الشيخة مرشوشة بالماء ، وإلى جوار البيت رصت بعض الدكك الخشبية القديمة ، تفوح من المكان رائحة غريبة كأنها رائحة فراش رجل وامرأة . الشمس قد قاربت الغروب وأهالى القرية يتوافدون على الساحة صامتين . يجلسون على الدكك بلا همس أو حديث . والنساء يأتين من الشوارع الجانبية متلفحات بملابسهن السوداء الجديدة ويدخلن رأسا إلى البيت لتحية العروس ثم يخرجن بعد قليل ليجلسن فى طرف الميدان تاركات

الدكك للرجال . كانت عيون الرجال تمتد إلى البعيد حيث البحر الازرق يجذب عيونهم وأرواحهم العاجزة عن الفهم أو الحديث . .

وجاء المأنون . نزل منسى من على تلة الرمل . . ودخل البيت الكبير . . وتزوج الشيخة .

فى هذه الليلة بعد أن انفض الجمع وانصرف الجميع . بقى أحد الرجال يتسمع إلى جوار البيت . . وقرب منتصف الليل دوى فى الصمت صوت الشيخة . . وهى تضحك .

(٢)

استراحت أجساد النساء من عينى منسى بعد أن تزوج الشيخة لم يعد يحدق فى النساء ، ولم يعد يجلس فى العصر على تلة الرمل . أصبح جزءا من أثاث بيت الشيخة القليل .

يجلس دائما فى مدخل البيت المظلم متواريا يغطيه التراب ويسقط عليه بعض النور الذى يتسرب من الباب . كان يبدو وكأنه كلب عجوز .

أما الشيخة فهى لاتزال تجلس على الباب ، على الصخرة السوداء ، فى الليالى المظلمة . وبعد أن ينفض السامر تحدق فى النجوم وتسمع عويل البحر ، فى يدها عصا صغيرة ترسم بها خطوطا على الرمال .

فمنذ أن تزوجت منسى وهى فى حالة غريبة . انها تعرف أنها لن تنجب أولادا ، فليس منسى من الرجال الذين يحملون الحياة فى ظهورهم . . انه من أولئك الذين يسقطون صرعى للحياة . ولكنها عندما

تقوم من الفراش كانت تشعر بشئ غريب . بقوة خارقة ، وسعادة كبيرة . تشعر بأنها سيدة القرية . وبأنها خالدة ، فتقوم إلى الخارج ، لتجلس على الصخرة السوداء تحدق فى قريتها وتتحسس جسدها . ويبقى منسى فى الفراش يتصبب عرقا . لقد كانت عيناه قبل الزواج تطلقان فى وجهها تحديا غامضا . كانت تشعر أن هناك تحت هذا الجلد شيئا لاتعرفه . شيئا يستعصى على قدرتها ومنطقها ، وفى ليلة «الدخلة» راقبته ، حدقت فى عينيه وراقبت أطرافه وهى ترتعش وسألته .

– مالك ؟

فتلوى ، وفتح فمه ولم يقل كلاما .

لحظات قبل أن تدخل حجرة الزواج ، كان قلبها يخفق . كانت تنتظر شيئا جديدا بارعا ، تصورت أنه سوف يقول لها كلاما لم تسمعه . وأن صمته وغموضه سوف ينفرجان عن بحار جديدة لم ترتدها . وأحست أنها ذكية لأنها استطاعت أن تعثر عليه وأن تقنعه بالزواج ، فكل ما وراءه سيصبح ملكا لها .

ولكن هذا هو ما وراءه ، يتلوى ويفتح فمه ولا يقول كلاما . انه يخشاها ويخاف جسدها الأبيض المربع الكبير وينزوى فى ركن الحجرة . . شدته وداعبته وحاولت أن توقظ ما فيه . ولكنه كان قد سقط . سقط هو الآخر وأصبح شخصا عاديا . شلة من الخيط مثلهم جميعا . عليها أن تفك طرفه الأول وتضمه إلى جماعة الاتباع . .

وضحكت ليلتها ضحكة كبيرة . كان لها دوى فى صمت القرية لم تشعر

أنها خدعت أو خسرت شيئا ، بل أحست انها ازدادت قوة ، واقتنعت بأن كل ماوراء قدرتها فراغ . .

راقبت القرية هذا الزواج . راقبت بيت منسى الصغير وهو يغلق ، والتراب يتراكم عليه ويردمه . وراقبت منسى وهو يتحول إلى عصا رفيعة فى يد الشيخة أو عود قصب . وأصبحت تلة الرمل التى كان يجلس عليها منسى كأنها قبر لشئ لاح واختفى . ظن الناس كما ظنت الشيخة أن القرية بهذا الزواج سوف تقدم على عصر جديد ، وأن من هذا الزواج سوف تولد لهم أشياء ، ولكنه كان أملا لاح واختفى . وعادوا جميعاً يزرعون أرضهم البخيلة ويرحلون فى قواربهم إلى البحر القريب ليعودوا بأسماك صغيرة . والشيخة فوقهم ، بجسدها الابيض المريع وعينيها الحادتين الواعيتين .

ظل منسى رغم الزواج بعيدا عن أهل القرية . ولكن لم يعد هذا البعد يقلق الشيخة أو يشغل بالها . كان كل ما يميز منسى عن أهل القرية – الطوال النحاف ذوى البشرة القاتمة والاقدام الكبيرة الخشنة – أنه ظل يسأل نفسه :

– ليه الشيخة كده ؟

ظل يسأل نفسه ويتوقع الجواب من داخله . كان دائما يتوقع أن يعرف نوعا من الاجابة . أما أهل القرية فلم يكن أحد منهم يسأل : الشيخة موجودة . وقد نظموا أنفسهم على هذا الاساس .

ومن الغريب أن الشيخة لم تكن تعرف أن منسى يسأل نفسه هذا

السؤال . فهى قد فرحت عندما رأت أن الفراغ هو كل ما فى داخله .

ظـل منسى مـغلقـا ، وظل بعـيـدا . رغم أنه فى يدها تنقله ، تقـيـمـه وتقعده ، تلقى به فى الفراش وتضعه فى ظل الباب . كل هذا والسؤال فى ذهنه ، ثابت لايهتز وهى لاتدرى .

واذا كنا رغم هذا نستطيع أن نجد مكانا للحب فى هذه القرية فإننا بلاشك سـوف نجده فى قلب منسى . حب راقـد . قـديم . لا مـخـرج له . كنجمة خابية مدفونة تحت الأرض . . ففى الليالى التى ينطلق فيها صوت «جاد» مغنى القرية الحزين . وهو يحيى السامر ، وتكون الشيخة جالسة على صـخـرتها صـامتـه يسقط عليـها وحـدها ضـوء القـمر ، تمتلئ نفس منسى العاجزة بأشياء غريبة يتساءل : لو تخلت الشيخة عن قدرتها ؟ لو استطاع أن يحبها ؟ أن فى عينيها وفى يديها شيئا له . ولكنه بعيد .

يتلاشى صوت جاد المغنى من أذنيه . ويسقط هو فى بحر السؤال . ويفقد قدرته على النظر والرؤية .

ولحسن الحظ لم يكن جاد المغنى يغنى كل ليلة ، فهو ضعيف ومريض ومـصـاب بالصـرع . وعندمـا تأتيـه نوبات الصـرع يقع على الأرض فى الزريبة التى يعمل بها عند أحد الملاك . فيأتى صاحب الزريبة ويلقى عليه صفيحة من الماء ، ويتركه هناك فى وسط الزريبة وقد تخشب جسده ، وملأ السائل الأبيض فمه واستحالت عيناه إلى بقع من الدم الأحمر ، فى هذه الأوقات كـانت تأتى الحيوانات فتتشممه وتتحسس جسده فى حب وقلـق ثم ترقد إلى جواره ، وعيونها الواسعة الكبيرة تراقبه . ويظل كذلك حتى

يسقط الليل على الزريبة التى لاسقف لها وتمتلئ سماؤها بالنجوم وتبدأ نسمات الليل الباردة تداعب الجسد الميت القاسى فيلين ويبدأ فى الحركة . وعندما تشعر الحيوانات به وقد بدأ يتحرك تبدأ فى الصراخ ، وكأنها تحتفل باستقبال حبيبها مرة أخرى إلى الحياة . وعقب هذه النوبات يكون صوت «جاد» حزينا غاية الحزن ، رقيقا وعذبا إلى درجة لاتصدق . فيخرج من الزريبة - بعد أن يطعم اصدقاءه الحيوانات - ويسير فى طرقات القرية مطأطأ الرأس ، وجلبابه مبلول يرتجف من البرد ومن الرغبة فى الغناء ، حتى يصل إلى مكان السامر فيبدأ فى الغناء ، ويلتف حوله الأهالى وتجلس الشيخة على صخرتها . وينفطر قلب منسى الحزين وهو جالس فى مكانه خلف الباب .

وفى هذه الايام بدأت نوبات الصرع تصيب جاد كثيرا ، وبدأت تأتيه حتى فى اليوم الواحد مرتين ، وجسده يزداد هزالا ووجهه الرقيق يصبح وكأنه قناع من الشمع . رأته الشيخة وهو يأتى كل ليلة إلى السامر مخترقا طرقات القرية كالشبح وقدماه لا تقويان على حمله فأرسلت تستدعيه وقالت :

- أنا راح أعالجك فى «الأودة» من الليلة الجاية .

كان جاد وكل القرية ينتظرون هذه الجملة من الشيخة منذ زمن طويل ، فهم يعرفون أن كل من يدخل «الأودة» عند الشيخة مصابا بأى مرض فإنه يخرج صحيحا قويا وينضم مرة أخرى إلى حياة القرية .

غير أن الشيخة ظلت تؤجل هذا الاستدعاء لأنها كانت سعيدة بسماع

أخبار العلاقة القائمة بين جاد والحيوانات . كان فيها شئ طريف مسل . ولم تكن ترى أن فى مرضه خطورة على حياته ، ولكنها عندما رأت أن الحال قد بلغت هذا الحد ، قررت أن تبدأ فى العلاج .

فرحت القرية لجاد . . وأحس منسى ببعض القلق ، فقد شعر أن فى مرض هذا المغنى شيئا غريبا وقويا يستطيع أن يقف فى وجه قدرة الشيخة . وعندما انفض السامر ودخلت الشيخة إلى الفراش مع منسى قال لها :

– مرض جاد كبير ، وشئ مش سهل . .

فضحكت الشيخة ، وجذبته اليها فسكت .

وفى الليلة التالية بدأ العلاج . كان جاد يودع حيواناته قبل الغروب ويتحامل على نفسه حتى بيت الشيخة وقد هد جسده المرض ، وبدت على وجهه آثار الصرع ، فيدلف من الباب الكبير ، حيث يجد الشيخة فى انتظاره فى «الأودة» المغلقة وقد ارتدت ثوبا أبيض طويلا وغطت وجهها بقطعة من التيل الأبيض لتمسكه من يده وتغلق خلفهما الباب .

أما منسى فيظل جالسا أمام الحجرة مستندا على عصا صغيرة ، وعيناه مسمرتان على الباب الذى يختفى خلفه جاد والشيخة . دقات قلبه عالية وفى عينيه رجاء حقيقى . وبعد ساعة أو ساعتين تخرج الشيخة مبتسمة قوية فيقوم منسى لها ولكنها تعبره إلى صخرتها حيث تجلس . وبعد لحظات يخرج جاد متعبا هزيلا ويشق طريقه إلى الزريبة حيث ينام .

واستمر العلاج ليالى طويلة انقطع فيها سامر القرية وأصبح الاهالى

جميعا يلزمون بيوتهم . كانوا يفتحون الابواب فتحة صغيرة وهم يراقبون جاد يسير فى طرقات القرية فى طريقه إلى الزريبة بعد انتهاء العلاج ثم يغلقون أبوابهم ويشعلون أنوارهم الخافتة وينامون وهم حزانى صامتين . فقد كان جسد مغنيهم يزداد هزالا يوما بعد يوم ولم يجد العلاج شيئا حتى الآن .

وفى الليلة الثانية عشرة بعد أن دخل والشيخة إلى «الأودة» بقى منسى على الباب فى نفس مكانه ، غير أنه فى هذه الليلة سمع أصواتا غريبة تنبعث من داخل الحجرة . أصوات لم يسمعها من قبل . وسمع أقداما تجرى وحركات غريبة وصوتا عاليا لكنه مكتوم . وبعد فترة بدت له طويلة ، انفجر الباب وخرج منه جاد مندفعا يجرى وقد تناثر شعره وغطت ملامح وجهه الهادئ قسمات الجنون . للحظات بقى منسى مذهولا لايدرى ماذا يفعل وهو يراقب جاد المغنى يجرى فى الساحة الرملية . أمام البيت ، رافعا يديه إلى أعلى وكأنهما قطعتان رفيعتان من الخشب وصوته يدوى فى القرية كلها .

- أودة الشيخة فاضية . أودة الشيخة فاضية .

انتظر منسى يحاول الامساك به ولكنه هرب فى حوارى القرية وصياحه لاينقطع . والابواب من حوله تنفتح وتغلق .

زلزال أصاب القرية . .

كانت الدنيا ظلاما . وصمت القرية ثقيل لايقطعه سوى الصياح ، وجاد ومنسى يجريان فى الحوارى المظلمة . وفى آخر حارة من حوارى

القرية أدرك منسى جاد ووقف الاثنان لحظة أمام بعضهما البعض ، ثم رفع منسى العصا التى كانت فى يده وضرب جاد على رأسه ، فسقط جاد المغنى على الأرض . وسكت صوته الذى كان يملأ كل القرية . وقف منسى أمام الجسد الملقى على الأرض الرملية وانحنى ليمسك يده .

ولكن جاد المغنى كان قد مات .

(٢)

جرت الحركات فى الحجرة بسرعة كبيرة . . والشيخة تذكر جميع اللحظات . . والحركات . لحظة واحدة فقط كانت خافية ، تبدو وكأنها مركز كل اللحظات ، وكأنها كانت كل اللحظات .

يدها كانت على رأس جاد المغنى ، عيناه كانتا مسبلتين – أطرافه كانت هادئة . كان ممددا أمامها . وفجأة ارتعشت يدها ، وانتفض جاد . حاولت أن تنظر اليه . أن توقف حركته بنظراتها . . ولكنه كان ينظر اليها بنفس القوة . . انكسر شئ . . وأحست فجأة أن الأوان قد فات . .

جسد جاد ينتفض بعد أن وقف وسط الحجرة . يشير إلى فمه ، كأنه يريد أن يصرخ ، صوته لاينطلق . قوة كبيرة تملأ جسد المغنى . راح ينتفض ، وصوته المكتوم يشبه صوت الأمواج .

بقدمه كسر اللمبة ، قلب المنضدة التى تضع الشيخة عليها أشياؤها . حاولت أن تمسك به ، أن تسنده اليها ، ولكن شيئا ما قد كسر . والأوان قد فات .

كسر «جاد» الباب وخرج من الحجرة يصرخ . .

– أودة الشيخة فاضية .

وقد عادت إلى صوته كل قدرته على الصراخ ، لطمت هذه الكلمات الشيخة . كأنها أحجار . لماذا اختار هذه الكلمات بالذات ؟ كلمات لم يقلها أحد من قبل فى القرية . هى لم تقل أن فى حجرتها شيئا . . هم الذين كانوا يتصورون أن فى حجرتها أشياء . . هى لم تقل .

– أودة الشيخة فاضية .

«فاضية» من ماذا ؟ لماذا ينطلق منسى وراءه . القرية صامته .كل الناس صامتون . ماذا يحدث . الزلزال . شئ لاتفهمه . الشيخة . الشيخة . ودوامة . دوامة . دوامة . واضطراب . وخوف . وفراغ .

عاد منسى بعد لحظات وكانت الشيخة لاتزال فى غرفتها المظلمة . لم يكن فى نفسها أى حماس للحركة . وقف منسى على الباب . ناداها . لم ترد . حاولت ولكنها لم تستطع . ناداها مرة أخرى . . أنه لا يجرؤ على الدخول . . وهى لاترد .

قال منسى :

– جاد انقتل . أنا قتلته

ودمدمة الناس فى القرية تعلو وتهبط . . الليل يتقدم والموقف لا ينفرج . .

أحس منسى بالضيق والعجز . أحس أنه يريد أن يسمع صوت جاد المغنى فى السامر . أن يراقب الشيخة وهى جالسة على الصخرة . . كل

شئ مستحيل الآن ، حتى عبور الباب المكسور إلى الحجرة حيث الشيخة . أنه فى موقف جديد وليس هناك طريقة للتصرف . العجز يسيطر على جسده ويشل قدميه الحب والحنين الذى فى قلبه – للشيخة – يخنقه وتلك الدمدمة التى تتصاعد من بيوت القرية تكاد تذهب بعقله . لا يزال الظلام طويلا أمامه . ساعات وساعات حتى يأتى الفجر . الفجر هو الشئ الوحيد الذى لابد أن يحدث . . ولكن لا أحد يعرف متى .

فى الفجر هبطت من التلال الرملية التى تحيط القرية جماعة من العساكر . يرتدون ثيابا سوداء . ويعرفون طريقهم . خطوات وخطوات . حركات منتظمة لها هدف . فى طرقات القرية يطل الناس من النوافذ والابواب وثلة العساكر تتقدم . تسير نحو منتصف القرية . أمام بيت الشيخة وقفوا . بقعة سوداء كبيرة وغريبة فى وسط الرمال الصفراء .

وتقدم كبيرهم نحو باب بيت الشيخة وأمسك منسى من يده وخرج به . جسد منسى هزيل غريب بين أجسادهم الكبيرة السوداء . أطلت الشيخة من النافذة لحظة واختفت . رفع منسى رأسه لها . رآها ثم اختفت .

عادت جماعة العساكر تسير فى نفس الطريق الذى قدمت منه . خطوات وخطوات فى وسط القرية الضيقة . ومنسى بينهم . بلا حديث . سكون وخطوات منتظمة .

الناس تطل من النوافذ والأبواب . الجماعة خرجت من القرية ، لونها يضيع وسط الرمال الصفراء . .

الآن كل شئ انتهى . الآن كل شئ يقترب من النهاية . ولكن الناس

لاتخرج من بيوتها . لا أحد يستطيع أن يعلن النهاية . الجميع يراقبونها فــى قلوبهم ولكن واحدا منهم لا ينطق . صرخة جاد المغنى فى وسط القرية ، القتيل ، والعساكر والرحيل . من يعلن بعد هذا النهاية .

فى صباح هذا اليوم والشمس تقترب من ثلث السماء ، رأى أهل القرية الشيخة تجلس على صخرتها . . لم يقترب منها أحد . ولم تنظر هى إلى أحد .

ليس هناك من يجرؤ على دفع الشجرة النخرة فتقع . ليس هناك من يجرؤ على الاستناد إلى الحائط الهرم فيسقط .

كل شئ يجب أن يبلغ نهايته بنفسه . حتى الشيخة يجب أن تمر بكل عذاب النهاية .

انتهى اليوم الأول بلا أحداث . والثانى أيضا بلا أحداث . ودخلنا فى الأسبوع الثانى . وأهل القرية يزرعون أرضهم ويركبون قواربهم القديمة . والسامر فى القرية لا ينعقد . والرياح تهب فى الليل على قبر جاد وتهيل عليه مزيدا من الرمال .

ولكن – فى الحياة – كان وجوده قائما . كل من ينظر إلى حيوان : إلى عيون البقر ، أو إلى سماحة فم الخروف ، يتذكر جاد . والشيخة أكثر منهم جميعا تراه بعينيها وتذكره . تذكر اللمبة المكسورة والباب المحطم . وصورة بليدة لسامر صغير كان ينعقد فى القرية .

وحتى منسى كانوا جميعا يذكرونه . . حتى منسى ترك فى الحياة أثرا . ترك على أجساد النساء علامات من عينيه اللتين كان يطلقهما

عليهن وشيئا غامضا فى نفوسهن يشبه الحسرة . وفى نفوس الرجال ترك ذكريات صورته وهو على تله الرمل . صورته وهو يتزوج الشيخة فى الفرح الغريب الصامت .

والشيخة - أيضا - كانت تذكره . تذكر فرحتها بالتحدى الذى أطلقه وجوده فى نفسها قبل الزواج . وتذكر الدخلة . والفراغ الذى تصورت أنه كل ما يملكه .

وعندما كانت تستعيد فى ذهنها - الذى أجهدته الأحداث الجديدة - ذكرى ليلة القتل كانت تضطرب وتسأل نفسها : لماذا قتل منسى جاد ، ان هناك شيئا ما لم تكن تفهمه . شيئا ما أساءت تقديره . وبدأ أحساس صغير بالندم يولد فى نفسها .

شغلها هذا الندم عن مراقبة النهاية بوعى . . استسلمت للشعور المريح الذى يغلف به الندم الواقع فيجعله محتملا .

الروح الجديدة التى ولدت فى نفس الشيخة بعد هذا الندم ، كانت خطوة جديدة فى الطريق إلى النهاية . لقد عرفت أن أهل القرية لم يتمردوا عليها . هى وحدها . . سوف تسير وحدها إلى النهاية . . الندم على منسى ، وعلى الشئ الذى فات ، وعلى الخيط الذى لم تلتقطه ، كان بداية النهاية نفسها ، والشئ الوحيد الذى سيرافقها ، الاعتراف المريح الذى يرفض التوتر ويقلل من معاناة النزع الأخير .

ومر أسبوع آخر والناس كما هم . ينظرون إلى الشيخة من بعيد ، ويمارسون أعمالهم متثاقلين وهى على صخرتها من الصباح حتى

المساء . .

وفى صباح يوم من الأيام وجد أهل القرية بيت الشيخة مغلقا .

قال قائل : إنه رآها فى الفجر تسير ناحية محطة القطار التى تبعد مسيرة ساعة من القرية . وسكت الأهالى .

وفى العصر بعد انتهاء العمل صعدوا جميعا إلى تلال الرمل التى تحيط القرية ينتظرون عودة الشيخة ويتطلعون إلى الأفق ، وقرب الغروب شاهدوا قطار العصر العجوز يدخل المحطة وكأنه جيش مهزوم . نزلت الشيخة وحدها وراقبها الناس من بعيد . . بقعة سوداء تكبر أمام عيونهم فى بطء فى طريقها إلى القرية كانت تبدو وكأنها عجوز .

وعندما اقتربت من القرية نزل الناس من فوق تلال الرمل وأخذوا يسيرون حولها . سأل أحدهم . .

– كنت فين ؟

كانت عيناها تائهتين ووجهها شاحب . كانت غريبة . . صغيرة ، ضائعة ، خرج من فمها صوت غريب يردد كلمات متقطعة :

– عند منسى . السجن . عساكر . سور حديد . أرض بلاط . راح . خلاص . النور . بيت . كله . خلاص .

والناس يسيرون حولها ، يسمعون كلماتها ، إلى أن وصلت إلى باب البيت . أستندت إليه . نظرت اليهم . قالت :

– خلاص . .

وأغلقت الباب .

بعد أربعة أيام كانت الشيخة قد ماتت .

القاهـــــــرة

القاهـــــــــرة

(١)

شوارع المنطقة المحيطة بباب اللوق خالية ، مباني الحكومة على الجانبين مغلقة ونوافذها ذات القضبان الحديدية كبيرة وعالية ، على جانب الشوارع أشجار متباعدة ومنسقة فى عناية ، صوت القطار السريع الداوى يقطع صمت المكان للحظات ولكنه لايوقظ فيه شيئا ، فيمضى تاركا الجو الغريب الساكن يسقط على المكان مرة أخرى .

شوارع خالية مهجورة ، بعد خروج الموظفين . يمر فيها راكب دراجة مسرع ، ورجل عجوز يلتصق بالحائط ويغطى رأسه بجرنال . وفتى وفتاة لايباليان بالشمس فتلمع ملابسهما الزاهية تحتها .

دخل فتحى شوارع هذه المنطقة وبدأ يشعر أنه قد ارتاح من وهج المدينة . هذه الشوارع تبدو كأنها معسكر مبنى للأجانب ، كل الضغط والتوتر الذى أحسه فى جسده طوال الطريق من الدقى إلى هنا بدأ يزول . تأكل هذا التوتر خطواته الوحيدة التى يختلط فيها العزم والتردد ، وينضح اضطرابه فى حبات عرق رفيعة تملأ جبهته وظهره . ثم تلفح وجهه نسمات حارة فيشعر أنه بعيد عن الواقع أو أنه قد خرج منه ليدخل إلى عالمه هو .

منذ أكثر من ساعة غادر مكتبه فى المتحف الزراعى بالدقى ، اختلط بالافواج التى تقف على الباب وعلى محطة الاتوبيس وتكلم مع بعض زملائه بصوت عال وهم يقفون على المحطة ، وأمامهم الشارع يملؤه

صراخ العربات . عيونه تحدق في باعة الليمون والباعة الذين يتقافزون تحت الشمس أمام الاتوبيسات وخلفها ، اعتراه فجأة شئ ثقيل ملأ أذنيه وأحس به ينتشر فى رأسه كأنه الخدر . شئ يقوده بعيدا عن القطيع ، ليصبح وحيدا ، ويستحيل كل هذا الزحام والهرج إلى ضغط هين يحسه على جسده وعلى أعضائه .

تحسس القميص البنى الكبير الذى يتدلى فوق بطنه المتكور الصغير . وسوى شعيرات رأسه الصلعاء وتأكد إحساسه بأنه قصير . يداه تتدليان إلى جانب جسده ، قصيرتان خاليتان من الشعر ، تتحركان فى عصبية وكفه فى النهاية كبير وبليد .

ينحشر فى الاتوبيس . وسط الاجساد والعيون ، يشم رائحة عرقه الخاص . وعرق الناس . يتجنب جسد فتاة . يحس به . يستسلم للزحام ، يسنده ويقيمه . يعبر الاتوبيس على الكوبرى . يدخل الميدان . يتساقط كثير من الركاب . صراخهم يخرج . الهواء الساخن . القاهرة . اعلانات نيون مطفأة بلا لون . الشمس فى وسط الميدان ، لاشئ يربطه بكل هذا القطيع . . خطوات الناس سريعة وملتهبة فوق الاسلفت الأسود . هو ليس فى القطيع . إنه يبتعد ويغرق فى نفسه .

ينزوى فى الشوارع الجانبية هادئا . . ممتلئا بالعزم والتردد واثقا من نفسه يكاد يقتله الجزع مبتعدا عن الحياة ، قاصدا إلى مركزها .

فى آخر هذه الشوارع ، فى الشارع الذى يطل على السكة الحديد ، فى الدور السادس ، فى الدور الأخير من عمارة قديمة . «تنتظره»

عقيلة . . أنه ذاهب اليها ، جسدها فى رأسه ، ورائحتها ، والحبة الكبيرة التى نبتت فى بطنها ، كل هذا يثيره ويغضبه . .

وصل إلى باب من الحديد الأسود والزجاج ، علقت فوقه يافطة زرقاء جديدة كتب عليها بالأبيض ٩ . المدخل رطب ومظلم . دكة البواب مقلوبة . الأسانسير الصغير يحدث أصواتا غريبة وعالية ، الدور السادس بعيد ، وجهه فى المرآة كبير ومعتم ، وعليه صفرة ، وعيونه جاحظة حولها دائرة من سواد . .

علت ضربات قلبه ، وارتاب فى نفسه وهو يدير المفتاح فى القفل خلف الباب : ضعفه ونعيمه ، حدود ما يسقط عنده ، البغى التى يحبسها . عقيلة .

ودخـــل .

الصالة مضيئة ، المكان له رائحة . الشمس تملؤه وبعض الذباب ، الكراسى قديمة ، استعملت . كانت معروضة يوما ما على رصيف الشـــارع . عقيلة ليست فى الصالة . أنا قصير . المفتاح . هى فى الحمام . ثيابها ملقاة على الأرض فى غرفة النوم . ملابس داخلية . سيكون رطبا . هناك سوف أرتاح . عندها .

- عقيلة .

زام صوتها فى الحمام ، وتحرك هو فى الصالة . أسدمحبوس سوف يجعل القديم جديدا ، اليوم سوف يشعل هذا الجسد . جسدها . سوف يضربها . منتهى القسوة . ستقع مـن السرير ، الحائط اليوم سوف

ينكسر . كل شئ ينسكب أمامه هنا فـى الظهر ، أنا وعقيلة سوف نحترق هنا فـوق السرير . كل شئ سوف يحـترق . الزحـام والأتوبيسـات والشـوارع . . وكـل شئ جسدها القديم . قـربة الماء . اطار الكوتش . أريده ، مع صـوت عـال اندفع فى الحمام ، ظهرت عقيلة فى الصالة . وقفت أمامه مترددة ، كان جوعان ، مد يده ، ذراعيه وفمه ، لم يكن يدرى أى شئ يريد . يقبلها . أم يمسك بصدرها . تقف أمامه ساكنه مستسلمة حتى يهدأ . السخونة تتسلق جسده ، هى تريد أن تتكلم . عيونه وهى فى يديه كانت تدور على الكراسى . والنوافذ المفتوحة ، بقايا الطعام على المائدة ، جسده المستسلم ثقيل ، عبء هو الآخر . جحر مغلق بلا أبواب ولا مسارب . وجهها المنتفخ الثقيل بين يديه ، أخرس . معدن بلا رنين .

أين يذهب الفـرح ، كـيف ينوب ، ليس من أجل هذا يؤجـر الناس الشقق ، ويصادقون البغايا ، لابد أن هناك منفذا ، شيئا ما شيئا ما يمكن أن يفعله .

ابتسمت فى وجهه ابتسامة بلهاء مكررة ، شاهدها ألف مرة ، ابتسامة تنوب على وجهها قبل أن تصل إليه ، وقالت : – تعال جوه .

استلقى على السرير ، الملاءة متسخة ، الحجرة يملؤها شرد النهار ، القطار يمر ، صوته عال ومخيف . يقطع أوصاله . الشهوة تغطيه وتنحسر عنه . أمواج بحر راكد . الحر فى رأسه ، الزحام . ابتسامتها تتوتر وتختفى . الذباب حولهم . انه فى الخامسة والثلاثين . أنوار تضئ فى منتصف النهار ، شاحبة وبلا معنى . ماذا يفعل هنا ؟

لو دخل عليه المدير الآن . لوقف فى منتصف الحجرة نصف عار هكذا ، مر بوكا ، وقال :

– أصل أنا أول انمبارح كنت . . .

كل شئ بلا معنى . . ما هذا الذى أفكر فيه . ماذا أريد أن أقول . .

قال : وهو يلتصق بها ويحاول أن يوقظ نفسه ويتنبه لما يحيط به .

– انتى خرجتى النهارده ؟

– رحلت لخالتى . .

– ياه . . شبرا ؟!

– ايوه شبرا . .

التصق بها أكثر ، وقال وهو يغلق عينيه ويضمها اليه فى محاولة نهائية وأخيرة :

– الأتوبيسات زحمة . . هه ؟!

(٢)

انتهى كل شئ فى لحظات . وشاهدته وهو يسقط فى مستنقع النوم الذى لا راحة فيه . نائم على جنبه ، مشدود وساقاه العاريتان يكسوهما العرق .

بدا البيت لها مكانا غريبا . لم تدر ماذا تفعل ؟ النور وشرد الشمس يملآن البيت . كل شئ مستقل فى ذاته يستعصى على الاندماج . وعليها هى أن تدور وسط هذه الأحجار . منكوشة الشعر ، عارية .

إنها الآن عارية ، هى أرادت أن تكون عارية . طوال حياتها كانت تريد أن تصبح عارية . . ولكن العرى ليس هذا ، هذا شئ مجرد ، عادى ، لا فرح فيه . أن تسير هكذا وسط الشقة ، وسط الضوء فوق البلاط المغطى بالتراب معرضة جسدها لنظرات الأثاث القديم المهجور ، ولثقل الضوء الحاد الذى لايرحم . هذا ليس عريا . وهى لم تكن تريده . . الآن لم تعد تستطيع أن تريده أو تحتمله ، انها بغى ، بغى ولكن فى الثلاثين

توارت فى الحمام لتقف تحت الدش . كانت تريد أن يسقط عنها الماء شعورها الضعيف بالأثم والندم وأن يوقظ فيها أطماعها المتواضعة ونهمها الصغير ليؤنسا الوحشة التى تنتابها فى الظهر .

ليس هذا نصيبها . قطع الخبز المكسرة الملقاة فى آخر الصندوق . أهذا كل النصيب ؟

قميص نومها ، ملقـى على المشجب ، إلى جوار غيار له قذر وتحتهما طشت قديم . بلاط الحمام قديم . ودهان الحائط مقشر ومتساقط ، وعلى حديد الشباك عنكبوت . أهذا كل ما هناك ؟ ليس فى البيت موسيقى ولا ضحك ، ليس هناك سوى هذا الرجل المتكور التعس . منظره لا يبعث على الفخر ، وامتلاكه نصر أقرب إلى الهزيمة ، هذا هو كل النصيب .

الماء يتساقط على جلدها السميك ، وجسدها المعتم يتحرك فى الحمام مكبوتا يحاول التمرد ، وأصابع أقدامها ذات المونيكير القديم تتقلص على الأرض محاولة الاحتفاظ بشئ .

بغى فى الثلاثين . كل الحياة تبدو بعيدة . زوجها كان يضربها فى

الحمام ويضحك . كان يريدها أمام الأولاد . يقول : «أبعدى عنى أنتى نجاسة» ، ويبلع قطعة حشيش ويبكى . كان مخبولا .

– أنت غبية يا عقيلة . غبية لكن جسمك حلو .

صوت الطالب الأشقر الأزرق العينين الذى قال هذه الكلمات لا يهدأ . انها تصدقه ، انها فعلا غبية . كان أشقر وأزرق العينين وكان يشرب معها الشاى فى شقته التى فى الدقى . انها غبية ، صوته لم يكن يخدعها ، لم يكن يسخر منها مثل الباقين ، وعندما سافر بكت . قال لها :

– خلى بالك من نفسك يا عقيلة لحسن أنتى غبية ، والناس حيكلوكى .

ماذا يأكلون ؟ حتى الأحلام راحت ولم يعد هناك مكان حتى للهزيمة . طشت قديم وبلاط وعنكبوت على حديد الشباك . غبية وعارية وحمقاء . محبوسة هنا فى هذه الشقة . طاحونة قديمة تطحن بذورا نيئة ، شقاؤها بلا معنى ، وليس له نهاية . تدور وراء فتحى يدور وراءها ، النقود التى يعطيها لها ، مجيئه كل ظهر ، ذهابه ، الشقة الخربانة ، والأثاث القديم . ولدت حياتها ميتة ، تصاحب فى طريقها جثتها . جسدها ميت يعيش إلى جوارها . تمد يدها لترتديه . ولكنه يفر منها ليقف أمامها ويحدق فيها . الجسد الميت المكبوت الذى يحلم بالتمرد . أحلامه وردية وهو قاتم . يحن إلى النسيم ، وهو مبلل بالعرق والطين . يتوق أن يجرى من هنا . . ولكن فتحى يمسكه ، يضع عليه تعاسته وفقره ، ويلقى فوقه بنفسه المهزومة ، وثقله البارد المريض ضاغطا على الأحلام قاتلا كل شبهة للحرية .

بغى فى الثلاثين ، الماء يتساقط على الجسد ، الحبه التى فى البطن لا

تزول . والصدر ساقط ، والحمام قديم . . ولكن . . ولكن . . دوامة صعبة تستعصى على الفهم تربطها بفتحى .

تشدها معه إلى القاع . شئ فى صمت العيون والجسد . عندما يجهد التنفس ويمتلئ الجسم بالعرق .

عندما تطل نوافذ الشقة على الظلام ، وتستحيل رؤية المستقبل تشعر هى بأنها تحبه ، وأنه طفلها وأنها إمرأته .

تروح الرؤيا وتجئ ، وتستمر حياتهما معا ، تغطيها تفاصيل الواقع .

قشرة فوق جرح .

النفس تنزف .

الوحدة تتزايد والحلم يستعصى على التحقيق .

أتسلق ، فأقع ، فيغلفنى التراب .

كانت قد خرجت من الحمام ، وذهبت فى استسلام عادى لتصنع الشاى ، الذى سيشربانه معا فى أكواب صغيرة إلى جوار النافذة التى تطل على أسطح العمارات .

(٣)

استيقظ ثقيلا ، متعبا ، يحمل فوق كتفيه عبء مبهم . جلس إلى جوار النافذة فجلست إلى جواره ، أكواب الشاى الصغيرة على الصينية القديمة بينهما تنفث بخارا لا إغراء فيه . وفى نفسه توقع غامض للكلمات التى ستدور .

الشمس الغاربة تضرب الأعمدة وقطع الأخشاب التى تتناثر فوق أسطح العمارات . . فتلقى ظلالها لتبدو كأنها مدينة مهجورة معلقة فى الهواء .

سوف تتكلم ، أو ترشف الشاى ، أو تطلب منه بوجهها كلاما . .

لم لاتراقب الشمس ؟ وهذا الخشب ، وأسطح العمارات . تعبير وجهها الذى يطلب دائما شيئا لم لا يروح ؟ . التوقع القلق الذى تطلقه عليه لم لايتوقف ؟

أنا أدفع كل ديونى . ايجار الشقة ، ومصروف البيت ، وجنيهات لها . لم لاتتركنى اذن ؟ . لم هذه البيضة التى تضعها تحتى . اذا وفيت بكل الديون والواجبات والالتزامات ألا يمكن أن تعيش ؟ .

حتى هنا فى هذه الشقة ، هذه العلبة التى يريد أن يغلق على نفسه فيها . كل الأشياء تتسرب . تدخل من الخروق . أنها علبة دودة القز . الخروق التى فيها للتنفس . ومن الخروق يتسرب كل شئ ، البيضة التى تحته ، ووجودها الثقيل . وصمتها الذى سينفجر .

تسرب بعض الأطفال فى العصر إلى الشوارع الخالية يلعبون ، بقع صغيرة من الملابس الملونة يراها فتحى تتقافز فى وسط الشارع الخالى ، من نافذته فى الدور السادس .

قمم الأشجار الصغيرة المقصوصة فى عناية تقاوم نسمات صيفية ضعيفة فتتحرك أوراقها حركة عصبية مبتورة متوقعة فى قلق وخوف لحظة الغروب .

الشارع فيما عدا الاشجار والاطفال القلائل ، خال لاتعبره فى فترة العصر هذه سوى عربات قلائل تمر متباعدة وبطيئة ، تحمل زوجات عجائز وسمينات ، يتنزهن فى عربات أزواجهن الذين ماتوا .

سيهبط الغروب على المدينة بعد قليل . سيخنق هذه البيوت العتيقة والشوارع الخالية . سيستمر يضغط على كل شئ فى رفق واصرار حتى يلقى بنفسه فوق المدينة ، ثم يستريح ، عندئذ ستضاء المصابيح الكهربائية ، رايات للاستسلام ، وينتهى كل عذاب الاحتضار . .

كانت روح فتحى وعيونه معلقة على الشمس الغاربة يريد أن يمسك بخيط واحد يفهم به ما يدور حوله أو فى داخل نفسه . ولكن كل شئ مختلط معا ومنكور فى كرة ثقيلة تضغط على قلبه . . تجعله مشلولا عاجزا وعديم الحيلة . لم يكن يفهم أين هو من هذا العالم . ولا ماذا يريد ؟ اللحظة التى يعيشها الآن لا وزن لها ولا معنى . لاتصلح لأن تصبح ذكرى لأنها لاصقة بجلده وهو مستسلم لها ومهزوم .

أى كلمات تقال لامعنى لها ولاجرس . هو لن يقول . وهى لن تفهم . ستظل الكلمات مدفونة . . كبنات صغيرات تحت الرمل .

وعقيلة تنتظره . كلمات كثيرة معلقة فى فمها ، هى ليست مثله . انها تستطيع أن تتكلم . والصمت ملك لها ، ولا يخيفها ، بل يطلق فيها رغبة لتحديه .

مالت عليه ، حاولت أن تمسك يده ، قالت . .

- مالك .

سحب عيونه من فوق أسطح العمارات وقال :

- أبداً .

كانت تسحبه إلى الداخل لتحبسه فى الحجرة . وهو يدخل فى استسلام وحزن . لم يكن فى استطاعته أن يتجنب شيئا ، أن يهرب من شئ ، أنه يرى سطح حياته الراكد ممددا أمامه إلى ما لا نهاية كذكرى صديق مات . ولكنه لايقدر على التنبؤ بما سيحدث فى اللحظة التالية .

كان صوت القطار يدوى فى الخارج ويقطع عذاب الاحتضار ثم يعود الصمت يستنزف كل ما فى نفسه من قوة .

عيونها تحاول أن ترسم شيئا مات . وعاطفة لم توجد . كانت تريد أن تتكلم معه . أن تضع ظهره إلى الحائط وتحاصره ليكلمها . وفى كل نفسه لم يجد لها كلمة واحدة .

لو بحث أكثر فسوف يقع فى البئر .

لاشك أن الكلام فى هذا العصر الغارب أصعب من الجنس . لو كان يرضيها أن يأخذها مرة أخرى للسرير لفعل . ولكنها تريد الكلام . تريد أن تبلل حياتها بلعاب فمها الغزير ، انها لاتدرك النظافة التى يعنيها الجفاف .

ولا تدرك أنهما معا مزروعان على أرض من الأسفلت وأن النمو مستحيل . تمد يدها وعيونها ، وجسدها يتثنى ، مليئا بالرغبة فى شئ آخر . شئ حلمت به ولم تدركه ولم تعرف ما هو .

هو يعرف أن الشئ مستحيل ، وأنه ضائع .

فجأة صرخت بصوت مشروخ ، وعال :

- أنت عاوز منى إيه . . أنت عاوز تعمل فى إيه ؟

صفعه السؤال . ما الذى يريده منها ولماذا يبقيها هنا ؟ .

- أنا كل اللى ليه شنطة وشوية هدوم . قول لى أمشى وأنت مش راح تشوف وشى أبدا . أنت بتعذبنى واللابتعذب نفسك . محدش فى الدنيا دى بيغصب على حد .

أصبحت حركة مخه سريعة لاصوت لها ولا نتيجة ، تجهده وتقوده إلى الظلام . وصوت بكائها المكتوم يملأ جسده بالحذر والتوتر ، بكاؤها لايقنع ولا يؤلم ، كأنه بيوت بلا أعمدة .

قالت :

- محدش بيغصب على حد . الدنيا واسعة ، والواحدة مش حتموت من الجوع .

أنا خلاص مش فاهمة حاجة ، إحنا عايشين مع بعض ليه .

- علشان بنحب بعض .

- كان زمان . أنت بتكرهنى ، بتكره تبص فى وشى .

- والله العظيم إنك عبيطه .

من أين يأتى هذا الكلام . انه بعيد . كل شئ بعيد ، ولا شئ هنا حقيقى . ما هو على أى حال الشئ الذى يمكن أن يقوله لها . هل هو يحبها أم يكرهها . وما أهمية هذا لها أو لى . لاشئ قليل من البراعة ويعبر هذه اللحظة الزلقة .

قام واقفا فى الصالة ، تحرك حولها حركة عصبية لامعنى لها . ضرب فخذيه وسوى شعيرات رأسه بيده . ثم ضمها إلى صدره .

– وحياة ربنا إنك عبيطه ، قومى ياشيخة قومى البسى وخلينا نخرج .

كانت الشمس فى الخارج قد مالت نهائيا واختفت وراء أسطح العمارات وامتلأ الأفق بضوء أحمر باهت كأنها قديس يحتضر .

(٤)

فى الشوارع ذات النور الباهر ، أحست عقيلة أنها قد انتصرت عليه ، صدرها وقلبها يقفزان بسعادة كأنها سمكة تعود إلى الماء . إنها تستطيع أن تضع يدها فى يده ، أن تعرض نفسها لعيون الناس ، وتدق بكعب حذائها وتلوى رقبتها علامة الفخر والانتصار .

وهو يلتصق بها ويبدو حذرا رقيقا يريد أن يخفيها ويختفى ، أن يذوب ، أن يسرع فى عمل شئ لايدرى ماذا هو . وأن يتقن صنعه . هى التى تملك هذا الشارع . هو يسير على أرض غريبة ، مملوكة للاعداء ، وجوده الخارجى مهدد ، وعيونه زائغة لا تستقر .

خطوات الناس سريعة إلى جواره تعبره بلا توقف وتخلفه ، هو يحاول أن يسير . الحركة حوله شديدة ، والحياة صاخبة . الشبان والبنات . ليست له هذه المدينة . كل هذه الأشياء من حوله تجعله وحيدا أكثر ، معزولا أكثر .

– شوف ، بص .

وينظر ، وتدور أضواء ، وحدقة عينه المرهقة ترد له صورة كأنها عفريت . انه لا يطمع فى أكثر من محل خال . إنه عجوز فى الرابعة والخامسة والثلاثين . موظف . وهذه المدينة ليست له .

فى شارع جانبى دفع فتحى باباً زجاجياً يقود إلى بار قديم . الموائد خشبية مربعة عليها مشمع أخضر قديم . النور باهت والسقف عال ، المحل قد فقد عزا قديما . والجرسونات بطيئة وقذرة .

نظر فتحى حوله وأحس أنه قد استراح من رحلة الشارع .

من خلف البار القديم ، فى نهاية المحل ، أبتسم جرسون وظهرت أسنانه الذهبية . جلس فتحى على المائدة المجاورة للباب . أمامه عقيله منتصبة وسعيدة تشعر بزهو أحمق .

بصق أحد الزبائن ، عجوز يقرأ الجرنال ، وقال بصوت عال :

– أزيك يا أستاذ فتحى . هات بيرة يا سيد .

التفت فتحى ناحيته ورفع يده دون أن يتكلم . مالت عليه عقيله . وهمست فى أذنه بشئ وضحكت . وابتسم هو وصفق بيده .

شيئا فشيئا سوف تهبط الأشياء داخله وتتراخى ، وهو ينتظر مقدم هذه الراحة فى ترقب قلق يكاد يبدو فى دقات قلبه . والبار صامت . لابد أنهم مبكرون . أقدام الزبائن التى تتحرك فوق القش المنثور ، تحدث فحيحا كأنه صوت الثعابين .

العجوز يرفع الجرنال من أمام وجهه ويبصق على الأرض . .

– عامل أيه يا أستاذ فتحى . .

ورد فتحى دون أن يلتفت إليه :

- كويس . إزيك أنته .

وعقيلة تبتسم ورقبتها تتحرك فى فخر كأنها عثرت على كل الحياة . ومالت بجسمها على الترابيزة .

- أنت عارف عمر ده ماشى مع مين دلوقت ، عارف البنت فريال . فريال الصغيرة ، اللى عامله شعرها ديل حصان .

والتفت فتحى ناحية العجوز ، كانت ساقاه تبدوان فى آخر البنطلون رفيعتين وبياضهما ناصع .

- فريال ؟ ! دى عندها ستاشر سنة .

- ستاشر ايه أنت راخر .

فى هذا البار عرف فتحى عقيلة . فى هذا البار كل تاريخها وحياتهما معا . بعد زجاجة أو اثنتين من البيرة سوف تبدو الحياة بعيدة ، ولن يكون من الضرورى التفكير فيها . الرغبة القديمة التى كانت تحركه الآن ليراقب هذه الأشياء فى إهمال ، ونصف عين مغمضة ، كأن نصفة قد مات . لم يعد يعنيه من هذه الأشياء إلا أنه موجود فيها . إنه حقا لايريد شيئا . ولكنها أشياء ضرورية لأنها موجودة . . عقيلة ، والبار ، والشقة وهو .

فتح باب البار ودخلت فريال . وسارت بخطوات سريعة نحو مائدة الرجل العجوز وجلست فى حزم ، وحماس . وفجأة تغير شكل العجوز أصبح فرحاً ، طفلاً ، كأنه يريد أن يقفز ، وصاح فى فتحى مرة ثالثة :

أزيك يا أستاذ فتحى .

كان فى صوته هذه المرة فرح يكاد ينفجر عنه جسده العجوز النحيل . ونظرت فريال ناحية فتحى مبتسمة فى سخرية . وبعد لحظات كانت تعبر المحل خارجة وخلفها العجوز يكاد يقفز فى مشيته ملوحا بالجرنال المطوى فى يده .

كانت عقيلة تضغط على قدم فتحى تحت المائدة . ووجهها الكبير قد تدلى فى إهمال ، ورائحتها تختلط برائحة البيرة فى أنفه . وعينه معلقة على صورة قديمة لمنظر أوربى وبقية الزبائن فى الأركان . الجرسونات لاتزال تقف إلى جوار الجدران تراقب المحل فى تراخ . المروحة الكبيرة فى السقف تدور . وأمسكت عقيلة بيده :

– عن أذنك يا روحى دقيقة واحدة .

وأحس بشئ مائع ينسكب فى حلقه ، راقبها وهى تسير فى المحل ، الفستان الذى يتدلى على جسمها فى فقر ، وكعب حذائها القديم ، وهزة مفتعلة فى ردفيها . .

«أى فأر قذر ، إنك حيوان» . صعدت هذه الكلمات إلى رأسه كأنها بخار ساخن . فبلع ريقه وقرر ألا يفكر . عادت عيونه تلتقى بالصورة المعلقة ، كان فيها بقرة كبيرة ترعى فى سهل أخضر أمام بيت يتصاعد من مدخنته دخان أبيض .

«ماذا يفعل عمر العجوز مع هذه الفتاة الصغيرة ؟ . فأر قذر .

«قطع عليه تفكيره بائع السميط الذى حياه فى أدب وأبتعد .

«جسد عقيلة أصبح أطار كوتش مخروقا . إنها لم تعد تصلح

للمغامرات القديمة . فى جسدها ، لامكان لى الآن . مثل هذا البار . . حتى الخيار الذى يقدمونه هنا شائخ وكله بذور . .

إن التفكير فى عقيلة أصبح ينتهى الآن دائما بالرغبة فى التخلص منها . ينتهى بأن يرى نفسه حرا من جديد . أن يعود إلى هذا البار بدونها ، أن يراها تجلس بعيدا على مائدة أخرى ، وألا تميل على مائدته لتهمس فى أذنه بأشياء . ولكن حريته كانت تبدو كحلم مستحيل . كيف ؟ وشقته فى باب اللوق كشعيرات لاصقة تحت أبطه . كغيار قذر ملتصق بجلده . أيام الوحدة والأرهاق التى سعى فيها إلى عقيله وضمها اليه . هذه الأيام تعود عليه الآن كأنها مرض مزمن . لقد أصبح أثنين دون أن يدرى . أصبحت عقيلة ظله الثقيل دون أن يدرى . وجهها مرآته .

فـــى الظهر كان يتمرغ معها على السرير . وكان جسدها لايزال جديدا . كان يرهق رجولته ، ويمتلئ جسده بالعرق ، وكانت هى تضحك فى الحجرة ، وتصرخ ، وتجرى فى الشقة ويجرى وراءها . ولم يكن يشعر أن هناك شيئا ينقصه .

وفـــى الليل كان يهرب منها . لم يكن يعود معها قط إلى الشقة فى الليل ، ففى الليل شئ يخيفه من جسدها . أنه يريد أن يرى جسدها ، أن يتصل بها فى النور . ففى الليل تمتلئ نفسه بخوف أصم . يسكن فى داخله ويجعله يشعر بأن النهاية قريبة ، كان يأتى إلى البار معها اذا أصرت ، ثم يأخذها إلى الشقة ويتسلق المدينة حيث يسكن هناك بعيدا فى طرفها الآخر .

عادت عقيلة لتجلس أمامه وتبتسم . عندما رأى وجهها وأحس برائحتها تملأ أنفه مرة أخرى ، أحس لأول فى هذا اليوم أن فى هذه المرأة قدره ومصيره . أن هناك شيئا غامضا بعيدا يربطهما معا .

إن الهروب منها مستحيل .

(٥)

بقى فى البار ثلاثة زبائن يعقدون صفقات صعبة مع بعض البغايا . ودب فى الجرسونات نشاط أخير ، وأطفئ النور الكبير فى البار . الليل يتقدم ، وعلى فتحى أن يواجه التحول الأخير فى النهار . دفع الحساب ، وعقيلة وراءه . وخرجا إلى الشارع .

عندما جفف نسيم الليل عرقه ، أحس أن رأسه خفيف . وأن الصور التى يراها الآن صور من عالم غريب . الدكاكين مغلقة . والأنوار فوق قمم المبانى تهتز ، وعربات الحنطور على النواصى تقف ملقية ظلها الثقيل تحتها .

قال لعقيلة :

– أنت كنت بتقولى ايه الضهر ؟

– أمتى ؟

– بعد الضهر

– أمتى ؟

– ساعة ماكنا قاعدين جنب الشباك .

– باقول ايه . . على ايه . .

– علينا

– مش فاكره .

– كنتى بتقولى «الدنيا واسعة ، ومحدش بيغصب على حد»

– أنت بتفكر فى الكلام ده ليه دلوقتى .

– هو مش كلامك .

– أنا نسيته خلاص .

كان حديثهما يرن فى الشوارع الخالية ، وأحس هو أن صوته غريب كأنه صوت شخص آخر . هذا الوجه ليس وجهه ، وهذه الحياة ليست حياته . أحس أن صوته الذى يخرج من فمه مقاومة حمقاء لحياته المرسومة التى تسير ولن تتراجع ، فكف عن الحديث .

الليل الذى يحيط فتحى الآن يجعله وحيدا جدا ، وحزينا جدا ، كل ما يريده ليس ملكه ، خطوات عقيلة إلى جواره تخنقه ، تدفعه إلى استسلام يريده ، ولا يقدر على غيره .

والقرآن الذى ينبعث من راديو مفتوح ويقرأ الترتيل ، يزفه إلى قبر لايريد أن يلجه .

وصلا إلى باب العمارة ، ووقف على الباب مرهقا يريد أن يهرب قالت عقيلة :

– تعال معايا .

- بلاش يا عقيلة النهارده ، أنا لازم أروح .

- شوية صغيرين .

- الدنيا وخرى ، وعندى شغل الصبح .

- عوزاك .

- بكره أشوفك . . الضهر .

- لا ، عاوزه أكلمك .

ركبا الاسانسير القديم ، ووصلا إلى الدور السادس ، دخلا إلى الشقة المظلمة وجلس فتحى على المائدة فى وسط الصالة .

دخلت عقيلة حجرة النوم وخلعت الفستان ورمت حذاءها وسط الحجرة . . كان فتحى يراقب حركاتها من خلال الباب .

ثم جاء صوتها رخوا :

- حتزعل منى . . ؟!

- فى ايه ؟!

ألصقت وجهها بالمرآة ووضعت يدها فى شعرها الخشن وقالت وفمها ملتصق بالمرآة :

- أنا حامل يا فتحى منك .

(٦)

لم يدر فتحى كيف وصل إلى الشارع فى هذه الليلة . الحديث الذى دار بينه وبين عقيلة لايذكر منه سوى كلمات قليلة . . كقطع مستديرة من

العجين تطفو فوق زيت مغلى . .

حدث كل شئ فجأة حدث . دارت كلمات غريبة بلا جذور . . . وابتسم . الهواء فى الشقة يشح . . نار كاوية حرقت عينيه ومؤخرة رأسه . أعمى يتلمس طريقه إلى الخارج . لايريد أن يصطدم فى الكراسى والمقاعد . فقط ألا يحطم شيئا . . أن يخرج من هنا . .

وجد نفسه فى الخارج . . فى الشوارع ذات الأنوار المتباعده الشاحبة . عليه أن يذهب إلى البيت . . أن يعود فى الغد إلى العمل ، أن يستمر كل شئ فى حياته .

وأسرعت خطواته ، وأسرعت . . لم يكن يرى الشارع . ولم يكن يستطيع أن ينظر خلفه . . وأصبح فى منتصف المدينة . أحس أنه مطارد . يحمل شيئا ثقيلا مريبا يريد أن يخفيه . الشوارع خالية . ولكنه خائف . شارع البواكى . . شارع محمد على . ميدان العتبة بلا زحام .

– أنا حامل يا فتحى . . منك .

ولم يقف . .

كانت أعمدة النور تلقى أمامه بظله ثم تسحبه ، خطواته تسير ، تطرق الأرصفة الخالية ، سيقان الأطفال العارية ، صناديق الزبالة المفتوحة ، قطط سوداء ، الفجيعة ساكنه ، نائمة ، ونوافذ كل المنازل مغلقة . امرأة عجوز تسعل وتتوارى خلف باب ، أنوار بائع الكباب ، هنا يعيش ، هكذا يذكر . . الأنوار توقظ الفجيعة . انها حامل .

وقف فتحى أمام بيتهم الخشبى القديم ودفعه ليتسلق سلما مظلما . .

من خلال زجاج باب الشقة رأى نورا خافتا فى الصالة . .

– مساء الخير .

وجاء صوت أخته من الحجرة البعيدة مقتضبا :

– خير .

كانت جالسة إلى جوار سرير أخيه المريض . وفى يدها فستان قديم تعمل فيه الأبرة . وعلى عيونها نظارة طبية مستديرة . . رفعت رأسها اليه لحظة ثم عادت إلى الفستان الذى فى يدها . وتركته واقفا على باب الغرفة لايستطيع أن يتحرك . قال فى صوت هامس :

– فيه حاجة ، سهرانه ليه !

رفعت عيونها من تحت النظارة وحدقت فيه وقالت :

– لا ، مافيش . .

تقدم بخطوات حذرة إلى داخل الحجرة ليقترب من سرير أخيه أحمد . عيون المريض مغلقة وفى وجهه شحوب وإرهاق وقطرات من العرق الرفيع لاتزال تملأ جبهته ورقبته . وجسده يبدو تحت الملاءة البيضاء هزيلا ونحيفا . .

– هو تعب النهارده ؟!

– أيوه كان تعبان ، أنت كنت فين ؟ كان بيسأل عليك . .

جلس فتحى على سرير أخيه . . أحس أن كل جسده يتحلل ويكاد يسقط . انه مرهق . متعب . ويريد أن يغطس فى ماء معتم . يشعر بنظرات أخته المتهمة تجول فى أنحاء جسده الكبير تكاد تكشفه وتعريه .

وتقلب المريض فى فراشه ، فتح عينيه . عيونه واسعة وكبيرة ، مسحت وجه أخيه فى شوق ، ثم ابتسم . الأخت لاتزال تعمل فى الفستان . والابتسامة تضئ وجه المريض شيئا فشيئا .

فتحى يكاد أن يلقى بنفسه فوق صدره .

النور الوحيد فى الحجرة يضئ جانبا من المخدة ، ورأس أحمد المريض واليدان الهزيلتان المليئتان بالعروق تعملان فى الفستان . والصمت المشحون معلق فى البيت القديم الملئ بأشباح الذكريات .

تحركت فتحية فى مقعدها وهى تقول :

– عاوز حاجة يا أحمد ؟

نظرا اليها المريض بنفس الابتسامة . . فخرجت من الحجرة وتركتهما معا .

أحس فتحى براحة وخوف . إن الحياة هنا تأخذ معنى آخر ، يريد أن يبوح بكل شئ . لأنه متعب ومرهق ، وابتسامة أحمد لاتنطفئ . . مريض منذ عام كامل وابتسامته لاتنطفئ . . تضئ مثل هذه اللمبة . . مد أحمد يده إلى فتحى وسأله :

– أخبارك إيه ؟

ليته لايسأل . يعذبنى . رأس فارغ . كل شئ هنا ينوب فى حجرته لامكان لى . إننى أحبه . كادت دموعه أن تخنقه ولكنه قال :

– أخبار إيه . . هو أنا عندى أخبار . . كله زى ماهو . . الشارع زى ما هو ، والدنيا كلها زى ماهى .

كان يريد أن يقول شيئا آخر . شيئا هاما وحقيقيا ، ولكن كل مافى وسعه يستعصى على الادراك المنطوق .

هنا يصبح الحنين أكبر والشوق أكبر . الشوق للمجهول الرائع المختفى وراء التعبير عن النفس . . وراء التلاقى . وراء الحرية التى يمنحها الصدق . . والفرح الذى تجلبه الحقيقة . لماذا لايقول أنه عاجز وأنه مسكين ومصاب . وأنه لم يعد يدرى ماذا يفعل ؟

انه يبتسم وأنا أحمل كل هذه القذارة . الجنين الذى فى بطنها ينتفخ فى رأسى . وجسدى يحمل رائحتها .

– أنت عارف يا فتحى أنا بافكر فى إيه طول النهار ؟ أول ما أخف راح نروح أنا وأنت اسكندرية . . لا ، مرسى مطروح . . ونقعد على طرابيزه . ونشوف الشمس وهى نازله الميه . . ونقعد نتكلم ونتكلم وبعدين نمشى على الرمل . وتقعد أنت تكلمنى عن الفراش الملون . . فاكر الرحلة اللى طلعناها سوا فى البحر الأحمر ، كنت أنا أيامها فى سنه أولى حقوق ، وكنت أنت بتحضر الرسالة بتاعة آخر السنة . . جمعنا يومها أكثر من ٤٠٠ فراشة . . فتحية بتقول أنهم لسه فى الاوده بتاعتك .

عاوز أشوفهم . . ابقى جيبهم الصبح هنا . أنا بحب الالوان قوى . مش لاقى حاجة حواليه فيها ألوان .

كان صدره يرتفع وينخفض بسرعة وهو يتكلم . ووجهه يبدو عليه الارهاق . الروماتيزم قد أصبح نشيطا جدا يرتقى إلى صدره فى سرعة ولم يستطع فتحى أن يوقفه عن الحديث . .

- تعرف يا فتحى ، أنا عارف إن مافيش حاجة حتحصل ليه أبدا وأنت معايا . أما بتكون هنا بأحس إنك بتحمينى . فتحية بتعمل كل حاجة أحسن منك صحيح ، لكن أنت بتحمينى . بأحس إنى مطمئن وأنت هنا .

- حـاجـة إيه يا وادانت ، أنت بتـخـرف والا ايه . اوعى يا واد تكون سخن . .

وضحكا . .

ومد يده ليضعها على جبهة أخيه . . إنه يريد أن يضمه ، وأن يقبله ، ولكنه لن يقدر على سد فيضان المشاعر الذى ستطلقه حركة كهذه . قام فتحى واقفا وقال :

- عاوزين ننام بقى الساعة واحدة .

انطفأت الابتسامة من وجه أحمد ، كأن لعبة تسحب من يده . ولكنه استسلم وأغلق عينيه .

سار فتحى إلى حجرته وأغلق على نفسه الباب . كانت أكوام علب الزجاج الصغيرة التى تحتوى على الفراش مكومة على ترابيزة كبيرة فى طرف الحجرة مغطاة كلها بالتراب . خلع ملابسه . وألقى بنفسه على السرير . بعد لحظات أحس بالباب يفتح بهدوء وفتحية تدخل . .

فتحى ، أخوك تعبان قوى . . الدكتور لازم يشوفه بكره . .

- ان شاء الله . .

- من ساعة ماجيت أنا من الشغل ، وهو مش قادر يتنفس ، وشه ساعة العصر كأن أزرق . أنت مش تخليك معانا الأيام دى . .

- حاضر يافتحية . . سيبينى دلوقت بقى أنا عاوز أنام . . أنا كمان تعبان .

(٧)

ثلاثة أيام وأنا خائفة . فرصة أخيرة هذه الايام . فتحى آخر فرصة . بعدها البوليس والشارع والمستشفيات ، سلالم هذه العمارة تقود إلى النواصى ، فتحى . سوف . . أقتلك ، أنت الفرصة الأخيرة .

كانت عقيلة راقدة في السرير . الساعة تقترب من العاشرة صباحا . ملاءة السرير قذرة . . ولكنها لا تراها . إنها غارقة فى تفكير يشبه المخاط . لزج ولا ينتهى . . كان قميص نومها ينحسر عن فخذين أسمرين وجسد منهوك أصفر كأنه أرض المقابر . . راقدة فى وسط السرير تراقب الشمس وهى ترتفع فى السماء وتدفع بالذباب إلى داخل الحجرة فيطن حولها . وحول قشرة الموز الملقاة على الأرض . . وقد أسودت وتثنت أطرافها .

فتحى لم يأت إلى الشقة منذ تلك الليلة . ثلاثة أيام والشقة كأنها كوم من الحراب تجلس هى فوقه . شئ يشدها ويمنعها من الخروج . على باب الشقة تقف كل المخاوف والأهوال . دودة تدخل شرنقة شيئا فشيئا . . الخيوط تلتف حولها . كأن ماردا أسود يحيك حولها الخيوط . . يختلط الخوف بالحنين وينزف العرق . . والاحشاء ساخنة تتحرك . . من هو السجان؟

من الذى يمنع بغيامن أن تنزل إلى الشارع وتأكل فى حرية . هذا الباب البنى اللون والقفل اللامع . . وهذا الجسد الخفيف المستباح الذى لاقيمة له . فى داخل الجسد جسد له نفس الخصال والقيمة . ابنى

مثلى . .

لا أملك سوى هذا الجسد الذى أسحبه ورائى . . لابد أن بعض الرجال يشتهون المرأة الحامل . لابد أن بعض الرجال يريدونه ، طالب مراهق . . أو موظف جبان ، أو كهل ذو جسد ميت وعقل طماع . . دائما سأجد من يريدنى . .

الخروج مستحيل . الشقة ضيقة . . وفارغة . . أريد أن أختلط بهذا المكان . . أن أدع التراب والقذارة تتكوم حولى . . فقط ألا أتركه ، هنا لى سرير . . وتستطيع الشمس أن تدخل على الحجرة . . أما فى أى مكان آخر ؟!

دق جرس الباب . ودخل الرجل الذى يحمل لها الثلج كل ضحى . انه يبتسم فى وجهها وهو لايزال على الباب . . فى بلاهة وعبط ، وهى تضحك له ضحكة خرساء بلا معنى . . ويسرى الارتباك فى جسد الرجل . . وفى جسدها . . تذرع أقدامه الغليظة الحافية أرض الصالة فى طريقه إلى المطبخ . . ويضع الثلج فى الثلاجة ويعود إلى صالة يقف أمام عقيلة للحظات يحدق فيها ، يستحلب الاشتهاء والحسرة ، جلبابه مبلل ، وذقنه نابته ، تنحسر ضحكته وتقف هى أمامه ، لحظة غامضة صعبة . . الرجل ينظر اليها فى غيبوبة وخوف ثم يبتسم ويسرع خارجا من الشقة يدمدم . .

تقف وحيدة فى الشقة معلقة من رأسها . . لماذا يضحك لها ؟ ودمدمات الاشتهاء العاجز فى أذنها كطنين النحل . . لم لايمد يده ويجذبها

إلى جلبابه المبلول القذر . ويتمرغ معها على البلاط . . إنها هنا من أجل هذا . . وهو يعرف . البواب . . وأصحاب الشقق . . يقولون . .

ويفور رأسها الصغير ، وينقلب الانفعال إلى قوة حارقة تحرق جسدها الجائع العاجز . . فتلقى بنفسها على السرير ، تأكل حياتها بضروس عقلها . . طاحونة كبيرة تطحن البذور النيئة . . جسد ضائع . . وشقاء بلا معنى . .

أى راحة يمنحها الشعور بالأثم وأى سعادة ، ولو انفتحت طاقة ودخل على نفسها شعور بالندم . يشرب القلب الندم . القلب العطشان سيشرب الندم فى نهم . قلب مهجور مشقق جاف ، ككعب فلاحة عجوز .

حتى الدمعتان الهزيلتان الضعيفتان يجفان بسرعة فوق سطح الوجه الكالح . .

اللبوة العجوز ، من صنع لها القفص ؟ ثلاثون عاما عمرها ، شئ خفيف بلا وزن . . الطفلة الصغيرة التى تربت فى اليتم فى حوارى شبرا . . أصبحت بغيا وحيدة وحاملا . كانت تلعب فوق أكوام التراب بعروسة من قماش وقش وخرز . . كل الرحلة الطويلة لامعنى لها . سطا لص وسرق المعنى من الحياة .

أين فتحى الآن ؟ أنه يغرق وحده . . لماذا لانغرق معا . . لو كان معى فسنغرق معا فى اطمئنان وراحة . . سوف نهبط ونهبط معا . . سأتعلق فى رقبته كطفلة . .

وتحسست بطنها . .

انه خائف . . جبان . . أنا أعرف هذا . . طوال عمره كان جبانا . . الرجل الجبان لاينام على جنب واحد . . يتقلب ، يدور ، يتلاشى في الأغطية والسرير . . ولكنني أحبه . . طفلي ، تعودت عليه . . الوغد ، رأسه الأصلع وعيونه المستديرة . .

ووضعت عقبلة يدها على بطنها وحدقت في الشباك المنير المفتوح ، الضوء حارق ، فكرت في حديقة ، في طفل . . في كوب لبن . . في فتحي . . في عربة أطفال . .

الشقة حولها قذرة . . فتحي غائب . . كل شئ مستحيل . . الأرض . . الأرض والتراب . . وكل شئ قائم ولا وجود له الشمس تكسو الحجرة . . والملاءة متسخة . . الطاحونة تدور . . تطحن البذور النيئة والهواء . . بائع الثلج الأبلة . . خائفة . . الجرس لم يدق . المفتاح لن يدور . . لبؤة محبوسة ، الضحى . . الظهر . . العصر . . لبؤة محبوسة . .

شهر أغسطس . . الدنيا حر . الطفلة تلعب في الحارة ، العروسة مكسورة . . ذراعها مبتورة وخرزة عينها ساقطة . .

(٨)

الغرفة التي في نهاية الطرقة رطبة وتشبه التابوت . . يحتلها فتحي كمكتب له : صغيرة ولكنها في الدور الثالث . . تطل على حديقة المتحف الزراعي . .

فتحي يغلق الباب ، ويبقى في الحجرة ، العمل قليل ، قليل أو لايكاد

يوجد . . ورقة أو ورقتان . ويظل التابوت مغلقا . . لايدخل الحجرة سوى رجل البوفية والفراش وبعض الزوار . . هنا يشربون القهوة . . قهوة البوفية هنا ممتازة . . قهوة ذات وش وثقيلة والبن مضبوط . . أى فراغ ؟!

مجموعة من الدوسيهات التى لاتفتح . . تنظف كل أسبوع . الفراش هو الذى ينظفها . . أسماء . . مقتنيات ، فهرسة ، أرشيف . . شئ مالا معنى له . . الحياة هنا لونها بنى مثل لون الخشب . . المكتب كبير ونظيف وخال . .

أنا وحدى الذى أتحرك ، الجنين فى التابوت . . أنا والمروحة نقطة ثابتة ، قمة الحركة ، الطاقة الكامنة والشئ الذى لامعنى له . . فى منتصف المروحة التى تدور . أحدق فى المنتصف تماما . . وأسمع خطوات الزوار فى الطرقة ، صراخ التلاميذ ، الجرنال فارغ . . فنجان القهوة قاعه جاف .

أحمد أخى . . المريض . . عقيلة . . عقيلة السجن ، الجرنال فارغ . . فنجان القهوة قاعه جاف . . لوائح . عمليات التصدير الكبيرة التى تقوم بها أعظم المؤسسات . . أفخم المؤسسات . . لا مؤسسات . . نحن المؤسسات . . من هى المؤسسات . . أبعد المؤسسات . . من قال . . نحن نقول . . هم يقولون . ولكن أنا أقول .

فنجان القهوة قاعه جاف ، وبقية الماء فى الكوب ساخن . . المروحة تدور . . لاشئ يدور . النقطة ثابتة . . أنا مسجون . . عقيلة سجن . أحمد سجن . . فتحية سجن إنها بلا روح . . ماتت .

أحمد يحبنى ، عيونه تحبنى . تحب أخاه . يغسلنى يطهرنى . ولكننى أتلوث . . الطفح . كهل عجوز ذو خمسة وثلاثين عاما . .

لو ظل هنا فى التابوت . . لا باب ولاشباك . . هنا أمان . . قمم الأشجار . . من النافذة والحديقة أريد أن . . .

خطوات الزوار فى المتحف . . . وقاع فنجان القهوة جاف ومنتصف المروحة ثابت لا يدور .

أدور . . وأدور . . خطوات فى شارع بلا نهاية . . أظافر تتشبث بالحجر . . أنا عربة معطلة . . . عربة ملقاة فى وسط الصحراء . .

أى طريق . . كلها طرق . . لايهم . . هنا أو هناك سوف أعيش . . أنا دائما أعيش . القلب دائما يدفع دما فى العروق . . والصدر يرتفع وينخفض . والجنس يتسلق الظهر ويمتلك الرأس والجسد . . ماذا يهم . . عربة خربة ملقاة فى وسط الصحراء . . .

وفى لمعة من لمعات الفكر تصور فتحى معنى الكرامة . معنى الكرامة أن يكون الانسان ثقيلا . . صخرا . . ثابتا فى الأرض . .

أنا لا أملك الكرامة . .

بدونها يصبح الانسان خفيفا . . تكنسة مقشة . . تراب . أقدامه لاتمتلك الأرض . . ضئيل . صغير . . يوضع فى تابوت وينسى . .

الكرامة تبهر . . ولكن أنت يافتحى بلا كرامة . . لم أعرفها . . لو كنت تعرف الكرامة لما حدث هذا كله . أنت يا فتحى لوح رفيع لاسمك له . سطح أملس . .

لم لا أسقط . . وأسكت . . ما جدوى الحساب والفكر . ما جدوى الحرص والعد والرؤيا . لم لا أسقط فى الحياة . . أليست بئرا بلا قاع ؟ . لم أدور حول البئر ولا أسقط . . لم أخشى القاع ؟ . سوف أذهب اليه على أى حال . .

أنت قذر ، فكن قذرا . . لم لا تكون ؟

تحرك . السجن هنا . وهناك . لامفر . . أنت ولدت له . كأنفك . كأذنك . .

هذا هو منتهى القدرة ، وكل ما وصلت اليه الاحلام . . إنها النهاية ، السور الأسود الذى كنت تخشى الارتطام به ، إنه يقترب . . عشت طول حياتك والسجن قائم والعجز قائم . الاسوار هنا مغروزة فى اللحم . . نصف الأحلام فى الخارج ونصفها تمزق على السور الشائك . . نصف ما أريد هنا والنصف الآخر أكله القطار السريع . . الفضيحة قادمة . . وكل التماثيل تتكسر .

(٩)

انفتح باب المكتب ودخلت عقيلة . . فستانها أحمر وخطوطه صفراء . . حدق فيها فتحي . . ووقف . . كان يشعر أنها طويلة تسد الباب . . وتحرك نحوها فى تردد . .

فى نفس هذه اللحظة التى فتحت فيها عقيلة الباب ، كان أحمد المريض يشهق ووجهه شاحب ، ويد الطبيب البيضاء الباردة على صدره ،

كانت أخته تقف إلـى جوار السـرير ناحلة ، صفـراء ، ليس فى وجهها نـور . .

- النبض ضعيف قوى ، شوف الاطراف يا أنور . .

لمعت أبرة رقيقة فى يد التمرجى وأخذ يشك بها قدم المريض العارية ثم ينظر إلى الدكتور ويهز رأسه ، ساد الحجرة صمت . .

- أنا كنت ضرورى حشوفك النهاردة . . كنت جى بعد الشغل . .

ابتسمت عقيلة ابتسامة صفراء ، وسقطت على الكرسى الموضوع أمام المكتب . . سوف تبدأ معه مبارزة صغيرة . . يجب أن يكون كل شئ واضحا . . أن تسير نحوه فى خطوط مستقيمة . . أن تصوب كلماتها جيدا .

- الثلاث أيام اللى فاتوا . . كانوا غصب عنى مكنتش عارف !!

لم تكن قد تكلمت بعد . . ابتسامتها المعلقـة كانت فقط ترتعـش فـى تهدج . . كان من الممكن أن تنفرج هذه الابتسامة أما عن ضحكة وإما عن صرخة عالية . . وعين فتحى عليها ، خائف ومتردد . .

- ازيك يا فتحى . .

أشار الدكتور لشقيقة أحمد أن تخرج من الحجرة . . هز رأسه فتحركت فى بطء لتقف على باب الحجرة . كان شئ ما يجذبها إلى الداخل ، والدكتور والتمرجى يتحركان حركات أتوماتيكية . . وغامضة . . فى الحجرة . . عيون المريض لاتزال مفتوحة . . وجهه الأبيض الذاهب يتلقى النور فى برود . . . ولا مبالاة . . وعلى السرير مطارق من المطاط ،

وقطع من النيكل الذى يلمع . .

بعد أن خرج فتحى فى الصباح تدهورت الأحوال بسرعة . . لم تكن الأخت قد خرجت بعد . . جاءت الأزمة ، كانت عنيفة . . كان أحمد ينادى على فتحى . . تنفسه المرتفع يختلط باسم أخيه الغائب . . استدعت الأخت الدكتور بسرعة . . كل شئ يحدث وفتحى غائب .

فتحى كان يجب أن يكون هنا . .

– أنت هربت منى ليه ؟!

تراجع فتحى فى الكرسى . . وحاول أن يتماسك ويدع السؤال ينوب أو يفقد بعضا من حدته . .

– أنا مش هربان يا عقيلة ، أنا عارف إنك ضرورى حتفكرى كده . . أنا صحيح كنت مشغول ، كنت مش عارف أعمل حاجة . . ولكن مفكرتش فى حاجة غيرك . .

– أنا كنت عوزاك طول الوقت ده وأنا عوزاك . . أنت فاكر أن الكلام اللى قلته ده كان سهل على . . أنا فكرت يافتحى ، وفكرت ، فكرت قبل ما أقولك . . وفكرت النهاردة قبل ماجى . . لكن مافيش فايده ! مافيش حل . . الحل الوحيد لينا أن إحنا نتجوز . .

– طبعا يا عقيلة ، أنا عارف ده وبفكر فيه . .

– لا ، أنت بتفكر ازاى تخلص منه .

– نعم ؟ . .

– مبقاش فيه داعى أن حاجة تستخبه . الادب والذوق بتاعك مبقاش

نافع . . احنا دلوقتى كده . . على المكشوف .

- انتى بتقولى اية ؟!

- شوف يا فتحى . . الكلام بتاع النهاردة عوزاه يكون آخر كلام . . مش عوزاه يكون زى كلام كل يوم . .

- كلام ايه . . انتى غريبة قوى . . ايه اللى حصل . .

- اللى حصل إنى حامل . . فيه حاجة بتكبر فى بطنى . . ده اللى حصل . . أنت طبعا مش عارف إيه اللى حصل ؟! . .

كان صوتها يعلووفتحى يتلفت حوله فتصدمه جدران الحجرة الصغيرة . . أشياء جديدة تأخذ طريقها للحدوث . . التصدع النهائى قد بدأ ولن يوقفه شئ الآن . .

كان يبدو أن هناك كلمات كثيرة محشودة على لسان الشاب الذى يحتضر . الرقاد الطويل والمرض وحتى لحظات الاحتضار هذه لم تستطع أن تطفئ جوعا غريبا للحياة . كان يريد أن يرى أشياء كثيرة . ولكنه يدرك الآن أنه لم يعد هناك وقت . . كل الوقت الذى بقى قد يكفى لكلمات قليلة يستطيع أن يفكـــر فيها ، وقد لاينطقها ، من الممكن أن يجد الانسان مهربا . . كان من الممكن !! .

فكر المحتضر فى مجموعات الفراش الملون . . فى قطع صغيرة من الزجاج الملون . . فى تركيبات بارعة من الالوان الباهرة ثم أغلق عينيه فى اجهاد مفاجئ . .

- أظن أخوه لازم يكون موجود ، ممكن تدى التمرجى نمرة التليفون .

– من يوم مـاعـرفـتك وأنا مـحـبـوسـة فى الشـقـة . . مـاعـرفـتش حـد . . مـاشـفـتش رجـاله . . أنا عـارفـه ، أنا بقـول الكلام ده عشـان تعـرف . . عشان متحاولش تفكر . .

– عـقـيلة . . أنا مش عـاوز الكلام ده . . مـش عـاوز أسـمع احنا فى مكتب . .

– أنا عارفة إنك جبان . .

أحس أن شيئا يكسر فوق رأسه . . أن كل ضعفه وحياته الكريهة تهب عليه الآن لتـتـحـداه . . الاشياء التى لم يقتنع قط بأنه قـادر على فـعلها تصبح الآن بسيطة . . أن ينتحر ، أن يقتلها ، أن يطلق الغضب الذى لم يره قط . . الغضب الذى لم يتفتح قط فى صدره . . يراه الآن يكبر ويتلوى فى ذهنه . . كأنه دخان ساخن . .

كان يريد أن يضربها . . أن يجرها من شعرها الآكرت فى طرقات المتـحف . . وأن يدع الجـمـيع يرون كل شئ . . . التـلامـيـذ والموظفـون يصطفون على جوانب الطرقة ويصـفـقون . . ثم يخرج بها من المتـحف ويتزوجها فى ميدان التحرير . .

أن يطلق الآن صرخات يهدم بها معنى حياته ، يعطى الشمس التى تريد أن تغرب معنى قبل أن تموت . .

شئ مـا ممكن أن يحدث فى هذه اللحظة فيكف عن التـفكيـر . . أن ينطلق منه فعلا فى هذه اللحظة فيعدل كل شئ . . أن يكف عن الحساب ، أن يكسر العادة التى يحيا بها . . وأن يصبح فجأة شخصا آخر .

منذ أن عرف عقيلة وهو يشعر بأن هذه اللحظة ممكنة ، وبأنها قد تحدث . . اللحظة التى يصبح فيها محاصرا وعليه أن يقفز السور . . كان يعلق على هذه اللحظة كل الآمال . . وكان يخاف منها كل الخوف . . وها هى ذى الآن تقترب . . وجه عقيلة تتلاشى ملامحه أمام عينيه . . ويصبح كأنه سراب عميق . . انها تحدق فيه وتنتظر . .

إلى الآن وكلماتها كانت حسنة التصويب . . ولكنها لن تستطيع أن تصبر أكثر من هذا . انها تتحرق شوقا إلى أن تعود إلى طبيعتها . . أن تبكى . . أن تكف عن التمثيل . . انها ترى نفسها تبكى وتقبل حذاءه . . ولكنها تتماسك ، بعد لحظات قليلة قد يسفر الأمر عن نتيجة . قد يتغير وجه العالم وقد يتغير فتحى . .

انه الآن يغلى . وعليها أن تنتظر الانفجار . .

ليس هناك من يدرى كم كانت خطواتها صعبة إلى هذا المكان . . ولا كم فكرت . . الذى كان يطمئنها انها شعرت فجأة أن كل شئ مدبر ومرسوم . وأنها لاتملك الا الاستسلام للأشياء التى يجب أن تحدث . . أحست أن عليها فقط أن تضع الاطار السليم الذى سيقودها إلى الحالة الجديدة من الحياة المكتوبة لها . . فكفت عن التفكير ، وأصبحت تتصرف وكأنها تتعقب خطوات شخص مر من قبلها . .

ولكنها الآن مجهدة . . تريد أن تستسلم . . أن تجلس على رمل بارد . . وأن تترك كل شئ يحدث . . انها تحب هذا الرجل المصدوم الذى يجلس حائرا أمامها على الكرسى . . تريد أن تمد له أى يد . . أن

تساعده بشئ ما . . الا أنها لا تملك . .

كل الذى يحدث حولها يجب أن يحدث حتى ولو أحست فى وسطه بالغربة . . فقط لو يكف هذا الغثيان الذى يصعد بسرعة إلى رأسها ويدير الحجرة أمام عينيها . .

جلست فتحية على كرسى فى الصالة . . عيونها فى الأرض ، وباب حجرة أخيها مفتوح يتصاعد من داخلها صوت غريب كان الدكتور لايزال واقفا ، على وجهه ابتسامة لاتزول . . والصالة تبدو كأنها ميدان ينتظر حدوث المعركة . كل الأثاث حولهم منتصب متأهب . . والكلمات التى يريد أن ينطق بها الدكتور تبدو مستحيلة . . فعلى وجه فتحية يأس وحزن كأنه تلال من رمال . ساكنة ، لا يتحرك فيها سوى أصابعها التى تقبض على بعضها البعض فى عنف . . وتتحرك بين اللحظة والأخرى كأنها تطلق شيئا محبوسا . .

قال الدكتور :

– أظن مكتب الأستاذ فتحى فى الدقى ؟!

وهزت فتحية رأسها ، وعيونها ترى وجه الدكتور لأول مرة . . كانت عيونها تبحث عن شئ تتعلق به . .

قالت :

– فيه ألم دلوقتى يا دكتور ؟!

وهز الدكتور رأسه دون أن ينطق . .

كان هناك ألم كثير . . ولكن الحنان والشوق إلى الحياة يغلفه ويجعله

بلا أهمية . المهم هو القطار الذى يهدد بالذهاب مسافرا . يحمل معه كل شئ . اذا رحل هذا القطار فسوف يتجرد كل شئ من معناه ، سيصبح الممكن غير ممكن ، والذى كان سيحدث لن يحدث . . حتى الذى حدث سوف يزول . . وأحس المحتضر أنه مهدد بالفراغ فخرجت من صدره شهقة عالية كان صداها ارتعاشة انتابت جسد فتحية .

كان فتحى لايزال واقفا فى الشباك ، يطل على الحديقة الخضراء ذات الاشجار الكثيفة . . ويشعر بعيون عقيلة فى ظهره . . كان يقول لها دون أن ينظر إليها :

– أنا محبش حد يدفعنى على تصرفات . . أنا اللى اتصرف ، من يوم ماعرفتك ماقصرتش فى حقك . .

– أنا عمرى ما طلبت منك حاجة فوق طاقتك . . عمرى ماجريت وراك ومسكتك . . اللى أنت عاوزة كان بيتعمل . .

– أنا مش فاهم . . مش عارف أمال إنتى خايفة وقلقانة ليه . .

قد تستطيع مثل هذه الكلمات أن تخفى كل شئ . . أن تمحو من العلاقة كل الأشياء التى تسبب الخوف والقلق . وأن تتركها مستقرة وواضحـــة . كانت عقيلة تريد أن تستسلم للمجرى الذى يريد أن يقودها فيه . . ولكنها تتذكر جيدا تهربه منها ونظرة القرف التى تكسو وجهه فى بعض الأحيان . . وقلقه ، ورغبته فى الخروج من الشقة . . والشئ الذى حاولت دائما أن تمسكه ولكنه كان يفلت منها . لم يعد هناك مكان للتراجع أو للتنازل . . عليها أن تدعه يفرغ الآن أمامها كل شئ

- أنا خايفة لأنى عارفه إنك عاوز تهرب منى . . عاوز تتخلص منى .

التفت إليها بسرعة وعلى وجهه انفعال مبكوت :

- انتى عارفه كده ؟

- عارفه ، وحسه . .

وسكت فتحى . لم يجد شيئا يقوله . .

- أنت عمرك ماحسيت بحاجة . غرقان فى نفسك بس . . من أول ما عرفتك عاوزه أكلمك . . وأنت بتهرب منى . . عاوزه أقولك أن فيه فى قلبى حاجة . انى بنى آدم . عايش جنبك وأنت مش عاوز تحس . . أنت دلوقتى ماتقدرش ترمينى ، ولازم تسمع الكلام اللى أنا عاوزه أقوله . أنت دلوقتى بتاعى .

نظر اليها فتحى وهو يبتسم . . كان فى صوتها شئ طفلى غريب ، وأصبحت قريبة جدا من البكاء . . وكأن كلماتها المتحسسة البلهاء قد ألقت ماء باردا على كل شئ .

(١٠)

كان كل شئ قد انتهى عندما وصل فتحى إلى البيت . . الملاءة البيضاء تغطى وجه أخيه وأخته معلقة فى صدره يتحرك بها ، ولا يدرى أين يضعها . .

امتلأ البيت برجال غرباء . يتحركون ويحركون كل شئ . . وفتحى يتحدث معهم ، ويلقى بعض التعليمات . . والساعات تتقدم . . والموت

يصبح قديما فى البيت .

لقد بكت عقيلة وهى تتركه على باب البيت . كانت تنتظر أن يتركها تصعد معه ولكنه لم يقل لها شيئا . . نزل من التاكسى وقفز إلى السلالم ولم يقل لها شيئا . تذكرها بعد مدة عندما رأى أن البيت قد امتلأ بالغرباء . . لقد أحس أنه يريد أن يرى وجهها بين هؤلاء ، بينهم قد تختفى .

كان التراب يغطيه وهو واقف فى وسط المقابر جسده ملئ بالعرق والمنديل الذى فى يده قد أصبح قذرا ، الناس ينسحبون من حوله ، ولا يلمح إلا وجه أخته يصفع عينيه باستمرار ، نظارتها الطبية وفستانها الأسود .

انه . . هو وهى . . غرباء هنا . ليس هناك شئ يمكن أن يفعلوه . .

اقتربت جماعة من النساء يرتدين ملابس سوداء وقالت احداهن :

- الست فتحية أختك حتيجى معانا . . بلاش هى ترجع البيت . .

وهز رأسه ، وأختفى وجه أخته من أمام عينيه .

انهم جميعا يتركونه ، ولا يخلفون وراءهم الا الغبار . . والشارع الذى عليه أن يسير فيه أجرد كله أحجار . وفوق الأحواش المعتمة اللون بعض الرايات المصنوعة من قماش باهت ، وفى ساقية أرهاق وتعب . .

لأول مرة منذ مدة يشعر حقيقة أنه خارج المدينة . . ان كل القاهرة بالنسبة له الآن ذكرى بعيدة . . كأنه لم يوجد بها قط . كأنها كانت حكاية قصها عليه أحد . .

والظلام قد بدأ يملأ هذه الشوارع المهجورة التى يسير فيها ومنظر الأحواش عن يمينه ويساره متكرر لا معنى له . . يقوده فى النهاية إلى مقهى صغير يجلس فيه بعض البنائين والعمال . . وجلس على كرسى ثقيل من القش والخشب . . أمامه منضدة رفيعة سطحها من النحاس اللامع . . الأرض تحتة ترابية مرشوشة يلتصق طينها بحذائه المغبر .

شرب زجاجة كوكاكولا نصف باردة . . وأحس أن كل شئ حوله غير حقيقى ، وأنه يتحرك فى ديكور مسرح خالٍ .

عبرت أمامه قافلة صغيرة من الأطفال تصرخ وتضحك وتساقطوا إلى جوار القهوة يلعبون . .

أحس بحرارة غريبة تجتاح جسده المرهق ، وبأنه يريد أن يبكى . . لأول مرة فى هذا اليوم الطويل يشعر أنه قادر على البكاء . . وبأن البكاء سوف يغسل أشياء كثيرة . .

كان حديث العمال الذين يجلسون إلى جواره عاليا . . ولم يكن يستطيع أن يتتبع أى جزء منه . . وقف واستعد للانصراف وهو يحدق فى المكان وكأنه يفارق بيته الذى لن يعود اليه إلى الأبد . . أحس أنه سيظل يذكر هذه القهوة طوال حياته . .

وهذا الصف الصغير من الأطفال الذين كانوا يجرون ويصرخون أمامه . . وهذا الظلام الذى يسقط على المكان مختلطا بالتراب ، وبحديث العمال الذى لم يفهم منه شيئا . .

فتحت له عقيلة الباب ووقفت فى منتصف الصالة لم تكن تدرى ماذا

تقول . . لم يكن فى الشقة نور . أنوار الشارع والعمارات المجاورة تدخل من النوافذ المفتوحة وتلقى أشباح ظلال غريبة تحت الأثاث . . قميص نوم عقيلة الأبيض ينبعث منه ومن جسدها رائحة الصابون . لقد خرجت من الحمام الآن . . ووقفت أمامه فى الصالة تنتظر . .

كانت تشعر بسعادة لاتستطيع التعبير عنها . وكان هو متعبا . . يكاد يسقط من الاعياء . . لم تدر بينهما فى تلك الليلة كلمات كثيرة . . ولكنه بعد أن استلقى فى السرير وقد غسلت له جسده ، وامتلأ أنفه برائحة الصابون والنظافة . . رقدت هى إلى جواره ساكنة . . والنوافذ مفتوحة ، ولا ضوء فى الشقة . قالت :

– تعرف أن دى أول ليلة تبات فيها معايا . .

(١١)

وفى الفجر عندما بدأت القطارات تتحرك ، استيقظت هى لتغلق النوافذ . مئات العصافير كانت تصرخ فوق شجرة كبيرة مجاورة ، والدخان يرتفع من فوق المدينة فى بطء لتبدو معالمها الكبيرة خارجة من وسط الضباب . نسيت عقيلة نفسها . واختفى كل شئ سوى هذا المنظر الذى تحدق فيه وكأنه يغسلها ، أحست بحنان وشوق لأن تقوم بأعمال صغيرة وجميلة .

كان كل شئ يرتفع عن حياتها مع هذا الدخان الذى يغادر أسطح العمارات . وفتحى الراقد فى السرير الآن ، تحيطه الملاءات البيضاء

النظيفة ، أب لهذا الطفل الذى فى بطنها ، والحياة كلها تستعد لاستقبال شئ جديد . .

عادت إلى السرير ولكنها لم تستطع أن تنام . ظلت راقدة إلى جواره تنتظر الصباح . وعندما فتح عينيه ، تمددت هى على صدره لتقبله . أحس بثقلها مريحـــا دافئا ، وذهنه على الوسادة صافيا ، وبصعوبة أدرك أين هو .

كـانت عيناه تستقبلان نـــور الصبـاح فى الحجرة المغلقة هادئا ونظيفا ، ورئتاه تتنفسان للمرة الأولى هواء ، حرا لاثقل له . ولم يصدق . انه يريد بسرعة أشياء تثبت له أنه لايزال حيا ، وأن ما يحيط به حقيقة . كل الأحداث والمشاعر القديمة التى يعرف بها نفسه تتراجع لتختفى فى البعيد كأنها استقرت على شاطئ مقابل لبحر عريض ، تاركة اياه غريبا لا يدرك معالم نفسه . حتى لامست يده جسدها الدافئ فتأوهت وضمها اليه بسرعة ليخفى صوتها وجسدها داخل نفسه الكبيرة الخاوية . .

نظر فى عيونها ونظرت هى أيضا . أحس كل منهما أنه قريب من الآخر وأنه طيب ومحبوب ، واستراحت الأذرع على الاجساد ، فأخذها اليه فى هدوء واستكانت هى ، وقد تخلصت أخيرا من ارهاق طويل وتوتر . لم يكن فتحى يشعر بحركات جسده ثقيلة متعمدة ولكنه كان مرتاحا ، متوافقا مع نفسه ، ذهنه يستيقظ شيئا فشيئا مع حركات جسدها وجسده وذراعاه يضمانها اليه ، فيتلاشى كل شئ حوله ليغرق فى سكون رحب .

قالت عقيلة فى لذة ونهم :

- انت كنت فين يا فتحى ، كنت فين . . ؟ !

لوى رقبته كأنه لايريد أن يسمع . كان مشغولا بالفراغ الذى يسقط فيه . محاولا أن يبقى ذهنه بلا أفكار . ولم يجد شيئا يقوله سوى اسمها . .

- عقيلة . .

عندما جلسا معا على المائدة يتناولان الافطار كان كل شئ حولهما صامتا ، وعلى وجه عقيلة ابتسامة مترددة تريد أن تقول :

- احنا خلاص ، احنا نقدر نبتدى من جديد . .

كل شئ فيها كان يريد أن يقول هذه الكلمة . السعادة القصيرة التى عرفتها فى هذه الليلة وهذا الصباح ، تملأ جسدها بشعور لم تعرفه من قبل . ولكنها سعادة خجول لاتملك التعبير عن نفسها . انها تقف على شفتيها تستجدى شيئا يقوله فتحى . .

لو تعرف الآن فيماذا يفكر . عندما كان جسده لصق جسدها . كانت تعرف أنه لايفكر فى شئ . ولكنه الآن ، وهذه المائدة بينهما ، تفصلهما مسافة ثقيلة صعبة . . يضيع فتحى ويتحول إلى شئ غامض لاتعرفه . شئ كثير ، لا حدود له ، لا يمكن فهمه ، يقلقها فيم يفكر ؟

انه ليس حزينا فقط ولا ساكنا فقط . هو حزين وشئ آخر ساكن وشئ آخر . يتناول الأفطار معها فى الصباح وشئ آخر . .

والشئ الآخر يجعلها تلهث . عيونه التى تثبت على وجهها ثم تنحدر إلى يديها وترتفع إلى صدرها . . فيها شئ آخر . .

كانت تحلم فى الصباح ، وهى تراقب العصافير فى الشجرة وتراقب

المدينة تخرج من وسط ضباب الفجر ، بأن الشئ الآخر قد راح . قد دفن مع الأخ الذى مات . ولكنه الآن يعود يجلس معهما على الافطار . .

- عقيلة إحنا حنتجوز بكره الصبح . .

خبط بيده على الترابيزة وقام . .

ظلت تحدق فيه ، واقفا أمامها ، حتى راحت صورته من عينيها ، وامتلأ رأسها بدوامة فارغة . .

(١٢)

استجمعت نفسها ، لتقف ، راحت تدور حول الترابيزة . كانت تلمس بيدها أثاث البيت القديم وتحدق فيه . ثم ازدادت حركتها سرعة وأصبحت أقرب إلى الرقص . .

ألقت بنفسها على الكنبة ودفنت رأسها فى المخدة الصلبة ، وبكت . .

بعد ساعة كانت تحشر نفسها فى زحام الأتوبيس الذاهب إلى شبرا . كانت تريد أن ترى خالتها العجوز . . شوارع شبرا فى هذه الفترة تبدو لها رائعة ، تقودها إلى الشارع ذى النور المعتم الذى لعبت فيه . . هنا استيقظ جسدها لأول مرة . . تسكن فى الدور الثالث . . الترابزين قديم يهتز عندما تلمسه . . السلم معتم والدرجات متآكلة . . باب الشقة مفتوح . . . خالتها تشرب القهوة فى الصالة الخالية . عيون المرأة العجوز حمراء وضيقة ، شعرها ذو الألوان الكثيرة يطل من تحت المنديل الاسود . . أمامها ترابيزة صغيرة . . ووابور سبرتو مشتعل . .

- انتى فين عقيلة ؟

- أنا جيت لك أهو يا خالتى . .

- مش تسألى على يا عقيلة ؟

- بسأل عنك يا خالتى .

- عامله إيه يا عقيلة ؟

- حاتجوز يا خالتى . .

- امتى يا عقيلة ؟

- بكره . .

- ربنا يحيينا ويحييكى . .

- بتقولى كده ليه يا خالتى ؟

- بأقول ايه يا بنتى . . بأقول ربنا يحيينى ويحييكى . .

- عوزاكى تشوفى الفنجان يا خالتى . .

- مايجوزش . . أنت بنت أختى . . وعينى تترد قبل ماتشوف سكتك . .

- أنتى بتحبينى يا خالتى . .

- الله أعلم . .

- شيلتى كتير عشانى ، يا خالتى

- انتى كمان شيلتى . .

- شوفيلى الفنجال يا خالتى . .

- والله يا بنتى ما أقدر . .

- أنا خايفة يا خالتى . .

– كلها سكة واحدة ، وأنتى لفيتى ودرتى واللى زيك ما يخافش . .

– تعبانه يا خالتى وعاوزه استريح . .

– كلنا حنستريح . .

– انتى فرحانة لى ياخالتى . .

– الله أعلم . .

– قوليلى كلمة يا خالتى . .

– الكلمة اتقالت يا عقيلة . بس خلى بالك من اللى فى بطنك . .

– عينى عليه يا خالتى ، حيشوف السعد . . أبوه موظف قد الدنيا . .

– الرك على الأم يا عقيلة . .

– أمه بتحبه يا خالتى . .

– صغيرة يا عقيلة ، صغيرة ولسه ماشبعتيش يا خسارة قومى يا بنتى . .

قومى لحسن الدنيا حتتمسى . .

– احنا لسه الضهر . .

– المغرب قرب وأنا عاوزة أصلى

– مش عاوزة تكلمينى يا خالتى .

– انتى طول عمرك صغيرة ياعقيلة ، صغيرة وعايشة فى دنيا واسعة . .

– أدينى وصلت يا خالتى . .

– الله أعلم . .

كان الحديث قد أرهق عقيلة ، والمرأة العجوز لا تزال ثابتة فى مكانها ترشف القهوة . الصالة الخالية من الأثاث تمتلئ أمام عقيلة بأشباح رجال

كثيرة تروح وتجئ فى نظام . . أحست عقيلة بغثيان وبأن الجنين فى بطنها يتحرك . .

– عاوزة أنام عندك يا خالتى . . تعبانه . .

– قومى خشى الأوده اللى جوه .

قامت عقيلة لتدخل إلى حجرة واسعة كبيرة . . ليس فى الحجرة سوى سرير عال أعمدته سوداء . . تسلقت السرير وألقت بنفسها عليه . . نور الحجرة ضعيف ونداء الباعة يصعد من الشارع كأنه قادم من عالم آخر . . صوت نساء يتشاجرن فى النوافذ . . فى هذه الحجرة ماتت أم عقيلة كانت ترقد فى هذا السرير والدنيا عصر ، وكانت عقيلة فى الثامنة . .

رأت عقيلة أن خالتها واقفة عند رأسها تحدق فيها :

– عقيلة مدام حتتجوزى بكره ادينى الكردان بتاع أمك . .

– لا . .

– أدينى الكردان . . أمك قالت كده . .

– كدابه . .

– أمك قبل ماتموت قالت لى آخذ الكردان . .

مدت العجوز يدها على صدر عقيلة . . باليد الجافة المعروقه . . وقبضت عليها ، وتصارعت معها وانفجرت فى البكاء . .

– سيبى الكردان . . سيبى الكردان . .

هبت جالسة فى السرير ، لتجد أن الحجرة خالية ، وصوت خالتها فى

الخارج يدمدم بالقرآن . . كان فى رأسها صداع وقلبها يدق فى جنون .

عندما غادرت عقيلة خالتها فى الغروب . . كانت الشوارع مظلمة ورطبة . . وخيالها تحت الفوانيس الصغيرة يلقى على الأرض الترابية ظلا كبيرا ووحيدا . . أحست أنها تختنق فى هذه الحوارى . . وأنها تريد النور . . النور بسرعة . . .

(١٣)

– البقية فى حياتك . البركة فيك . .

لم يربطه بكل هؤلاء الرجال فى يوم ما شئ . كلهم يرون فيه شخصا صامتا ، ويتعالى عليهم بهذا الصمت والأدب ، أنه الآن يراقبهم يتحركون هذه الحركات الغريبة ، ويتدافعون إلى حجرته فى أفواج ، يملأون الحجرة الصغيرة للحظات بدخان سجائرهم الكثيف . ويرهقون أنفسهم من أجل شئ لا يدركه ولا يدركونه . . شئ يتبخر سريعا مع الدخان . .

فى الساعة الثانية تخلص من آخرهم ، أكثرهم اصرارا على الحزن كان يمسك بذراعه طول النهار ويلصق جسده البدين بجسده ولا يكف صوته الهامس المبحوح عن الفحيح فى أذنه بكلمات غامضة كأنها نداء جنسى . .

بعد أن تخلص منه أحس أنه يريد أن يسير وحيدا فى شوارع كبيرة خالية . أنه يريد أن يفكر فى عقيلة . فمنذ تلك اللحظة الغريبة التى كان يجلس فيها على المقهى الصغير المجاور للمقابر وأحس بالدفء يسرى فى

جسده وتذكرها . . واختلط الحب بالخوف بالشعور العام بالحياة فى بوتقه من الحنين والرغبة منذ هذه اللحظة وهو يحملها فى ذهنه بصورة لم تحدث من قبل . ويختلط وجودها المستمر بصورة أخيه أحمد الذى مات الذى يرقد الآن تحت تراب ناعم ورطب ، بذكرى عيون أحمد المريض التى تحبه وترقبه . كانت هذه الأشياء تجرى فى ذهنه يراقبها ، وتدفعه دون أن يدرى إلى شعور غامر بالتعالى والوحدة وبأنه فوق الأشياء . شعور متكامل بالحرية ، بأنه عاصر كل هذه الأشياء وظل بعيدا .

كان فى المقابر يفكر فى عقيلة . وكان وهو نائم مع عقيلة يفكر فى جسد أخيه الميت . .

أحس أنـــه قـادر ، وأنه يدق بحذائه على طريق لم يسر فيه أحد من قبل . .

زيارة أخيرة عليه أن يقوم بها قبل أن يصبح تماما ملك نفسه ، قبل أن يصبح حرا حرية كاملة . دخل شقة كبيرة بعد أن صعد سلما رخاميا طويلا . فى داخل الشقة كانت حركة النساء اللاتى يرتدين الأسود تبدو كأنها كواليس مسرح للرقص ، واخترق هو هذه الحركة ، فذابت النساء فى الحجرات ، بعد لحظات كانت الصالة خالية وغاص هو فى كرسى كبير من القماش . دخلت عليه أخته . رفيعة . . نظاراتها الطبية المستديرة تبتلع كل ملامح وجهها لتؤكد عينيها القويتين . .

ظلت واقفة أمامه . وهو جالس لايتحرك . . يتأملها . كان وجهها يرتعش بكلمات مكبوتة .

فقال :

– أنتى عاوزة حاجة . . أنا جى علشان أشوفك . .

هزت رأسها ولم ترد . .

بعد لحظات من الصمت قالت له :

– لا . .

– رايحة البيت دلوقتى . .

– لا . .

وانفجر صوت بكاء . .

تقدم فى جلسته على الكرسى ، وأدارت ظهرها له ، أمسكها من كتفيها وأدارها نحوه ، انها لاتستطيع أن توقظ فيه شيئا ، انه يفعل شيئا يجب أن يفعله . .

– خليكى عاقلة أمال . .

انسحبت منه ووقفت بعيدا فى وسط الصالة المزدحمة بالاثاث . .

– كان مالى علينا البيت . . أخويا . .

– فتحية !! مش كده . .

– أنزل يا فتحى . . أنزل . . أنت بتفكرنى بيه . .

انها لاتستطيع أن توقظ فيه شيئا . . ولا شعرة واحدة . . حتى لو ضربته على وجهه الآن لما تأثر . .

دخلت امرأة عجوز سمينة وشعرها أبيض ، وقفت تنظر إلى فتحية وهى تبكى وقالت :

- مش كده يا أولاد ، مش كده ، أمال إحنا مش عوزينكم تقعدوا مع بعض ليه . . الفراق صعب وانتوا بتفكروا بعض بيه . . الله يرحمو . . ويصبركم . . ليس بينه وبين أخته كلام يقال . . كل منهما يعيش على مستوى مختلف إنه لايستطيع أن يعيش تلك الاحزان ولا أن يواسى فيها . . لأن له شيئه الخاص . . وهو الآن مشغول بنفسه إلى أقصى حد . .

اتجه ناحية الباب وقال :

- أنا بكره مش فى الشغل . . يمكن أمر عليكى العصر . . وخرج . .

قالت له امرأة شابة تشحت :

- تسمح يا أفندى . .

ولم يقف . .

فى لحظة الغروب كان على الكورنيش ولم ير شيئا . . انه سيتزوجها . غدا سيتزوجها فى ورقة . . يتزوجها وهو يكره هؤلاء جميعا . . أنه يحب نفسه . . ويكرههم . . وسوف ينتصر . . ويتزوجها .

عندما دخل بيتهم الخالى المعتم كان أثاث الصالة مبعثرا يتعثر فيه فى الظلام ، حجرة أحمد مغلقة . . فتحها . . فى وسط الحجرة لاشئ . لا أثر . . لم يكن هناك أثر النافذة ، الباب ، كل شئ مغلق يختنق . المرأة تلمع فى الظلام ، يده تمتد إلى العتمة لاتقبض على شئ .

فتح باب حجرته وتساقطت علب الفراش الملون . الزجاج ينكسر على الأرض . حذاؤه يدوس على الزجاج فى الظلام . الفراش الميت الملون . .

يجرى من الحجرة . من البيت . من الشارع . .

فتحى أين تذهب ؟!

– ووقف . .

في الساعة الثالثة ظهر اليوم التالى تزوج فتحى عقيلة ، جاء المأذون إلى الشقة . . ومعه اثنان يصلحان للشهادة . وتم الزواج . كان فتحى متجهما جادا . وعقيلة تحاول أن تبتسم . والمأذون وصبيانه يتطلعون باستغراب إلى الجو المحيط بهم . .

في أكواب عادية شرب الجميع ماء الشربات الفاتح ذا الطعم المائع وتقطع الحديث المفتعل الذى كان يدور بين المأذون . بارك الله لهما . وعادت الشقة إلى الصمت من جديد . .

دخلت عقيلة إلى حجرة النوم . وبقى فتحى فى الصالة ، رقدت على السرير وأحست أن الدنيا حولها خالية . وفتحى لا يزال يتحرك فى الصالة يدخن سجائرة فى عصبية . .

أغلق كل نوافذ البيت واحدة واحدة . . ثم دخل إلى الحجرة التى ترقد فيها عقيلة وأغلق خلفه الباب . واقترب منها وكانت تبتسم . . خطواته بطيئة وثقيلة . .

مال على السرير . . عقيلة تحدق فيه . . أمسك رقبتها بين يديه وخنقها . .

بعد لحظات كانت عقيلة جثة هامدة . .

فتح النافذة ، فوجد صفا من العساكر يحاصر البيت . . أغلقها بسرعة وجلس فى الصالة . ويداه الكبيرتان على المائدة أمامه . .

الحياة قد انتهت بالنسبة له . انتهت وقد اختار هو النهاية ، هو الذى أحدث النهاية . حدق فى يديه وفكر فى أن هذا هو أكبر انتصار . .

النوافذ مغلقة ، والشقة رطبة ، وهو تحول إلى إله . بالفعل أصبح الانسان الها . هذا الذى حدث الآن شئ مهم . شئ حقيقى . . سيظل يضئ الطريق لكل من يأتى بعدى . .

هنا انهزم الانسان . هنا قتل . هنا اعتدى بيديه على الوجود . . هزيمته دليل على أنه بلغ القمة . هنا انكسر وعيه وسقطت عنه الرقابة . واتحد فكره بالعمل . . هنا كف فتحى عن العذاب ، وانكسرت قدرته على تحمل حياته . .

أستطيع الآن أن أكلم الناس . من حقى الآن أن أتكلم ، وكلهم يقفون تحت النافذة ينتظرون تصريحات خطيرة منى .

أنا . . النبى . . القاتل . .

ودقت أيد كثيرة على باب الشقة . .

اقتحم البيت ضابط شاب يبتسم ويجرى فى الحجرات بخفة . ووضع يده على كتف فتحى وقال له :

- اتفضل معانا . .

استولى البوليس على فتحى . . وسار معهم فى الشارع تحيطه دائرة من العساكر . .

امتلأ السلم المؤدى إلى الشقة بعشرات من الرجال والنساء ، أما الاسانسير فكان قد تعطل بأربعة من الصحفيين يحملون الكاميرات . .

ويصرخون على البواب . كان باب الشقة مفتوحا وعليه يقف عسكرى عجوز لايدرى ماذا يحدث حوله . . نساء العمارة خرجن بقمصان النوم ليقفن على السلم يحدقن فيما حولهن فى بلاهة وخوف :

- وحش . .

- اللهم احفظنا . .

- أنا كنت عارفة ، شكله زى المجنون . .

والصحفيون يصرخون فى الأسانسير :

- ياريس عايزين نصور . .

- الساعة بقت سابعة والصور مش حاتلحق . .

أحضر البواب العجوز مفتاحا لباب الأسانسير ، وزحف الصحفيون على بطونهم ليخرجوا من الباب الذى يعلو الدور الذى تعطل فيه الاسانسير . . كانت أنوار السلم تطفأ وتضاء محدثة صوتا عاليا . . وطفل فى الدور الرابع محبوس فى شقة يصرخ وأمه تمنعه من الخروج . .

أما عقيلة فكانت لاتزال كما هى . . راقدة فى الحجرة المظلمة لاتتحرك . . وجسدها البارد يتلقى أضواء فلاشات الصحفيين اللامعة . .

فى وسط الصالة كان وكيل النيابة يقف يملى على الكاتب كلاما رتيبا ومنسقا . فى هذا المكان كان فتحى يقف منذ ربع ساعة . . وكان يدور فى ذهنه كلام عنيف غير منسق . لقد رأى فتحى قبل أن يقتل وجها كبيرا على قرص الشمس . . كان قرص الشمس الغارب يمتلئ بهذا الوجه الاسود . . وأغلق فتحى النوافذ . .

- تم جرد الأشياء الموجودة فى الشقة وتحريزها بمعرفتى أنا . .

وكمل أنت بقية الصيغة . .

تلفت وكيل النيابة حوله . . وأمر باخلاء الشقة . . وخرج . . خطواته سريعة . . كأنه يهرب من شئ . .

كان منظر الجثة بشعا : الفم مفتوح ، وعلى الرقبة آثار المقاومة الشديدة . . وآراء السكان المقيمين فى الشقق المجاورة كلها ، تؤدى إلى أن القاتل كان مجنونا . . وكان يتصرف دائما تصرفات تدعو إلى الريبة . . ومن المؤكد أن هناك أسرارا أخرى رهيبة سوف يكشف عنها التحقيق .

* * *

القسم هادئ . . العسكرى رقم ١ يقف على الباب لا يتحرك . فى الصالة فراغ كبير ودكة واحدة . . فى ركن على الأرض امرأة متكورة فى كرة سوداء . رائحة غريبة تملأ المكان كأنها رائحة دم جاف .

فتحى يجلس على الدكة وحيدا . الجاكتة إلى جواره ويداه بين ساقيه يضمها إلى بعض قيد حديدى . . اللمبة الكبيرة القريبة من مكتب الضابط تلقى الضوء فى بقعة واحدة وتترك بقية المكان فى نصف ظلام .

على وجه فتحى جمود وهدوء .

المكان يوحى بأن الجريمة قد ذابت . . واختلطت بكل الحياة ، ليس لها وجود فى مكان ما ، ولكنها موجودة فى ذرات كل شئ هنا . . ولذلك فالتفكير فيها مستحيل .

لايقطع صمت القسم ، سوى سعال عال يطلقه الضابط وهو يشعل السيجارة تلو الأخرى ويلف الدخان حول اللمبة القريبة من مكتبه . .

لايمكن لفتحى أن يتنبأ الآن بما سيحدث ؟!

ان كل شئ سيسير فى مجراه الطبيعى . لم تعد هناك مفاجآت . أنهم هم يتـولون كل شئ الآن ، وليس عليـه سـوى الانتظار . وأحس بتكامل غريب ، وبأنه موجود لأول مرة فى مكان حقيقى جدا . يفعل شيئا حقيقيا جدا .

* * *

دخل إلى الشـقة ثلاثة ممرضين كبار ، يرتدون ملابس ليست بيضاء تماما ، كانت أجسادهم كبيرة ، ووجوههم متشابهة . .

وقفوا مع العسكرى الذى يحرس الشـقة يتكلمون للحظات . . كان يبدو أنهم أصدقاء قدامى . أشعلوا سجائر . . وضحك أحدهم ضحكة عالية . .

اقتحموا الشقة ، وفتحوا حجرة عقيلة . خرجوا بعد لحظات يحملون الجثة ، كان السلم خاليا وعربة المشرحة تنتظر على الباب .

اختـفى الجـميع داخلها ، وانطلق صوت العربة العالى . إلى جوار عمود النور كان ثلاثة أولاد يقفون يراقبون العملية ، وانطلقوا يجرون خلف العربة . .

* * *

دخل فتحى إلى حجرة كبيرة ، مفروشة بالسجاد ، الكراسى الجلد كبيرة . فى آخر الحجرة يجلس ضابط كبير . . كان يسير خلف فتحى الضابط الشاب المبتسم . .

قال صوت الضابط الكبير الذى يبدو هادئا وعريضا :

- أنت بتشتغل فين ؟!

أجاب فتحى فى صوت محدد :

- فى المتحف الزراعى . .

لم يكن يبدو أن الضابط الكبير يريد معرفة شئ محدد ، ولكنه يتفرج على فتحى . فقط . .

- عندك كام سنة ؟!

- ٣٦ سنة . .

- معاك شهادة ايه ؟

- بكالوريوس زراعة . . !!

- يا خايب . . حد يعمل كده فى نفسه . .

ثم بدأ الضابط الكبير ، يكلم الضابط الصغير الذى جلس على أحد الكراسى . كانا يتكلمان عن فتحى وكأنه ليس موجودا . . وهو واقف فى الحجرة . . أكثر ثقلا وواقعية من أى شئ آخر . .

* * *

فى هذه الليلة عندما دخل فتحى حجرة الحجز . كانت الشوارع فى الخارج خالية . لم يكن هناك كثير من المارة ، والعابرون يتحدثون فى بطء . والدكاكين مفتوحة يقف فيها الباعة صامتين محدقين فى لاشئ .

وفى الظلام أحس فتحى إنها ماتت . .

كانت الحقيقة ثقيلة عليه ، وشخير الرجل الممدد على أرض الغرفة

منتظم وعال ، فأسند فتحى رأسه إلى الجدار . . ونام . .

تكلمت الصحف فى اليوم التالى ، واستمر النقاش أياما . وحتى بعض المثقفين حاولوا مناقشة الجريمة فى جلساتهم الخاصة ، وفى المقاهى . .

واختلفت تفسيرات الناس للجريمة ، ودخلت على الحكاية حوادث غريبة . وقال البعض أنه أكتشف أن الجنين لم يكن منه . .

ولكن رجلا عجوزا يرتدى نظارات وشعر رأسه أبيض جلس على مائدة فى أحدى المقاهى الأنيقة وقال لبعض الشبان الجالسين حوله :

- أنا أرى أن هذه جريمة خطيرة ، وأن لها دلالتها الاجتماعية . . والنفسية الخطيرة على أزمة بعض . . الـ . .

فقاطعه أحد الشبان :

- المهم هل نستطيع تصوير نفسية القاتل وقت ارتكاب الجريمة .

واستمر حديثهم حتى ذاب من تلقاء نفسه ، وأخذ أكثرهم يحدق فى فناجين القهوة الفارغة ، أنزوت الجريمة ، ودخلت إلى صفحات الجرائد الداخلية . . وتابع بعض المحررين النشطين أخبار فتحى فى السجن ، ونشرت أحدى الجرائد حديثا مع أخته ، ونشروا صورتها فى الجريدة . وأهم ما قالته أنها لم تكن تعرف شيئا عن حياة أخيها الخاصة . . وأنه كان يبتعد دائما عن جو العائلة . . وقال أحد رجال علم النفس أن فتحى يعانى من حالة انفصام فى الشخصية .

وبعد أسبوع كانت الجريمة قد نسيت تماما واختفت من المدينة . .

كان الجرسون فى البار القديم الذى كان يرتاده فتحى وعقيلة يذكرهما كثيرا . ولكنه لم يكن يتكلم عنهما مع أحد . فقد كان يكره أن يرى الناس يناقشون هذه الجريمة وهم مجهزون بآراء سابقة فى الموضوع . ولم يجد قط من يشترك معه فى فحص القضية على المستوى الذى يريده هو . فظل يذكرهم فقط فى ذهنه كلما ذهب ليقدم طلبات على المائدة التى اعتادوا الجلوس عليها . .

(١٥)

لم يكن أحد يتوقع أن يلقى فتحى هذا الخطاب الطويل الذى ألقاه فى يوم المحاكمة . كانت الدنيا قد أصبحت شتاء ، والشمس تفرش حوش المحكمة الصغير ، والقاعة الصغيرة التى تشبه فصلا من فصول المدارس مليئة حتى آخرها . .

كانت القضايا كثيرة فى جلسة اليوم ، والمحامون والشهود مشغولين فى ترتيب أعمالهم . والقاعة لا يسودها أبدا الصمت الكامل المهيب الذى يتصور الناس أنه يصحب جو المحاكم . .

القضاة ثلاثة من الشبان ، لا تتجاوز أعمارهم الاربعين ، ملابسهم أنيقة . ولكن ليس فى وجوههم ذكاء ، يبدو كأنهم ينفذون تعليمات دقيقة ومعقدة . .

وعلى الرغم من أن الجو فى الخارج كان دافئا وجميلا ، الا أن جو المحكمة كان رطبا وله رائحة مميزة وأرضها الخشبية مليئة بالطين الذى

حملته أقدام الناس إلى داخل القاعة .

أما منظر فتحي داخل قفص الاتهام فكان غريبا حقا ، يحيطه بعض الفلاحين والصعايدة وهو في وسطهم قصير ملئ . دقنه حليقة وبدلته تبدو نظيفة ومكوية . .

لم يكن يبدو أنه يرى شيئا ، كان يحدق في سقف المحكمة وكأن الكلام الذى يدور حوله لا يعنيه ولا يفهمه .

عندما بدأوا في نظر القضية تكلم أشخاص كثيرون . كانوا كلهم غرباء . وأحس فتحي بأن كلماتهم لاتمت إلى الموضوع بصلة . .

وهب فتحي واقفا فسكت الشهود والمحامون . . وأخذ يتكلم بسرعة والكلام يتدفق منه كأنه شئ يهدر .

قتلتها لأننى لم أكن أريد أن يكون لى ولد . لم أقتلها لأنها بغى . ليس لزحام الاتوبيسات علاقة ، وليست أعصابى هى السبب .

أن هناك طعما مائعا ولزجا يملأ فمى عندما أسمع حديث المدافعين والشهود . .

ليس لموت أخى علاقة . إنه كان مريضا . وكان حتما سيموت . . لست خياليا ولا مثاليا كما حاول البعض أن يصفنى . .

ودفاعى المكتوب لامعنى له . . ان القضية منتهية بالنسبة لى . .

لم أقتلها لأنى أكره الوظيفة ، أو أكره حر القاهرة أو أكره كل الأشياء السمجة والسخيفة التى يتصورها البعض ، ويلقون بتصوراتهم السخيفة على . . لم أقتلها لأننى أحس بأزمة اليمين أو اليسار . . ولم أقتلها لأننى

أعانى أزمة فى فهم الوجود . لم أكن أريد لابنى أن يولد . .

كنت أفكر وأنا اقتلها فى أننى لست مسئولا عن شئ ، أفكر فى أننى عبد لسيد كتب كل الاقدار . فى أننى مواطن مطيع مؤمن وبرئ قتلتها وأنا خائف . . وضعيف . . وعاجز حتى عن تصور الامل . .

لم أدر كيف قتلتها . . ولكنها ماتت . . وكان مذاق مر يملأ فمى .

تأكدت أننى لم أترك أثرا . . . إن حياتى لن تلوث الجيل القادم . . وأن الدنيا لن تشهد فتحى آخر . . وأحسست بعد ذلك براحة .

وأنتم تعرفون بعد ذلك سير التحقيق ، إن الذى أريد أن أقوله ، أننى أتهم نفسى . . وأتهم أشخاصا آخرين . ولكننى أنا وحدى الضحية . . بقية المتهمين هربوا . . بعضهم يجلس الآن مختفيا خلف كراسى القضاه . .

(تسرى فى القاعة همهمة ، وينبه رئيس الجلسة فتحى إلى أن كلامه غامض) . .

- هل يريد سيادة القاضى منى أن أعود لكى أوضح النقطة السالفة ، أم هل يفضل أن أنتقل إلى نقطة جديدة . (كان فى صوت فتحى تحد غريب) .

والقاضى يهز رأسه ويستشير قاضى اليمين واليسار فى شكل تآمرى قلق ثم يقول :

- أرى من الأفضل الأنتقال إلى نقطة جديدة . .

- إننى فى موقفى هذا اشفق أشد على حضرات القضاة . . فإن

موقفهم غريب وليس فيه شئ مسلٍ . فإنهم حتى لو أصدروا حكمهم على بالموت فإنهم سيحققون لى بذلك أملا مكنونا . .

إن حكمهم الرادع القاسى لــن يصيبنى بفزع ، فأنا أتوقعه وأرحب به . .

ولا أملك الا أن أعتذر لهم عن إننى قدسلبتهم هذه المتعة . . لقد جعلت أنا القضية قضية خالية من الأثارة بترحيبى السخيف بالموت .

وأنا أكره أن أراها تستغرق وقتا من وقت المحكمة الثمين . .

وإلى أن تصدر المحكمة حكمها أرجو الله أن ينعم علينا بالراحة .

وجلس . .

«وتمــــت»

١٩٦١

الحصـــان الأجـــوف

الحصان الأجوف

غادرت غرفتى الجديدة التى لم استقر فيها بعد . سوف أقابل صديقى . كنت أسكن معه فى شقته واختلفنا . نحن على موعد . طلبته أنا فى جرأة ووقاحة . أعرف أنه يقول بينه وبين نفسه . «أنا مشغول . . ماذا يريد منى الآن ؟» لكننى أريد أن أراه . أن أنهى معه شيئا ، أو أصنع موقفا . لم تعد العواطف تهمنى .

الساعة حوالى الثالثة ظهرا . الجو حار وخانق . فى جسدى شجاعة أقرب إلى التبلد . الشوارع حول ميدان التحرير خالية ، الا من رجل مسرع أو شاب متلكئ أمام ألواح الزجاج ، شجاعتى لا هدف لها . الموقف سيحدث دون جهد منى . هذا مايزعجنى . حتى هذا الموقف لم أشعر فيه أننى أصنع شيئا . قدماى تقودانني إلى المقهى . أعرف كراسيها الخالية . أرضها المرشوشة بنشارة الخشب . وصاحبها العجوز النائم . أعرف أننى سأطلب القهوة وأعرف أنها ستأتى ومعها كوب ماء بارد وأشعل سيجارة ، وأتطلع إلى الميدان . الكتب ملقاة على الأرض . لاتعنى شيئا بالنسبة لى . من أين له أن يصدر على - أنا - أى حكم .

موعدى معه فى الرابعة . لم يبق الا نصف ساعة . ليس فى المقهى أحد . أنا أكره الانتظار . جاء رجل أصلع ليجلس تحت مرآة أمامى . الجرائد فى يده . لست أرغب حتى فى تلميع حذائى . .

العابرون أمامى ظلال خلف شمس الميدان الملئ بالضوء . . لا أرى

لهم تقاطيع ولا أشعر بأن لهم لحما . قال لى : «نحن لم نعد أصدقاء . لقد اختلفنا وأصبح لكل منا . طريق» طريق ! كذاب .

ليس لكلمة طريق معنى . هنا وسط الشوارع الأسفلت . والنوافذ الزجاج .

أنا شجاع متبلد . أجلس على الكرسى فى المقهى وأنتظر . سوف يجلس أمامى ، ولينظر لى اذا أراد . حتى عينى لن ترتجف . سوف أنسى الصداقة . وأحدق فيه فى بلادة . سوف أحدثه عن رباط الحذاء . عن الكبريت السيئ الذى لا يشتعل . ملأنى خوف من الوحدة . من أن أسقط بلا مبرر تحت عجلات ترام سريع . الأصدقاء لا وجود لهم . مشغولون جميعا ، بلا شئ . أكثرهم هجر الأحلام . كل ما بيننا تسرب كالماء فى كف .

عندما أحدق فى عيون الأصدقاء الآن أرى رجلا شاحبا مريضا أو شاهد قبر . دخانا بلا حريق .

الساعة الرابعة والنصف ولم يأت أحد . فى مثل هذا الموقف ماذا يجب أن أصنع ؟ فنجان قهوة آخر . كان من الممكن ، لو جاء . . أن . .

«أنا كنت أكتب القصة . هو يكتب القصة . هو يعمل فى مجلة . أنا فى وزارة العدل . هو سريع الخطوات يجرى ، وأنا لا يعرفنى أحد . »

جئت من قرية بها جامع ، وترعة ماء ، وأمى العجوز . وهو ، لا أعلم بالضبط من أين جاء !

ألا يريد أن يرانى . خائف ؟ ألا يريد أن يجلس معى بعد . انتهى ؟!

هل يذرع الشقة التى كنا فيها . يبعثر الأوراق ، ويغنى بصوته الخشن ؟ ألا يشعر بعينى تعريه ، تنقر فى روحه . وحدتى ! هذا لم يعد مهما . أنا أتصور أشياء .

أنا نحيف ، رأسى صغيره ، شعرى ناحل . هو أسمر غزير الشعر ، يداه تتحركان ، ألن يدخل الآن من باب المقهى ؟ ألن يخرج من وسط الأشباح العابرة فى وهج الميدان ؟

كنا ننظر معا . كنا نتكلم . ثم ماذا ؟ هو يعرف كيف يبتسم . أنا أحب أن أراقبه . لم يكن لإخلاصى معه حدود .

ثم ماذا ؟ تحركات ثقيلة بطيئة كأنها موجات طين .

عندما تركنا الاصدقاء ليلا ، وكانوا يشربون البيرة وسجائر الحشيش ، فى الفراندة الصغيرة التى تطل على شجرة محبوسة بين العمارات ، قال لى وهو يدفع برعونة زجاجة بيرة فارغة بقدمه فيرن صوتها على البلاط فى الصمت الذى يسبق الفجر :

- أنت ايه ؟

كنت أحتضن مخدة صغيرة . راقدا على كتبه أرى أوراق الشجرة العجوز . انتظرت أن يكمل كلامه فلم يفعل . حدقت فى وجهه فقال :

- أنت بتراقبنى كده ليه !

ابتسمت . استيقظت . أجهدت ذهنى . ثم أغفيت . .

- عينيك ازاز .

ليلتها غطيت وجهى بالمخدة ، ونمت ، كنت أسمعه يتحرك فى الشقة . .

يقينا سيأتى . ستعود الحياة . يقول كلاما رائعا عنا وعن الصداقة .
وهو يكذب كأنه البللور .

لا لن يأتى . أنا أعرف . من الصعب أن أحيا هنا بدون صديق .
جمرة حية تحرق القلب . أدرك أنه لن يجئ . المغرب ينزل على المقهى
والميدان ثقيل .

الناس والأشياء تتضح مع استقرار المساء ، لكن لاصلة بيننا . على
أن أسير . أن أخرج . أن أركب الترام .

اختفى ظل الناس . تكور المساء فوقهم ، علامة استفهام . صرت
أجلس فى وحدة مؤلمة ومضحكة .

* * *

أخرج إلى كوبرى قصر النيل . أتعمد رؤية المساء . أستقبل رائحة
النيل وهواءه . هناك تختلف أشكال الناس حولى . يتنوعون . يمتلئ
الكورنيش بعربات الترمس المضاءة . يلمع على الرصيف بسرعة وجه
امرأة شهية .

حتى الحب كنت أتكلم عنه معه . كان يسمعنى فى هذه الشوارع المليئة
بالأشجار . نسرع ونتكلم فى بهجة . أطعم قطع السكر لحصان جميل .
لكننى . . أعرف كل ما يحتويه . رأيت ظهره يجرى بين الأشجار
متلصصا ، لم أستطع أن أناديه . أختفى فى الظلام . أستدرت أواجه
أنوار القاهرة . مبانيها الكبيرة - على الشاطئ الآخر - باردة كأنها
أعلان من نيون .

بعد ساعة قررت أن أعود إلى غرفتى .

*   *   *

الحجرة فى الروضة . فوق سطح عمارة قديمة تطل على النيل . الجيزة على الشاطئ الآخر معتمة . كتلة من ظلام .

هى حجرة ضيقة بها سرير كبير . ومكتب صغير . ستائرها من قماش رخيص عليه ورد أحمر وأصفر مطبوع . رائحة الحمام تملأ الغرفة . ملابسى لاتزال فى الحقيبة الجلدية القديمة . كتابان على المنضدة ، نور اللمبة الصغيرة العارى يحرق عينى .

خلعت ملابسى ، أطفأت النور . استلقيت على سريرى .

«قال لى :

– أنت تقتل أى حماس .

كنا قد فرغنا من تناول الغداء معا ، أشعل هو سيجارة فى عصبية . فى الأطباق حبات زيتون وفتات خبز على المائدة .

قلت :

– ربما . .

أخذت أجمع فتات الخبز فى كرة صغيرة .

– اذا كنت لاتريد أن تعيش ، فلماذا لاتنتحر . لم لا تحب . لاتعمل ؟ ماذا تريد ؟ أرجوك . أنت تؤلمنى عندما أراك . قام واقفا يثير الاشمئزاز . لم أنزعج . لم أغضب .

كيف تستطيع أن تأكل رأسى حيا . أن تكون الظهر والوجه معا . ما

الذى يدفع اللحظة وراء اللحظة ؟ لم لا يتوقف شئ لكى أعرفه . فكرت أن أكتب . ماذا يمكن أن أقول له ! ليس للغضب معنى . وكذلك ليس للدفاع . بقيت راقدا فى الفراش محدقا فى السقف .

باب الغرفة الخشبى يرتجف تحت يد متسرعة كبيرة تدق عليه . ترددت لحظات ، هل أفرح بأن الباب يدق ؟

صوت يملأ السطوح . .

– افتح . افتح يا راجل ، افتح يا أخى .

هو ، على فهمى ، زميل أنور – صديقى – ويعمل معه فى نفس المجلة سوف يملأ هذه الغرفة بالصخب ، سوف يضحك ويتألم ، ويدعى ، ويكذب ، فى نفس الوقت . كأننى أسمع مئات الناس يدقون الطبول فى كباريه ، يضيئون النور ويطفئونه . سوف يصلبنى بصوته وحركاته ، وفى النهاية لن يشعر . قمت أفتح الباب . دفعنى بسرعة ، دخل . أضاء النور .

– أنت فين ؟ نايم بتعمل ايه . الله يخرب عقلك . وكمان طافى النور . هو ده وقت نوم . .

خبط بزجاجة الخمر الصغيرة على المكتب ، كنت لا أزال أنظر اليه ، عيناه مرهقتان بالضوء الجديد . لكنه كان قد خلع جاكتته وألقى بها على السرير .

– كوبيتين . .

دون أن أفكر وجدتنى أتحرك لكى أحضر الأكواب . أزحت الستار عن النافذة . حدقت فى الظلام ، أحسست به خلف ظهرى . حاولت أن

أبتسم . فكرت هل سيحدثنى عن أنور ؟ هل أحس ما حدث بيننا . لكنه كان مرتاحا . لاشئ يقلقه . لم يفكر أن يسألنى عن شئ . ولم يشعر بأن هناك مشكلة . كان فقط يتكلم : عن السياسة . عن الجريدة التى يعمل بها . عن عشيقته . عن العربة القديمة . عن جميع الاشياء . يتكلم بنفس الحماس . ونفس الأهمية .

قمت أتحرك فى الحجرة . وقام يطاردنى بالكلمات . يقوم واقفا . وضعت رأسى تحت حنفية الماء ، ظل يتكلم . ما الذى جاء به ؟ هل المدينة فارغة ؟ كل هذا الزحام ، وليس هناك من يستمع اليه غيرى ؟

الخمرة تزين لى أشياء . أريد أن أمسك رأسه . أهزها حتى يتساقط جميعه ، الخمرة شيطان ، انها تشعل فى نفسى رغبة فى لحظات صفاء . أشعر أننى فى حاجة إلى أن أرى صديقى . أن نتكلم معا . أن نصف حتى شعورنا نحو هذا الأحمق .

فمه لايكف عن الحركة : يشكو من قلة النقود ، يبين أنه ليس محتاجا ، يتواضع جدا . يستدر ويثير القرف .

بعد وقت طويل . سألنى . . وقد أجهده الكلام ، وبان الارهاق فى عينيه الخابيتين :

– فيه . . شرب . . تانى ؟

أمسكت بالزجاجة التى قاربت الانتهاء . . كنت أريد أنا أيضا أن أشرب .

قلت :

- . . ننزل . .

* * *

دار بالعربة فى الشوارع الخالية . يصمت للحظات ولكن الصمت يفزعه . الارصفة خالية تماما . ليس فى الشوارع غير عربته التائهه .

أمس ، وأمس الأول ، ومئات الأيام ، نفس هذا الظلام والصمت ، نفس هذا البحث عن لاشئ .

لم أعد أسمع كلامه . البيوت القديمة . النور خلف النوافذ المغلقة . بقايا الخمر ، وهواء العربة كلها تسقط بيننا حجابا . يذبل هو قليلا ، قليلا كأنه بالونة - تدفع خارجا - آخر ما بها من هواء . يوافق عندما أقترح أن أنزل أنا لكى أمشى قليلا . . ثم أعود .

كانا ينطفان الشارع . رجلان يمسكان بمقشتين طويلتين ليجمعا القمامة وبقايا المحلات . كلاب فى الشوارع وخفراء ينامون على الأبواب .

فى قلب الليل يحاسب الأنسان نفسه . يواجه الخسائر . الحبال التى تمسكنى لا تضعنى على الأرض ، ولا ترفعنى ، لازلت غريبا ، على الرغم من كل الاعادة والتكرار . أعرف أشياء وأسماء . وفى ذهنى كلمات فارغة ، وجوع لايرتوى . قطع من صور ممزقة فى سلة مهملات .

سابقتنى على الطريق الكلمات . أسير خلفها وهى كالقطيع تثير من حولى غبارا . أنظر إلى السماء . قمم العمارات . جائعا إلى نقط المطر التى لاتنزل .

كأننى عشت هذه الليلة من قبل أو سأعيشها بعد سنوات تكشفنى

أمام نفسى . ويرتبك فى عقلى الزمن .

هذه . . وهذه . . كل الأيام . . والوقائع . كل هذا الاتساع الموجود والمحتمل . الثقل فوق الرأس ، وتحتى الظل ، ويداى مشدودتان . شئ لم يهتك القلب بعد .

الفجر فجر الخميس ، نهار كامل وتنتهى الجمعة . عماذا كنت تبحث ؟ أضعت أم اقتنيت ؟ عندما كنت تراها كنت تحلم يدها فى يدك ، وقلبك متسع كبير . بحر هادئ مكشوف الأفق . الدنيا كانت لك . وأنت كنت ينبوع ماء رقراق .

ثم تذكر ! هل تذكر عينيها واليد الباردة التى مسحت كيانها . سرت بها فى الطريق . هل تذكر عينيها ؟

حاولت هى أن تتكلم ، أن تقول شيئا ، هل تذكر الكلمات ؟ ! قش . . وقشر ترمس جاف . زكيبة كبيرة من الأكاذيب . وحطام كبرياء مراهق .

تشيكوف !! كم بكيت الأخلاص والصدق . نزل المرض باردا على الجسم الذى يحترق . جاء أنور ليجلس إلى جوارى ، راقبنا صورتها وهى تختفى من النافذة . قمت أدق الأرض .

ليس لنا غير العمل . . ها . . ها . . عرفت العرق . جف العرق . وراح الصديق . كل الاوراق الجافة تدفعها الرياح .ما أقبح الفجر فوق الخرائب !

اثنان أو ثلاثة يعبروننى بسرعة يعلنون مقدم الصباح ، عامل فى مقهى يفرد الكراسى من جديد . سوف آخذ أول أوتوبيس ، وأذهب إلى

البلد . زميلى فى العمل سوف يأتى ويستند على مكتبى الخالى . ويبتلع القصص والاخبار التى جاء يرويها لى . ربما صعد صبى المكوجى إلى غرفتى ليأخذ القمصان القذرة . سوف تمتلئ الحجرة بالتراب . لقد تركت النافذة مفتوحة . على أية حال . . لن أكون هنا فى الصباح .

فى وسط الزحام ، فى موقف أتوبيسات شبرا ، راقبت الناس بعينين مفتوحتين . النور وشمس الصباح يشدان جلد وجهى . الناس يملؤون المكان وكأن لم يكن هناك ليل . بائع الجرائد يفرش الكتب على الأرض .

وجدت مقعدا خاليا فى الدرجة الأولى . كان حولى بعض الطلبة والعمال ، وبعض الفلاحات .

تحرك الأتوبيس . قلت للكمسارى وأنا أناوله النقود :

– واحدة الزقازيق . .

* * *

وصلت الزقازيق . أخذت تاكسى بالنفر . نزلت فى قريتنا . كنا فى أول الضحى . انتهت حركة الصباح فى القرية . أختفى الفلاحون فى الحقول ، لم يعد يتحرك فى البلد سوى النساء والعاطلين . فى المقهى الصغير – فى أول البلد – قابلتهم جميعا : النصاب ، والجدع ، والرجل الذى يحفظ المواويل . كنت أريد أن أسرع لكى أصل إلى بيتنا . هناك سوف أشعر بالراحة . مررت فى الطريق على المقابر . تذكرت أبى . وقفت . خطوت خطوتين داخل أرضها الناعمة . قرأت الفاتحة . عبرت طرقات القرية الخالية . وصلت إلى البيت . كنت مرهقا .

رأسى ووجهى يملؤهما الغبار . وقفت فى ضوء باب البيت . نظرت فى حجرة والدتى . رأيت الكنبة الكبيرة التى ترقد عليها .

وجهها .

فرحتها .

غفرانها الذى شمل كل شئ .

ضوضاء الخدمة والأهتمام .

الماء الذى يأتى لى ، فأغسل وجهى وقدمى .

النور يدخل إلى حجرتها الرطبه من شباك صغير . بعض العصافير تخترق جلستنا محدثة ضوضاء حول عشها ، وتعود تخرج من جديد . تذكرت طفولتى . حتى عيناك يا أمى فيهما شئ آخر . أشرب كثيرا من السجائر . فى عينيها كلام قديم . تقول بعضا منه . أتململ فى جلستى . أراقب عش العصافير . صدرى يحترق بمشاعر متضاربة .

أقول :

– أنا جئت لكى أرتاح أصيغ بعض الجمل الصغيرة ، أستمع لنفسى باندهاش وأنا أرددها .

فات الأوان . لا أنا أعرف . ولا أنت تعرفين .

أقوم أتجول فى البيت . قدماى كانتا تذرعان هذه الأرض ، أنا سقطت من فوق هذا السلم . ضحكت منى نساء . بكيت فى هذه الغرف المظلمة . أنتظرت أبى فوق هذه العتبة . هذه الحجرات المظلمة كانت العالم .

لى غرفة فوق السطح . . أثاثها قديم . بها كتب ومجلات تملؤها رائحة قمح ودخان . صمت الضحى يملأ أذنى . أستلقى على السرير العالى الجاف . رأسى على المخدة الصلبة أنام بسرعة . يمتلئ نومى بالأحلام .

أستيقظ قرب العصر . رأسى فارغ . وفى قلبى هدوء ووحدة . أتناول الطعام فى حجرة أمى وهى لاتزال راقدة .

قالت وأنا أتناول الطعام :

– ربنا يا بنى يصلح حالك . ويهدى سرك .

استكانت كلماتها فى روحى . علمت أن الاصدقاء والأهل سألوا عنى . جلست أمام باب البيت أشرب الشاى وأنتظرهم .

بدأوا يرجعون فى آخر العصر . يلقون سلاما حارا طويلا . نحن ثلاثة نسهر معا دائما . . يرتفع عن نفوسنا كل شئ ومع المغرب الذى بدأ ينزل لم يكن موجودا غيرنا .

أرى فى نهاية الحقول أيامى الأخيرة فى القاهرة تهتز . تفصلنى عنها مسافة كبيرة ، وشعور جديد . القمح أصفر وناضج . يملأ الأفق . يشد بصرى .

نعم رأيته ، رأيته وقد استعد وتأهب للسير فى الطريق . خلع الرداء الذى كنا نرتديه معا ، وارتدى جلدا آخر . لم أوقفه . لم أغضب ، لكننى صرت وحيدا .

خرجت معهم نسير على شاطئ الترعة . فى يدى عود قمح جاف ، وفى روحى كلام لا أعرف كيف أخرجه ؟

قال لى خميس بعتاب أعرف نغمته :

- أنت فين يا عم ، شهر واللاشهر ونص

تساقطت بيننا أخبار كثيرة . تفاصيل الأحداث فى القاهرة ، يسألون بشوق عن الناس ، والأصدقاء ، وجميع ما أشعر به . تقدم بنا المغرب وغابت الشمس ونحن لانزال نتكلم ونسير على الترعة . هم يسألون ، وأنا أجيب . تعلقت عيناى بالأفق الأصفر . وبدأت أشعر أننا - الليلة - لن نستطيع أن نتكلم . انتقل لهم نفس أحساس مع اجاباتى الشاردة الخالية من الحماس .

كانت أمى قد استعدت للنوم . أضاءت فى مدخل البيت - أمام حجرتها - اللمبة . . كلمتنى وأنا أصعد السلم واختلط صوتها بالظلام .

كان أبى ضخم الجثة ، عريض الكتفين . . رأيت أبى فى نهاية السلم . أنا أصعد اليه ببطء شديد . رفعت يدى بنور اللمبة فأضاءت المكان . فتحت نافذة حجرتى التى تطل على أسطح البيوت . تطل على ميدان قريتنا الخالى .

كل شئ فى غرفتى قد جهز بالطريقة القديمة . . شفشق الماء المنقوش . الكوب المقلوب . الجلابية البيضاء التى أنام فيها مفرودة على شباك سرير . أرض الحجرة الطينية مكنوسة بعناية ومرشوشة ، الحصيرة لامعة . . وأشياء متراكمة فوق الدولاب .

لست وحدى . . أبى يسكن لى فى جميع الزوايا . يفتح فمه ولا يتكلم . يتطلع داخل حياتى . وجهه المتسائل ينعكس أمامى فى المرآة .

«يخرج فى العصر للصلاة . يحب صلاة المغرب عند النخلة قرب رأس الغيط . أخرج خلفه . أراقبه . أقترب منه . أشم رائحته (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . اله الناس . مـن شر الوسواس الخناس) السلام عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله»

– حياتك هذه ليست حياة . .

لو أستطيع أن ابدأ من جديد . لماذا لا تقبل ؟ أبى . . طردتنى من جنتك .

كان لك أصدقاء . كنت تحبهم وكانوا يحبونك . بريق السعادة فى عينيك . هنا فوق هذا السطح وأنت تسهر معهم حتى آخر الليل كنا جميعا نخدمكم .

السكون حولى . بيتنا مهجور . لو صرخت . لو هتفت لن يسمعنى أحد .

عندما رأتنى أمى فى الصباح وقد أرتديت ملابسى قالت :

– بسم الله الرحمن الرحيم . يا بنى النهاردة الجمعة . أنت ماشى ولا أيه .

كنت قد قمت قبل لفجر وأخذت أتجول فى البيت كأننى أبحث عن شئ ضائع .

– لازم أرجع مصر . الحمد لله إنى شفتك بخير .

أحسست بها تقف على الباب وعيناها فى ظهرى . أسرعت خطواتى هاربة مضطربة . لا علاقة بينى وبين الابن الذى تريده .

أتجنب طريق المقابر . فهناك لحظة تترصد لى . تمتلئ رأسى بقرارات أعرف أننى لن أنفذها . خطوتى لاتزال سريعة . . من يرانى يحسب أننى حققت كل الانتصار .

عند موقف الاتوبيس اعترضنى خميس قائلا :

– ايه الحكاية . . وده اسمه كلام . .

– معلهش . . لازم . . أرجع . . فيه شوية شغل .

من الممكن أن ألقى بنفسى . أن أرجع معه . لست أريد أن أفعل أى شئ ومع ذلك أتماسك . أتحرك كنحلة تاهئة .

– أنت مالك . أنت متغير . فيه حاجة . .

جلسنا فى مقهى صغير نشرب الشاى وننتظر الاتوبيس ، هو يجتهد لكى يدخل بعض الحياة على هذا اللقاء . يعصرنى غضب أحمق على نفسى . أننى أفسد كل شئ ، أحرق من خلفى كل المراكب .

لم أجد شيئا أرد به عليه ، أبتسمت وتصلبت على وجهى الابتسامة . ولم ينقذنى سوى الأتوبيس الذى لاح من بعيد .

* * *

عندما رأيتها فى الأوتوبيس لم أكن أعرف أن هذا سوف يحدث ، لم أكن أعرف أنها ستصبح – بعد أيام – زوجتى ، جزء غامض من حياتى ، أختفى داخل عالمها الخاص ، المغلق ، الغريب .

تبادلنا التحية كما نتبادله دائما عندما نلتقى فى الأتوبيس ، «فتينة» المدرسة التى تعمل فى مدرسة ابتدائية فى قرية من قرى الناحية ، جلست

إلى جوارها ، لم أكن أنتظر أن نتبادل سوى بضع كلمات ، تنتهى عندما تنتهى الرحلة ونصل إلى القاهرة .

كل ما أعرفه عنها أنها مدرسة قديمة ، عانس ، لم تتزوج بعد ، تملك جسدا ملفوفا ، لها صدر كبير ، وردفان . كثيرا ما تذكرتها بلون وجه تتحرك فى حدة سريعة ، مشدودة تحت نظارتها السوداء الرخيصة . عينان عسليتان فيهما بريق أنثى ولون وجهها قاتم .

صوتها غريب وهى تكلمنى فى الأتوبيس ، صوت عال ولكنه مثير . قالت لى : انها سعيدة بأن تقابلنى اليوم بالصدفة هكذا . كم كانت تنتظر هذه الفرصة . أن تقابل شخصا تستطيع أن تتكلم معه . . أكثر الناس هذه الأيام مستغلون ، لا تهمهم سوى مصلحتهم الشخصية . .

حكايات وأسماء ، وناس تتعامل معهم . أمها العجوز . . المدرسة المزدحمة بالتلميذات . عيون الزميلات التى لا تتركها فى حالها . حتى البيت الذى بدأت تبنيه هنا على قطعة أرض صغيرة فى قرية مجاورة وتضع فيه كل تحويشة العمر . حتى هـــذا البيت يتكلمون عنه . وينظرون اليه . إنها لاتطلب منى أكثر من أن أسمع ، وأبتسم وأضع على وجهى تعبير المقدر الفاهم .

تصرف ذهنى . تريحنى كأنها مخدر سريع التأثير . وعدتنى – وهى تتأمل الحقول والقنوات التى نعبرها مسرعين – . وعودا غامضة بأنها تستطيع أن تقدم الحنان والفهم ، لم تكن متسرعة ، واضحة حتى تجعلنى أهرب . كانت بسيطة ، صادقة وهى تكشف لى أن فى حياتها مكانا

تريدنى أن أملأه .

كل الأمور سهلة ، ميسرة ، وهى تستطيع دائما أن تقدم حلا . ليس هناك داع للتردد . ولن يكون فى الأمر أى ندالة لو فكرت فى أن . .

قالت :

- فرصة سعيدة صحيح يا أستاذ فهمى .

أذكر كيف قالت هذه الجملة . كأنها تفتح صفحة جديدة فى العلاقة . شعرت بحرارة جسدها إلى جوارى . اشتهيت ما يخبئه لى . التقت عينانا . لامست رجلى فخذها . ولم تتحرك .

ليس فى حياتها أحد . أنا أيضا لا أبقى على شئ . حرارة الأتوبيس . وجهها قريب . قريب . ليس فى الوجه شئ جميل . توتر مخزون متقلص فوق الشفتين . الشفتان تعلنان الرغبة . لن أستطيع بعد ذلك أن أبتعد .

عقب صمت مشحون . سمعتها تقول لى بنبرة صوت مؤثرة : أننى أبدو لها أكبر من سنى بكثير . كذلك تصرفاتى وعقلى . ثم أخذت تصف نوع الحزن الذى أشعر به أنا . تصفه وتقول أنها تعرفه ، وتشعر به . هى تكره وجوه الرجال السعداء . انهم يبدون لها فى منتهى الغباء . الرجل الحزين وحده ، هو الذى يستطيع أن يفهم مشاعر المرأة .

كنت متأكدا أنها فوق الأربعين . يداها تنطقان بذلك . . وعظمتان تتنازعان البروز فى الخد . أشعر أننى مقدم على عالم غريب . مدفوع اليه بما يشبه الأنتحار . الرأس أولا . لا أريد الآن أن أفكر . أريد أن أستلقى

عاريا فوق هذا الجسد . وأن يمتلئ رأسى بدخان كثيف .

فى غرفتى النافذة مفتوحة ، كل شئ يكسوه التراب . . الأشياء باردة جامدة ، أمر عليها بسرعة لاشئ يستوقفنى . . بعد ساعات سوف أذهب إلى «فتينة» فى شقتها فى عابدين . . قالت لى بعد أن وصلنا إلى القاهرة : أن المقاول الذى يبنى لها البيت قد يزورها . أنها تريدنى أن أكون موجودا . وكل شئ بعد ذلك متروك لى .

ملابسى فى كل مكان . أقف فى منتصف الحجرة . أتوقع أن يحدث أى شئ ، مسافر بلا حقائب . ولا رغبة . ليس حولى شئ . حتى الأثاث يتراجع عندما أنظر إليه . هناك فى ملمس هذا التراب ورائحته شئ يقول لى : أنت لن تعيش فى هذه الغرفة بعد الآن .

كم أكره هذا السرير . ملاءته المتسخة وأعمدته القصيرة الصدئة . هذه الحجرة . اللحظات الميته التى تملأ فراغها المربع المقيت . أتصور جسد «فتينة» البارد بين يدى . والثديين الكبيرين . والوجه المصمت . وتمتلئ رأسى بشمس باردة ليس فيها دفء أو حياة .

من النافذة المفتوحة كنت أرى قمم الأشجار البعيدة تتخابط تحت عاصفة رملية ، ملأت الأفق بلون أصفر خانق وحجبت الشمس ، ودخلت حتى إلى حجرتى فملأت جوها بذرات تلهب الوجه . كأننى مجرم هارب تائه . أو قاتل يدبر جريمة . فى صدرى غضب يمزق كل شئ . قادر على أن أفعل أى شئ . أن أخنق حتى الأطفال . أستطيع أن أكذب أروع الكذب . . وأقذره .

ليس فى هذه العلاقة ما يخفى على . أنا أفهم كل شئ . . سوف أقدم رأسى أولا . القى بها فى داخل الجب . سوف أغزل حول نفسى شرنقة . خيوط رفيعة ، سوف أغطى بها وجهى وعينى . خيط من الكذب وخيط من الحقيقة .

وكان الأنتظار محاكمة تدور فى الوهم . أماكن القضاة فيها خالية . المتهم شجاع متبلد يحدق فى معنى العدل .

خرجت وأنا لازلت أرتدى ملابسى . وقفت فى السطح القديم . أستند إلى عمود قديم يهتز فى العاصفة . الشمس قرص مخنوق بالغبار . عيناى كيسان من الرمل .

أشعر فى جسدى بطاقة مدمرة . هل أنزل . . وأذهب . يمتلئ السطح بدوامة هواء ساخن تلم ما فيه من قش وأوراق فأسرع بمغادرة المكان .

أخترق طرقات عابدين الخالية . الساعة قبل الخامسة . أريد أن أتمسك بها . لم أعد قادرا على النظر إلى الوراء . تحت بيتها مقهى خال من الزبائن . أرضه مرشوشة . سلم بيتها قديم . الضوء خافت ، وعلى البسطة طفل غريب الوجه ، يلعب فى سكون أقرب إلى الحزن . نقرت على زجاج الشراعة الأصفر فتحت لى هى . كأن وجهها يسبح فى ابتسامة مائعة .

ترتدى بلوزة من النايلون الرخيص . هى تشعر أن البلوزة لا تلائمها . فشلها وتوترها ظاهران فى تقلصات شفتيها ، فى ابتساماتها السريعة المتتابعة ، والسؤال المتجمد فى عينيها .

جلسنا فى حجرة الصالون القديمة . هى تجلس أمامى على كرسى صغير . أرى فخذيها عبر منضدة مستديرة فى منتصف الحجرة . كل شئ عريان تحت طبقة متهرئة تفضح ولا تستر .

هى مرتبكة أكثر مما توقعت . وأنا مستقر فى الكرسى الكبيركأننى أعرف المكان منذ سنوات . امتلأت الشقة فجأة بصوت عجوز ينادى :

– فتينة . . يا فتينة .

قامت واقفة . وقالت مرتبكة :

– أمى . عجزت . . متعبة خالص . . وقلبها طيب . . زى العيال الصغيرين . دقيقة واحدة .

تركتنى أشرب فنجان قهوة محكم الصنع . لم تكن قد فتحت نوافذ الحجرة . ضوء العصر يدخل من الشيش . يسقط دوائر ومربعات على نقوش السجادة وفرش الكراسى . ينقلنى إلى عالم التمائم والأحجبة ، عالم شاحب وروده بلا رائحة .

عرفت أن المقاول لن يأتى . وأننا وحدنا . وأن الأم العجوز لن تغادر غرفتها . وبعد المغرب انتقلنا لنجلس فى مدخل الشرفة . النور من خلفنا مطفأ . . الشقة ساكنة . فى الصالة لمبة سهارى صغيرة تملأ السقف بالظلال . نحن نرى النوافذ المضاءة ، ولا أحد يرانا .

أشرب تنفسها العالى فى قبلة طويلة ، خانقة بلا نهاية . . جسدها يسترخى ثقيلا ، مستسلما . أتحسس رقبتها ، صدرها ، ملمس البلوزة النايلون . كلماتها سريعة بلا رابط . تصدنى بحركات من أصابعها فى

جسدى وشعرى . تقاطعنى ، تمسك يدى . تمسح دموعها . تتركنى آخذ فمها فى قبلة معادة مكررة .

البلورة سقطت على الأرض . انكشف صدرها الكبير فى وضوح . أسند ظهرها إلى حجرة النوم . احتضن جسدها نصف العارى . أحسست أنها جسد من الكاوتش المنفوخ . وتذكرت وجه الطفل الحزين الذى يلعب على السلم .

امتدت الليلة . وأحضرت لنا مع العشاء زجاجتين من البيرة ورجعنا إلى غرفة الصالون . فتحت الراديو . وأستلقيت على الأرض منهكا أتأمل دخان سجائرى . أشعر بلحمها الطرى تحت رأسى ، وأسمع أغانى عاطفية .

لم أكن أريد أن أستعيد فى ذاكرتى شيئا سوى جسدها . أصوات الشارع والعربات تأتى إلى من عالم لا علاقة لى به . . أتجنب لحظات الصمت . وأعود أشرب من مائها الذى لا يروى .

أخذت دش ماء بارد . أرتديت ملابسى . وقفت معى فى الصالة . . وعلى السقف ظل . تضمنى اليها . أشعر بآثار الماء فى رأسى . . وبرغبة فى السير بلا هدف .

نحن الاثنان معا . أربعة أذرع . أربعة سيقان . رأسان ، لاشئ يربطنا ، يربطنا كل شئ ، ملتصقان ، بيننا كل الفراغ ، فى عينيها لهفة وآثار دموع .

كأننى أنزل بلادا جديدة . البيوت والشوارع والناس اكتسوا جميعا

بطبقة من الشمع . رائحة جسدها فى أنفى . فى كفى ، عالقة بكل جسدى ، ستظل لاصقة إلى الابد . رائحة الحياة .

أستعيد كلامها دون أن أفكر فيه . ساقاى مرهقتان . . أتجول فى شوارع لا أعرفها . . بيوتها على الجانبين مظلمة وقاتمة . أؤكد لنفسى أننى حقيقى وأننى موجود . كهذا الشارع . كهذا العمود . كهذه السماء .

أعيش مع امرأة ليست بغيا . وليست محبوبة توقظ فى النفس الأحساس بأن الحب شئ خالد . عرفت هذا العالم الخالى كأننى أمضغ كرة من هواء .

بعد زواجنا تغيرت حتى تقاطيع وجهى . ونظراتى إلى نفسى صباحا فى المرآه تغيرت . وتسربت هى إلى روحى كما يتسرب النشع .

معها فى عزلة محكمة الغزل . خيوطها ، المشاعر المخبوءة ، والكلمات المحرفه ، الرفض والقبول ، الصدق والكذب . . أستلقى فى آخر الليل إلى جوارها ، بيننا وهم أكبر من السماء والأرض .

لازلت اسأل نفسى : ما هذا الذى أفعله ؟ فى شوارع القاهرة - ظهرا - أسير بسرعة . عازما أن أقطع علاقتى بها . تتراءى لى ابتساماتها المقتضبة المتقلصة ، وترن فى أذنى كلماتى لها . أشرب كأسا أو كأسين فى بار . الحياة فى الظهر - بلا بيت - قاسية . أعود إلى طرقات عابدين . أصعد السلم المعتم . أدق الزجاج . أدفن عندها كل شئ .

لم أكن أرى أحدا من الاصدقاء ، لأنهم كانوا يلقون أمامى عاريا كل

ما أحاول أن أخفيه عن «فتينه» وعن نفسى .

الآن . . زوجتى . هناك ورقتا زواج ثقيلتان فى ظرف جديد ، فى الرف الأعلى من «دولابنا» الكبير . فى العصر أجلس معها فى حجرة أمها العجوز . تصنع لنا القهوة . لا تستطيع أن تخفى سعادة بلهاء ، تملأ كل أطرافها برعونة خرقاء ثقيلة .

تستلقى بجسدها الثقيل ، وتلامسنى . تداعب رقبتى وجسدى الغائب . . . زوجها . وتتعلق روحى بعينى أمها العجوز ، وبصمتها الأبدى الذى لا ينفرج . أقرأ الجرائد . . تجرب أمامى فى المرآة قميص نوم جديدا . مئات الكلمات التى لا تقال . أنا غير قادر على أصدار حكم . فى الغروب ونحن راقدان وقد ماتت الرغبة ، وانطفأ كل شئ ولم يبق غير واقع كأنه هواء ثقيل ، وذكرى أحلام قديمة ، انطفأت دون أن تخلف وراءها انتصارا أو لذة .

تقول :

– أين تغرق بعيدا عنى ؟

أعلم أن الاجابة مستحيلة . أتوه لــو حاولت . الكلمات ليست لها . ألاتريد هى أن تعرف . تنقض على التفاصيل لتطمس المعالم . نعود معا نبحث عن شئ مفارق . شئ على حدود الصدق . . توقظه الرغبة فى الاستمرار .

كنت أجد سعادة كبيرة وأن أشرف على بناء البيت الصغير الذى تبنيه «فتينة» فى الريف . أغادر القاهرة كل خميس لكى أصل إلى القرية مع

الغروب .

البيت على أطراف قرية قريبة من الزقازيق . أصل اليها سيرا عن طريق جسر طويل على جانبيه أحراش بوص عالية . والبيت فى وسط الحقول ، مبنى بالطوب الأحمر ، لم يعدينقصه سوى النوافذ والابواب .

وأمضى الليلة هناك على سرير أعده لى الخفير . كنا نسهر معا حول نار صغيرة يشعلها لنا فى وسط البيت وتمتلئ الجدران بخيالات اللهب . وخيالات رءوسنا . فى أذنى صوت صراصير الحقول . ورائحة هذا المكان الجديد تملأ نفسى سلاما غريبا . هنا أستطيع أن أبدأ حياة جديدة . بعيدا عن كل شئ . .

عندما ينام الخفير أخرج لكى أدور حول البيت . أقول لنفسى أنت محظوظ رغم كل شئ . وجدت هذا لأن قلبى ليس فيه شئ شرير . كل الأشياء التى أريدها بسيطة ومشروعة . أحلامى كلها أحلام صالحة . أستطيع أن أغسل عن روحى كل ما أصابها من أدران . أستطيع أن أهب نفسى فى بساطة وصدق .

فى الليل يهدأ كل شئ ، ويهدأ الغبار لتصفو الرؤيا . أذكر أيام كنت أعرف صديقى أنور . أذكر وأغفر له كل شئ ، أسير على الجسر جنب أحراش البوص . وتمتد الطريق تحت ضوء القمر بلا نهاية . لا أريد أن أبتعد عن البيت ولا عن النار الصغيرة التى تحيل فتحات النوافذ إلى مربعات من الضوء الحى الدافئ . . .

«فتينة» تقول لى : لو لم أقابلك لكان هذا المكان قبرا أدفن نفسى

فيه . سوف تكون لى هنا حجرة . . . وشرفة صغيرة تطل على الحقول . أستطيع هنا أن أقفــز فوق السنوات الماضية . أن أبتعد عن الفشل القديم . الاستقرار يسعى إلى وسط بحر من الخضرة .

«فتينة» . . هى الأخرى لا تملك قلبا شريرا . كل أحلامها صالحة . وهذا البيت ، حلم الأحلام ، تريدنى أن أكون جزءا منه . عندما تكون هنا . يضئ وجهها القاتم ، وتشرق العينان وتدور فى حجراته الفارغة ، غارقة فى لذة من التفكير السعيد .

عندما أعـود إلى القاهرة بعد ظهر يوم الجمعة كنا نجد ما نتحدث عنه . وغالبا ما كانت تطلب أن تخرج لنجلس فى كازينو على النيل ، نتكلم عن البيت . . وعما نحتاج اليه من بضاعة .

تم نقلى إلى محكمة الزقازيق . نقلنا العفش والمرأة العجوز وأشتعل نور كهربائى فى وسط الحقول .

عيون الفلاحين تحدق فينا فى صمت ونحن نعبر قريتهم لكى نصل إلى بيتنا الجديد . أشعر فى الصمت الذى يحيط بى أننى قادر على أن أصنع حياتى من جديد .

أنا فى المحكمة موظف جديد ، منقول برغبته من القاهرة ، غامض مثير للفضول والاحتـرام . كل حياتى القديمة ملك لى . أستطيع أن أخفيها ، وأن أبديها وأن أصنع بها ما اشاء .

أجلس فى صمت ، فى العصر فى قهوة الزقازيق . ساعة وساعتين . أنصت إلى سكون المدينة ، إلى شوارعها الخالية . فى المغرب أسير إلى

البيت أغلق على نفسى حجرتى وأكتب . لم يكن هناك شئ كبير يتحقق ولكننى كنت مرتاحا .

أخط كلمات بسيطة لاتمس الحقيقة . فقط تدغدغ الواقع بإيقاع وهمى . كنت فى بعض اللحظات أتوهم أننى أصنع عالما خاصا بى . فأشعر بالسعادة والغرور . أقوم أتجول فى الحجرة ، أمسك الورق وأردد الكلمات . تذوب حلاوتها فى فمى أخشى أن يتكشف لى ضعف مخيف أو هوة سحيقة . أضع الاوراق وأبحث عن «فتينة» . .

كانت تنام مبكرة ، وقد ربطت رأسها بمنديل ، ووضعت إلى جوار رأسها كوب ماء وبعض علب الدواء القديم . أراقب نومها العميق وأحدق فى وجهها المصمت ، وأخاف أن أرى فى الوجه نفس ما كان فى الورق . أمر فى حجرات البيت الثلاث . . حجرتى ، حجرتنا ، حجرة الأم العجوز . لم تكن المرأة تنام كثيرا بالليل ، عيناها كانتا تراقبانى إلى أن اتسلل لكى أحدق فيها ، وأسألها عن كل ما تفكر فيه . فتتوقف حركة الأشياء ، ويتحول قلقى إلى قطعة حجر جامدة . بلا تاريخ وبلا مستقبل . تطول وحدتى فى الليل ، أعود أحاول الكتابة . . ليتنى أستطيع أن أعيش لحظة واحدة . . بلا انقسام .

قالت فتينة :

– مامعنى أن نعيش معا ؟ أنت كنت ولاتزال غير كل الناس ، أنت طيب . أنت تفهم . كلماتهم ونظراتهم كانت تزرع الشر فى قلبى . أنا الآن كما كنت تريدنى ؟ أنا أقدم لك كل شئ ، أليس كذلك ؟

ما الذى يحدث لنا الآن . كأنك لم تعد ترانى .

لم أكن أعرف بماذا أرد . اتجنب الخوض فى هذا الحديث ، أحاول أن أبقى لنفسى وحدتها . أن أعرف قواعد وأصول طريقة التعامل ، ولكنها كانت تتمسك بلحظة قديمة تجرنا معا إلى النهاية .

قالت فتينة :

- أريد أن أعرف ماذا تفعل عندما تجلس وراء الاوراق وتكتب . لماذا ؟ انها تأخذك منى . لماذا ؟ ليتنى أستطيع أن أنجب لك ولدا . أعرف أننى لن . . ولن . وأنت أيضا تتبدد ، أذكر هذا دائما . أعرف أن المستقبل لا وجود له .

كانت منفعلة تبكى وأنا بارد . أجلس فى حجرتى . أنظر اليها ولا أراها .

أخذت تمزق أوراقى ، ورأيت أمها العجوز تزحف عند عتبة الباب .

قالت فتينة :

- لن تكتب . تكلم معى . قل ما تريد ، تحرك ، لاتنظر إلى هكذا . . . أنت تدفعنى إلى الجنون ، أنت لم ترنى ولا ترانى أنت . . أنت . .

قالت لى : أخرج . . أرجوك . . لا أريدك . .

أمسكت أنا بفتينة وقلت :

- لا . لا . لا . كل شىء سيعود كما كان . لاتخشى شيئا أنا آسف . أعتذر . . لا تغضبى .

صنعت لها كوبا من الليمون . أبعدت المرأة العجوز وأعدتها إلى

سريرها كانت تراقبنا وتضحك . . أمسكت يد فتينة المبلولة بالعرق وأطفأت النور .

أنا أرى نفســـى الآن ، أعرف كيف أعيش مع هذه المرأة المطعونة التى تريدنى وتكرهنى ، مع جسدها الذى يحيط بى وملابسها التى تتناثر حولى .

أحـــلم ويدفـعنى الحلم إلى قـاع ضـعفى . أعـيش فى ركن تـافـه من العـالم . لا يذكـرنى أحـد . وأنا لا أنسى الناس . قطعة من الطين المعـتم انطفأ فيها الخيال .

أقول لنفسى : أيامى ضائعة .

وأقول أيضا : ولكن ماذا يمكن أن تفعل ؟

اليوم يوم جمعة . لاشئ أفعله . أجلس فى الشرفة الصغيرة أطل على الحقـول . بقرات كسول تأكل أمـامى . بينى وبينها سـور شائك وحديقة جديدة ، أرضها تراب . . وحصى . . وبقايا طوب أحمر .

اقرأ جرائد فـارغة . صوت خلفى يعلن ملكيتـه للبيت يطردنى إلى الخـــارج حيث الشـمس والاتسـاع الحـالى بلا حـدود ، تكلم أمـها طوال النهار . تقول كلاما تريدنى أن أسمعه :

– النهارده الجمعة . فيه ساعة نحس . أنا بقولك أهوه يا مجنونة . أنا معدتش طايقة حد . بقولك خليكى راقدة فى السرير . وخلى اليوم يعدى على خير .

تترقب أى شئ . تصنع المواقف دائما ، وتستعد للانفجار ، أنها لاتطيق

الحياة . تلعن اليوم الذى ولدت فيه .

لم يعد فى قدرتى أن أتصنع العطف أو الرقة . ولم أعد أستطيع أن أقول لها بصمتى ونظراتى :

- أنا أفهمك وأقدر ما تشعرين به .

ظلت فى الداخل تلعن أمها . تروح وتجئ ، ترغب أن أتدخل أنا . ولكننى مشغولا بنفسى . كأننى يجب أن اكتشف سر العالم الآن . أدخن سيجارة . وأحسب ما فى جيبى من نقود . . وأفكر فى أن أمضى ليلة فى القاهرة .

فى البيت خلفى روح غريبة ، والمرأة العجوز تقاوم وكأن هناك شيئا يثيرها . يجعلها تتمرد وقد كانت من قبل تبقى حيث تضعها فتينة .

كانت فتينة تقول لى فى الزمان الماضى عندما كنا نتكلم طوال الليل أنها شهيدة وأنها تحب أن تكون كذلك . لم أفهم شيئا سوى أن الكلمات عندها لاتعنى شيئا .

أما الآن . . فى ظهر يوم الجمعة . والجنيات فى الظهر يجلسن فى ظل الأشجار والأشباح تتجمع عند السواقى المهجورة . البيت ليس بيتى . والحياة حولى بلا تاريخ . وأنا بلا مستقبل ، أدركت أن لاشئ تحت القناع سوى الكذب . العجوز أصدق شئ حولى . جامدة لا تتكلم . بؤرة الحقيقة هى . فى صمتها نفسى ، وفى عينيها أكون .

كانت تعرف السحر والودع والفنجان . وكانت جميلة . . عندما مات زوجها فى حرب السودان سلكت دروب الروح والاتصال . وجاءها المرض

الذى يكسو العقل واللسان ويشعل فى العينين بريقا غريبا . يأخذنى ضوء عينيها إلى بحار واسعة من الزيت . واوقن أن حياتها جوهر نادر ليس لى أن ألمسه .

دخلت فتينة لتجلس على الكرسى المجاور لى فى الفراندة . فى يدها مصفاة ممتلئة بقرون البامية الخضراء الصغيرة ومن داخل البيت يأتينا صوت أمها . عواء غريب أنا وأنت أنتهى بنا المطاف .

رجل . . بلا اسم وأمرأة من باطن الأرض .

ما أغرب الزمان . . والمكان .

قمت أشرب بعض الماء . ورأيت المرأة العجوز تفرد أطرافها الرفيعة تحت بقعة الشمس التى تسقط فوق سريرها المجاور للنافذة .

وسألتنى فتينة عندما رجعت :

– ماذا فعلت فى حكاية السلم .

– . . لاشئ .

– لابد أن نبنى شقة صغيرة فوق هذا البيت . لم لا ، شقة صغيرة تعنى أربعة أو خمسة جنيهات كل شهر أم أننى لم أعد أفهم شيئا . حتى هذا المشوار الصغير إلى المقاول الذى يبيع درجات السلم لم أعد أريد القيام به .

وقامت غاضبة .

لم أكن فى الحقيقة أمانع فى أن أؤدى أى شئ . . ولكن لم يكن هناك داع لأن ندخل فى مشاريع جديدة . .

حياتنا قد انتهت . . لا يمكن أن نعيش هكذا . . أنا قدأقبل أى شئ إلا أن أموت واقفا على قدمى . . كان لابد أن أخرج . أن أواصل . أن أحاول بنوع من الشرف المرذول . أن أخفف عليها وقع ما نحن مقدمون عليه . . وأن أهرب من وقع عينها المدركة لضرورة المصير . أراها فى المطبخ تطهو الطعام . . إلى جوارها وأبور عال يملأ الدنيا بالضجيج . . وجهها غاضب يملأه العرق . . أدرك أن كلا منا بعيد . . وأن كلا منا لايستطيع أن يمد للآخر أى يد . .

تركت البيت يدوى فيه صوت الوابور . . وهمهمات المرأة العجوز . . ونزلت إلى الحديقة الجرداء الجديدة أتحسس قطع الأحجار التى ملأتها سخونة الشمس .

* * *

فى نهاية قريتنا مستشفى كبير . . مبنى قديم . . نوافذه عالية تستمر فيه ليلا حركة دائمة ، تلفت اليه الانظار . . إلى جوار المستشفى بيت خشبى تسكن فيه الممرضات . وفيه تسكن «زينب» التى قابلتها منذ مدة فى المحكمة . . جميلة فائرة مليئة بالحياة ، بدأت أشعر بها ، اراقب تحركاتها ، اتسقط عنها الأخبار . .

كنت قد عرفت أنها نقلت إلى هنا . . وانها الآن تنهى اجراءات الطلاق ، سيدة مرحة واسعة العلاقات . .

بعد أقامتها فى المستشفى لمدة شهر كانت كل المكاتب فى الزقازيق

تقول :

- ست زينب جت . . ست زينب راحت . .

لها بعض الأوراق فى مكتبى . . طالت جلستها مرات على المكتب . . كل شئ فيها ينطق بالمرح والصحة . . تتحدث دائما بسرعة ووضوح . . كأنها تملك كل شئ . . لايبدو عليها أنها تفكر فى أى شئ آخر غير ما تقوله أو تفعله . عيناها وهى تضحك ، بحر فى الصيف وحقول فى الربيع .

تكلمنى وكأنها لا تتوقع الرد ، كأنها تعرفه ، تثق فيه . . عندما طلبت منها بعض الأدوية «لفتينة» أرسلتها بسرعة فى اليوم التالى مع فراش .

وفى عصر نفس اليوم كنت أسير ناحية المستشفى . . أمضغ أحلاما وأفكارا . . وسمعت صوتها المميز عاليا فى حديقة المستشفى يضحك مع بقية الممرضات .

وقفت قرب الباب . . ولم يكن لترددى معنى . . تركت الفتيات وأقبلت ناحيتى تفتح الباب :

- ماذا تفعل هنا ؟

- جئت أشكرك . .

ورنت ضحكة كبيرة . . وسارت أمامى . . ونقلتنى إلى عالم أتمناه . . وأخاف ألا أكون قادرا عليه . . أصرت أن أجلس ، اختفت زميلاتها وبقينا وحدنا فى حديقة المستشفى .

وجلست تتكلم . . يجب ألا أنظر اليها هنا . . فى القاهرة هى دائما

شــئ آخـر . إنهـا هناك تعرف الجـميع . . كل أصـدقـائـهـا من أحـسن الناس . . صحفيين . . وضباطا . . وناسا من ذوى النفوذ . . أحسن شئ تحبه هو الحياة . المهم ألا تفكر أن تضحك من أى شئ وأن تدوس كل ما يضايقك . .

إنهـا تحب الأشـيـاء التى تأتى من غـزة ، الروائح والملابس والأشـيـاء الدقيقة التى لا تجدها هنا . هل أعرف أحدا يسافر إلى هناك كثيرا ؟!

من سن السـادسـة عشرة وهى تلبس . تزوجت مرتين . . الرجال شئ عادى لا يخيفها . . أنا ؟! أنا . . يبدو أننى مكار .

هى قد سمعت أننى أعيش هنا مع فتينة ؟! فتينة من ؟! زوجتى ؟! أنا متزوج . . لماذا ؟ والحياة !

كنت أشـعـر وهى تتكلم أننى أراقب فيلمـا سـريعـا لحـيـاتـى يـدور بالمقلوب . . أتحرك مع كلماتها فى واقع ليس فيه شئ سوى الرغبات . . لست مشدودا اليها كأنثى بقدر ما يشدنى عالم من الحرية المطلقة . .

نضـحك . . تكلمنى . . تنسى أن ساقيـهـا الجميلتين عاريتان تخبط عليـهـمـا . . تنظر إلى . . تنسى عـينيـهـا . . تأخـذ سـيـجـارة . . تشـرب نصفها وتسحق الباقى .

قـبل أن يســقـط الغـروب علــى حـديقـة المسـتـشـفى جـاءت زمـيلة تستدعيها . . تركتنى بسرعة قبل أن يكتمل أى شئ .

* * *

رجعـت إلـى حجـرتى – فـى بيت فتينة – هاربا مـن غروب خريفى

يشعرنى بوحدة مطلقة . . أى مشوار طويل قطعت . . كل هذه العلاقات حولى . . وأنا لا أشعر بشئ . . فتينة عالم مغلق . . حكم صادر . . حياة بلا مستقبل . العجوز . . عينان وعلاقة أقوى من أى كلام ، وزينب : الماضى والمستقبل وحياة لا أعرف أين تؤدى بى . المكان غريب . ولماذا لا أملك أى شئ . صديقى أنور . . ماذا تم ؟ ماذا فعلنا . . وكيف تسير بنا الحياة . .

فى منعطف هكذا لم يحتمل كل منا الآخر .

تواريت أنا ولم أدرك . . أنت تصرفت . على أنا – الآن – أن أتصرف . . أن أفعل شيئا . أن أقاوم الموت الذى يكمن لى فيما بين الأيام والليالى . .

حاولت أن أطردك . أن أعيش وحيدا ، بلا صحبة ، أنا لا أريد . . أن أغرق فى مستنقع خاص . فى لحظات أحسست أننى كامل . أننى أستطيع أن أبنى لنفسى حياة . . هذا هو الحصاد . . هل تراه ؟!

فى حجرتى قلبت أوراق قصتى الأخيرة . . كذاب . . كذاب ليس عندك ما يقال . نحن فى طريق بلا عودة . . ليس فينا من تعلم أسرار الحياة .

زينب هذه المرأة التى خرجت لى من الفراغ . . كم أنا مستعد الآن أن أغير حياتى من أجلها . أن ابدأ كل شئ من جديد . .

ليس يقلقنى الآن سوى رأيك يا صديقى ؟!

الرباط الذى لم نمتلكه معا . . الحياة التى بدأت ولم تكتمل . . من يستطيع أن يتهم . . أو يحكم . . من يستطيع أن يرى الكل . . ويجد

الطريق .

لماذا قلت لي يوما «إنك» وجدت الطريق ؟ وتركتنى أغرق وحدى فى الهروب الطويل . أبحث عنك ، عن نفسى عن معنى . . واتوه وحدى فى هذا البيت الغريب .

تفاصيل بلا كل . . واقع . . بلا حياة . . حتى الأشياء ترفضنى . . والليل أمامى بلا نهاية .

* * *

تفتح فتينة عينيها فى الصباح . . السرير يرسم ليلة من الوحدة والقلق ، هى تتمنى شيئا لم يعد موجودا ، أنا فى عالم آخر أمضغ ذكريات الأمس . . أتصنع النوم ، أسمع وقع قدميها فى الحجرة ، أدفن وجهى فى المخدة ، حركاتها عصبية ، تفتح الدولاب ، تغلقه ، توقظ أمها العجوز ، تدمدم بكلمات غاضبة .

تعود تقف عند رأسى ، تصب فوق ظهرى نيرانا من الغضب والتساؤل والرجاء . تمتلئ عيناى بصورة لزينب . . أتمنى أن تتركنى وتخرج لكى ابدأ يوما من حياتى الجديدة المليئة .

لماذا لا تعرف أن كل شئ قد أنتهى ؟

أليس من الممكن أن نكون - مجرد - أصدقاء ؟

هى سوف تمضى طوال اليوم فى المدرسة . . لن تعود قبل الرابعة وأنا لن أذهب إلى المحكمة . صفقت الباب خلفها ، وتمطعت أنا فى السرير ، فتحت النافذة ، ورأيت العجوز تجلس على كرسى فى الشمس ،

ربطت رأسها بمنديل أبيض تدلى رأسها فوق صدرها ، فى اغفاءة .

جلست أتناول الافطار ، أقضم الفطير الجاف ، واقرأ قصة الأخوة كرامازوف للمرة الثالثة .

أنا أفكر فى الأسابيع الماضية . أغلق الكتاب . . أنتظر أن تأتى زينب . نحن اليوم على موعد . الذى حدث فى الأسابيع الأخيرة ، غير كل شئ فى حياتى . زينب هى التى قادتنى . استسلمت لها فى رحلة طويلة عبر عالم جديد لم أكن أعرف أنه موجود .

أحب وجودى إلى جوارها . أحب أن تقول لى فجأة وبدون مقدمات :

- أنت الرجل الذى أريده . .

أصبحت شخصا آخر . فى ماذا كنت أفكر قبل أن أقابلها ، قبل هذا لم أكن أعرف الحياة .

لم يعد هناك سبب للحزن والتردد . ذابت الاحزان والترددات . اسمع ضحكاتها الحرة فى أى مكان أكون .

بعد أيام من لقائنا قالت لى : هناك شقة فى القاهرة نستطيع أن نذهب اليها . صاحب الشقة صديق قديم . يحب السهر ويحب أن يكون حوله كثير من الاصدقاء .

هناك فى هذه الشقة قابلت عشرات الوجوه . كلهم غرباء لا أحد يعنينى سوى وجه زينب الذى أراقبه فى ذهول . أراقب كيف تتصرف مع الجميع . كلهم أصدقاؤها ويعرفونها لكنها تجعلنى أشعر أننى وحدى الموجود .

ليس فــى هذا العـالم شئ ممنوع . الأكـاذيب مـقـبـولة . لا مـعنى للحقيقة ، ولا داع . الكل يضـحك . يرغب فـى المتعة . النسـاء والرجال بلا فـرق . من أنت : لا أحـد يسـأل . المهم أن تكون ظريفـا . أن تضـحك ، أن ترد على أى سؤال بما يدفع الحديث ويثير بعض الضحك .

فى الليلة الأولى خـفت . وفى الثـانيـة ترددت . وفى الثـالثـة أقـدمت . كـانت زينب تثق فى أننـى سـوف أعـرف كـيف أتصـرف ، تثق فى أننـى سـأكون ناجـحا فى هـذا الجو . لذلك تركـتنى فى الليـالى الأولى أسكر . . وأغرق فى الصمت .

كـانت تكلم الجـمـيع . تضـحك مـع الجـمـيع ولكنهـا تنظر إلى بـعين لا تراقب ، ولا تـحكم ، عين تدعـو إلى بحـور من اللذة والعـشق . . تسـاقطوا واحـدا بعد واحـد . أنا وحدى سـكران أهمس فى اذنهـا ، وهـى تهـمس فى أذنى .

خرجوا جميعا ، وبقيت أنا وهى . . وصـاحبها القديم صـاحب الشقة . قال لى فى فروسية حمقاء :

- عن اذنك . فرصة سعيدة جدا . الشقة تحت أمركم ، أنا وهى للمرة الأولى وحـدنا . لم أعـرف من قـبل امـرأة كـهـذه ترقـد على الكنبـة . حـولنا زجاجات الخمر فارغة .

وفى الحـجـرة المجـاورة سـرير . هـى تحـدق فى السـقف . ليس هناك مكان لشئ آخر . الكلام يذوب قبل أن ننطق به .

دون كلام فـهمت عنى كل شئ . ليس هـنـاك مـا أخـفـيـه . وهـى لاتعرف

كيف تخفى أى شئ . ما ضيها لامعنى له . . ترددى وأفكارى تنوب . . كذلك الخجل الهزيل الذى نخلعه معا . .

قلت لها : «أحبك» ولكن بلا مستقبل . فكرت فى الكلمة . فى عذابها القديم . أخذت أرددها . أحبك أحبك . الآن أحبك كما ترقدين على هذه الكنبة . بلا مستقبل مثلى . أنا لا أملك غير الآن . كذلك أنت . ليس هناك حياة غير الآن . مكتوبة على جبينك . . «الآن . . الآن فقط»

لم يشعر أحدنا بالوقت . كنت عاريا . . وهى عارية . والفجر يدخل من النوافذ لكى يطبع فى ذهنى ليلتنا الأولى . عالم غريب من الحرية يربطنى كما تربطنى هى بفمها الملتصق بفمى . يعطى ويأخذ فى ديمومة لا تنتهى . وتصبح معى شيئا واحدا ، ودائما ، لا يفكر فى المصير .

فى العاشرة صباحا دخلت زينب إلى بيت فتينة . فتحت لها الباب . هذه هى المرة الأولى التى تدخل هنا . تتحرك فى البيت كأنها جاءت إلى هنا مئات المرات . بقايا ارتباكى تبددها حريتها . . واتأملها فى فرح :

– مراتك خرجت . أين أمها .

مع المرأة العجوز كانت زينب رائعة . أراقبها تقدم للعجوز طعاما تضعه فى فمها . العجوز تستسلم لها . كما استسلمت أنا . تبتسم . تتحرك فى يدها كأنها طفل .

بعد أن تنام العجوز . تعود زينب إلى . تعيد ترتيب الحجرة . فى دقائق تصبح هى سيدة البيت . تذهب إلى المطبخ . تخلع ملابسها فى حجرة النوم . تغلق النوافذ . الضوء . . هذا الضوء هو الذى أريده . لا

أحد فى البيت سوى زينب وأنا . ساعات خالية لنا . أنا الآن أنسى كل شئ . يتردد فى البيت ضحكها المرح .

قالت لى :

– أنا أعرفك . كأننى أعرفك منذ مئات السنين . ليس فيك شئ غريب . فى اللحظات التى تنظر فيها بعيدا عن عينى . فى اللحظات التى تبدو فيها مليئا بالكبرياء والغموض أتذكر وجه أبى . . كان مثلك حزينا . . ولكنه يحب الفرح . كنت أستطيع أن أجعله يضحك حتى عندما يكون ثائرا يملأ الدنيا بالضجيج . أنت أيضا حزين وغاضب بلا سبب . كل ما تحتاج اليه هو امرأة تعرف كيف تحبك . امرأة مثلى .

أحبها . ويعجز ذهنى عن التفكير . أتمنى أن أدفن فى جسدها الحر البارع . . جسدها الذى يعرف كيف يذيب كل احساسى بالوجود .

معها كل شئ سعيد حتى الغذاء البسيط السريع . . تتركنى فجأة لكى تذهب للعجوز . وتعود حرة . تضحك زينب ، دائما موجودة بلا افتعال . . تتحرك وتقول لى :

– أنت ملكى . كل شئ هنا لى ، أنا أحب أن أكون معك . عندما أخذتنى اليك . . رأيت كل شئ . . رأيت أننا التقينا . وأننا لن نفترق .

كلماتها كائن حى . يعيش معنا . هى تقودنى حيث تريد . لم يعد للخارج الثقيل وجود . أنا . . وهى . وأنا جديد . . لا أعرف نفسى .

قالت لى :

– قلبك . وعقلك . أنا حمامة أرقد عليهما . . لاتفكر . أعطنى كل

شئ .

ومع قبلاتها التى اطفأت كل ما حولى ، وجدت نفسى أسبح فى وحدة جديدة لم أعرفها من قبل .

قبل الساعة الرابعة بقليل كانت زينب قد أرتدت ملابسها وايقظت المرأة العجوز لكى تعطيها مزيدا من الحلوى والطعام . وقبلتنى . وقالت لى :

– تذكر . . قلبك وعقلك . . أنا أملك كل شئ .

تعلقت بها لا أريدها أن تذهب . ولكنها إسرعت بالخروج وبقيت وحدى فى البيت . . مع العجوز التى تبتسم لى إبتسامة غامضةتدفعنى إلى الجنون .

فتينة تعرف وتراقبنى . . القرية تتهامس وتحدق فينا . . ولكننى امتلأت بشعور غامر بالانتصار .

زينب . . فى عينيها حريتى . . وقوتى . زينب ملأت حياتى ووضعتنى فى أول الطريق . . جعلتنى أعتقد أن الحياة لعبة مسلية أهداها لى رجل طيب .

قالت لى زميلتها فى المستشفى :

– كم تغيرت زينب منذ عرفتها أنت . !

وهمس فى أذنى زميلى فى المحكمة :

– الحب . . إنه يصنع العجائب . !

فى طريق عودتى . . من الزقازيق إلى البيت . . أغنى . . تسرع

خطواتى . . أحب تراب الطريق . . وحر الظهيرة . . أتوق أن أرى وجهها . . وأشرب معها كوب ليمون . . وألمس يديها . . كأننى فى عالم آخر صنعته هى . . لى . . وحدى .

مع شروق الشمس أحلم أننى أولد من جديد . . هى قالت لى : سوف ننسى كل شئ ، ونعيش معا ، وأنجب لك عشرة أطفال سوف لا تغلق قلبك بعد اليوم على سر . . ولن يكون بيننا حجاب .

وصدقت أنا .

خلعت الرداء القديم . كسا وجهى لون أحمر . ولمع فى عينى بريق صحة وسعادة . أخذت أستعد للميلاد الجديد .

فتينة بدأت تبنى - هى الأخرى - الشقة الصغيرة فوق السطح . تصعد هناك ، تراقب العمال ، وتنزل قرب المغرب وقد غطى وجهها الجير والرمل . أراجوز غريب خرج من تحت الأرض .

أسأل نفسى كيف حدث هذا ؟ كيف أستطعت أن أعيش مع هذه المرأة التى لا تستطيع أن ترى أبعد من قدميها . ولكنها لم تعد تشغل من تفكيرى سوى حيز ضيق كحياتنا التى ولدت ميتة . تمضغ أحلاما كأنها ليمون أخضر . أنا إلى جوارها أسمع دبيب الكراهية ، وزحف اليأس . .

لم أكن أعرف أن فى طاقتى كل هذا القدر من القسوة . أراقبها . أتفرج عليها . بينى وبينها عازل قاس . أستطيع أن أحدق فيها ولا أرى سوى ما أريد . .

فتينة تتجاهل كل ما يحدث . هى لاتملك الدفاع عن شئ عندما تضمنا

حجرة واحدة تتصنع منطقا تريد أن تغزله حولى . أفتح الراديو الصغير . أحدق فى السقف . أراقب اللعبة الجديدة الفاشلة التى تحاول بها أن تستعيد ما تصورت أنها تملكه . .

الماضى بلا مذاق ، ليس هناك شئ نستطيع أن نرجع إليه معا . . تلك العواطف الميتة تزيدها حركاتها كآبة .

من قتل كل شئ . أنا لم أقتل . الدم على يدى أبيض . فى يوم ما كان من الممكن أن . .

أنا اليوم سعيد . .

وقد أخذت منك ما أريد . .

اتقلب فى كذب جديد ، اتصنع رقة من نوع جديد ، اذا فشلت أغضب . هى تقبل الاثنين . تريد أن تستحلب من الحاضر الجاف قطرة واحدة ، أنا تحولت ، أجد فى اعترافى بقسوتى سعادة . كلما ازدحمت حولى المشاعر . زاد ثرائى ، زينب تعرف كل شئ ، هى وحدها التى تفهم ، وعندما . . عندما تحل شعرها لى لن أجد نفسى مخطئا ، أدفع فتينه بعيدا عنى . . وأجد لذة فى أن أتخيل أنها هى كل الماضى الذى أنتصرت عليه .

* * *

دخلت فتينة علينا وكنت أجلس أنا وزينب فى حديقة المنزل . . فى وجهها المعتم كل شئ ، ارهاق اليوم . . والحياة وكل غبار الطريق . أمها العجوز تجلس فى مقعد فوقنا فى الشرفة ، فى يدها بقايا الحلوى التى

أعطتها لها زينب . . كانت قد أغفت وهى تلوكها .

صوت زينب هو الذى خرج ، قويا ، مسيطرا على الموقف ، تحدثت بسرعة عن أى شئ ، عن الادوية والمستشفى والمرض .

حدقت فتينة فى وجهى ، ودخلت إلى المنزل هاربة ، بعد لحظات القت من النافذة بالحلوى . . وأغلقت النوافذ ، صوتها من الداخل يسب أمها . . وقذارتها . . وكيف أنها تحولت إلى طفل أبله لا يحب لا يجب أن يعيش .

لم يعد شئ من هذا يعنينى حتى هذا الموقف يثيرنى أكثر ، الحياة تكشف نفسها أمامى ، وأنا أتفرج ، لمحت زينب هذا المعنى فى وجهى فقالت :

– سوف أذهب الآن . .

خرجت معها ، سرنا إلى المستشفى . . كانت صامتة حزينة ، ولمحت فى عينيها دموعا ، قالت :

– لن نستطيع أن نستمر هكذا . . لابد أن نتصرف .

كنا قد فكرنا فى كل شئ . . ولكن الاقدام على الطلاق لم يكن فى استطاعتنا بعد ، قلت لها : أن كل شئ سيكون كما نريد ، وأننى أشعر وأنا إلى جوارها أننى قادر على أن أفعل أى شئ وليس فيما حدث اليوم شئ جديد .

ولكنها قالت أنها لاتحتمل المنظر . . وأنها لاتعرف كيف احتملته أنا .

كنا فى ساعة الغروب ، والفلاحون عائدون من الحقول وأوصلتها إلى

باب المستشفى ، تركتها وأنا غاضب وكانت هى أيضا غاضبة .

رجعت إلى البيت ليلا ، كانت فتينة تجلس فى وسط الصالة على المائدة وقد فرشت أمامها الكراريس . . المرأة العجوز تدمدم بسباب لا ينتهى وفتينة لا ترد .

أسرعت بالدخول إلى حجرتى ، أغلقت على نفسى الباب ، لم يتوقف صوت المرأة العجوز ، بعد مدة أطفأت فتينة النور وذهبت إلى حجرتها .

رأسى فارغ وفى ذهنى تصميم على أن أنفذ كل شئ بسرعة ، أن أنهى هذه الحياة ، وأخرج من هذا الجحيم .

فى الصباح عندما استيقظت كانت فتينة قد خرجت ، بعد أن وضعت أمها العجوز على مقعد فى الشرفة ، رأيت وجه العجوز عاريا . عيناها تحدقان فى لاشئ ، كأن كل ما يحيط بها فراغ ، ظلت تحدق فى وجهى كأنها تريد أن تقول لى كلاما ولكنها كانت تشيح بيديها أمام وجهها كأنها تدفع ذبابا وهميا يغطيها .

غادرت البيت . . لم يبق الا أن أرحل من هنا . . ولكن شيئا ما يشلنى عن الحركة ، يجعلنى اؤجل التصرف ، ربما لكى أرى أكثر . . أو أعذب نفسى أكثر .

يومان لم أر زينب ، لم تسأل هى ، وأنا لم أذهب اليها ، كنت أريد أن أترك الأشياء لكى تهدأ . . وتعود إلى ما كانت عليه .

فى اليوم الثالث – اليوم الأخير – غادرت المحكمة فى الساعة العاشرة صباحا . شئ ما يدفعنى لكى أرى زينب الآن ، قطعت الطريق إلى

المستشفى وأنا لا أرى شيئا .

طلبتها من على الباب وعندما جاءت كان وجهها خجولا كأنها عروس .

قالت لى :

– اسبقنى إلى البيت . سوف آتى بعد قليل .

لم يكن هناك أحد فى البيت سوى المرأة العجوز . العمال الذين يعملون فى الشقة الجديدة لم يحضروا اليوم . العجوز جالسة فى مقعدها فى الشمس . نقلتها إلى الظل . . وأغلقت نوافذ البيت .

صعدت إلى السطح انتظر أن تظهر زينب وسط الحقول . . الأيام الأخيرة التى مرت على دون أن أراها تشعل قلبى وعقلى باضطراب غريب ، أروح وأجئ على السطح كأننى حيوان محبوس .

كان قلبى . . وحياتى كلها معلقة هناك فى وسط هذه الحقول الخالية .

لا أعرف خطواتى بعد ذلك . ولا أعرف كيف أصبحت أقف هنا هكذا . . كأننى مؤذن يعلن أنه كفر . عندما لاحت فى الأفق أسرعت هابطا . فتحت الباب ، كانت العجوز فى الصالة تدور بعينيها وتتعقبنى ، وعندما دخلت زينب أخذتها بين ذراعى . . ولم أجد شيئا أقوله .

تركنا باب الغرفة مفتوحا وقالت لى زينب :

– كنت خائفة . . كنت خائفة منك . كيف يمكن أن نحتمل كل هذا . . لماذا لم تأت أنت . أنك تستطيع أن تفعل أى شئ .

أستلقت زينب على الكنبة الصغيرة فى حجرتى . ورحت أمسح عن جبينها الغضب والاضطراب . أحاول أن أعيد إلى عينيها تلك النظرات التى تبعث

فى نفسى الأمان .

ولكننا كنا غريبين . كأن كلا منا جاء من عالم خاص . كل منا مسجون داخل نفسه . يشده توقعه وخوفه .

قالت :

- يجب أن نخرج من هنا . أن نسافر . أن ندوس معا على أرض جديدة .

أسمع كلامها . أسمع فيه وقعا جديدا . كأنها تريد أن تهرب . . كأننى أنا أريد أن أسمع . . لماذا لا أتصرف . . لماذا لا أقدم على خطوات ترفعنى عن هذه الأرض . . وتعيد إلى ما حلمت يوما بأننى قادر عليه .

الكلمات تنوب . . نغرق معا فى صمتنا . . أبحث عن فرحتى فلا أجدها . . كأن الروح قد ذهبت . أنا أتناول شيئا لا طعم له .

رقدنا وقد هدنا التعب ولم نلق الراحة .

صرخت زينب :

- ما هذه الرائحة . . ؟! نار . .

خرجت أجرى نصف عار . هى أيضا ورائى ، كانت العجوز تزحف خارجة من المطبخ بعد أن أشعلت فيه النار . كانت النار قد أمسكت فى ملابسها . . ولكن وجهها لصق الأرض ضاحك غريب كأنها عادت سنوات إلى الوراء .

تحدق فينا ونحن نجرى فى البيت بلا هدف . . أى شئ من أجل أن

نخرج من هنا . . حملت المرأة العجوز . ودفعت زينب خارجا . . وتركنا البيت يشتعل .

وأنا أضع المرأة العجوز على الأرض خارج البيت ، لمحت زينب تجرى عائدة إلى المستشفى .

بعد ساعات كان كل شئ قد استقر أو انتهى . . المطافئ والبوليس . . وملايين الأسئلة ، عشرات الفلاحين حول البيت . . النار قد خمدت ، وبقى لهيبها فى رأسى ، العجوز نقلوها إلى المستشفى وبقيت وحدى حول البيت . . أدور وانتظر عودة فتينة . . لابد أن الأخبار قد وصلتها فقد جاءت مبكرة . . كنت أستند إلى شجرة عجوز . . قدماى فى الطين ، ووجهى يغطيه الرماد . ألقت بما فى يدها وأخذت تحدق فى وجهى . . ثم صرخت فجأة :

– اذهب . . لا أريد أن أراك . حطمت كل شئ . أذهب ملعونا ، أنا أعرف ماذا حدث . كانت هنا ، هى كانت هنا . . ماذا تريد . . ماذا تريد غير ذلك ؟ .

لم أعد أسمع سوى دوى الكلمات فى الفراغ . ترن حولى وتملأ الدنيا بالانين . البيت أسود . . وجهها غاضب مجنون . . أنا لا أعرف ماذا أريد ؟!

تحرك لسانى دون أن أتكلم ، تحركت قدماى دون أن أتحرك . . التصقت عيناى بأوراق محروقة مبلولة غارقة وسط الماء .

– اذهب . . اذهب . . لا أريد أن أراك .

استدرت مبتعدا جلست هى على الأرض كومة من الأسى والجنون . ثم قامت ورأيتها تدخل إلى اطلال البيت المحروق . لم أخلف ورائى سوى خراب .

* * *

على شاطئ ترعة قريبة جلست . . غسلت وجهى وملأت بطنى بالماء . . استندت على شجرة . وزارنى نوم غريب . . عندما أستيقظت كانت الشمس قد أوشكت على المغيب . . وقبل الليل كنت على باب المستشفى . . أمسكت حديد الباب وأرسلت فى طلب زينب . . أريد أن أستند عليها وأذهب .

وعندما عاد البواب . . حدقت فى وجهه فى ذهول وهو يقول لى أن زينب قد غادرت المستشفى ولن تعود .

«حصان أجوف يدب فى شوارع القاهرة . وقع خطواتى يرن فى داخلى . أحدق ولا أرى . أسمع ولا أفهم . مهاجر جاء من بعيد . جائع . وحيد . طعامى لا يباع . وصداقتى لاتشترى»

وصلت القاهرة قبل العصر . أذرع شوارعها بخطواتى الغريبة . من يرانى ينكرنى . . وأنا لا أعرف أحدا . يتجمع الزحام وينفض . ليس هناك من يريدنى لا بخير ولا بشر . . ليس هناك من يتعقبنى ، أو يبحث عن حقيقتى . عيناى فى عيونهم ، وكتفاى فى اكتافهم . ولكنى بعيد .

هم فى عالم . . وأنا فى عالم . عالمى يتجدد تحت خطواتى التائهة . ليس هناك مكان أقصد اليه . . السرداب بلا نهاية .

فى المقاهى القديمة ، هناك من يعرفنى ، من يحيينى . . أذكر الوجه . قد أذكر الأسم لا أكثر . المشاعر القديمة . كل شئ قديم مات . وليس هناك من جديد .

يحدق فى وجهى صاحب المقهى العجوز النائم . ويرى من خلفى الزحام وساعة الميدان . ويتركنى أسقط على المقعد فى المقهى . صبارة قديمة . . .

الخريف هنا فى وسط الميدان . لا أحد يريد أن يدفن الموتى . وهم يتحركون فى دوائر . . أبحث أنا عن الزوايا والأركان . اختبئ هناك . الزوايا والأركان مهربى الوحيد من القاع . هناك لن يستطيع شخص أن يشير إلى بأصبع الأتهام ويصيح : هذا «شئ» غريب . . هذا «شخص» يدين الحياه .

عندما أدرت ظهرى لفتينه – زوجتى – ورأيتها تدخل إلى أطلال بيتها المحروق . . أحسست أننى أرى شيئا طبيعيا . وأن الحياة تأخذ مجراها . وأننى يجب أن أسير فى طريقى لكى يكتمل المنظر . ولكى يصبح الواقع واقعا للمرة الأولى .

وعندما قالوا لى أن زينب – حبيبتى – قد رحلت ولن تعود أحسست – أيضا – أن شيئا قد انتهى . وأن الحياة تأخذ مجراها . وأن على أن أسير فى طريقى وأن أبدأ فى الحياة مرحلة جديدة .

أتساءل الآن . . وأنا وحدى فى المقهى : هل عشت أنا كل ما مر بى

من أحداث ؟ هل أحببت . أحببت من أذن وكيف ؟ وأين اللحظات . أين تختفى . . وكيف تموت .

بارع أنا . . أم مجرم . . أين أقف من استمرار الحياة . . وهل يحملنى التيار .

أتساءل . . نعم أتساءل . وأجد الوقت لكى أمضغ السؤال أمضغه ويصرفنى عن كل شئ . عن المستقبل . . وعن الماضى وعن كل ما يجب الآن .

* * *

قرب الرابعة . ستبقى الساعة دائماً الرابعة . الرابعة أبد الدهر . النهار لا ينتهى . والليل لا يأتى وأنا معلق بينهما مثل كل الناس .

كأننى وأنا أتحرك فى وسط الحديقة تمثال كبير . . هبط من فوق القاعدة وأخذ يسير بخطوات حديدية فوق الأرض .

ثم ماذا بعد . أجلس على حافة النيل . أذكر ملايين الأشياء الصغيرة . ولكنها تسقط منى فى الموجات اللامعة تحت وهج الشمس . . ويتعلق بصرى بقارب بعيد يختفى فى اللانهاية .

أقوم أتجول فى الجزيرة . أذكر أننى بلا بيت . وبلا نقود وأننى فى مدينة غريبة . كيف تتكشف هذه الحقائق . وكيف تبدو بلا أهمية ، وبلا معنى . أكرر الأسماء التى عرفتها . الأصدقاء . . والمعارف والنساء . . أراجع العناوين القديمة . تلتهم النار التى حرقت بيت فتينة كل شئ . نار لا تنطفئ ، كل مياه النيل لا تطفئ النار . . ولا تغسل الدم الأبيض

الكاذب من فوق يدى .

أريد أن أحدق فى مرآة . أن أراقب وجهى وعينى . أن أحدق فى الارتجافات التى أشعر بها حول شفتى . أردد أسمى . أكاد أصرخ به . وأذكر أياما كنت فيها أكتب أسمى فى السماء .

فى قلب السماء مكان خال كنت أقف فيه كتمثال . القاعدة خالية وأنا التمثال المطرود . أقف تحتها . . وأنا لا أصدق . .

لو أستطيع الآن أن أعرف الحزن . . أو الفرح . كلها أشياء قديمة . وما عندى كتلة غريبة من الابهام . والرفض . من أجل أن أعيش . . أفقد هنا حياتى . ابحث من جديد عن نفسى . كتلة من الأسئلة البدائية . . تجيب عليها صرخات فى داخلى .

وأتحسس طريقى إلى داخل المدينة . . عبر الكوبرى والميدان والغروب يسدل الستار على مسرحية فاشلة بلا نهاية . . وبلا بطل .

* * *

وقفت إلى جوار تليفون فى الطريق أطلب صديقى أنور . طال الأنتظاروأنا أحدق فى وجه صاحب الدكان ، أخيرا جاء صوته كان متعجلا . سمعت فى صوته رنة الفرح بعد أن سمع اسمى . طلب منى أن أحضر حالا إلى مكتبه . وضعت السماعة ودفعت النقود . أتحرك فى الطريق اليه كأننى ذاهب إلى مكان لن أعود منه . هكذا إذن نلتقى . بعد كل ما حدث نلتقى .

وصعدت اليه . كان حوله أصدقاء قدمنى اليهم . بعضهم يعرفنى .

يسألنى أين كنت . يغطينى تراب السفر . والضياع . كلهم يعملون . . لهم رائحــة ذكية . يتحركون فــى حرية . . أراقبهم . دوامة . . لا علاقة لى بهـا . . أنا خـرجت من هذه الحلبـة . . من يصـدق ؟! أعـود إلى هذا المكان وأنور صديقى علـــى المكتب مشغــول أكثر مما مضـــى . سعيد أكثـر مما مـضــى . هـــذه الضحكة الجديدة . . يسألنى بـعينيـه . . فى ماذا أفكر ؟!

- دقـائق . . ونغـــادر هذا المكان . . ليس عندك شئ تفـعله الليلة أليس كذلك ؟

جلست أنا وصديقى فى كازينو على النيل . بيننا زجاجة بيرة . وخيار بارد .

كم أحدق أنا فى الأشياء . أتذوق السائل ، وبرودة الخيار ، أتطلع إلى اللمبات المضاءة فوقنا .

أنه يسألنى :

- ماذا حدث لك . . . أين كنت ؟

هــل أروى له طرائف . أحداثا . تزوجـــت وأحببت . واشتـعل البيت بالنار .

هذه السرعة التى تبدو فى حركاته . هل هى دليل النجاح ؟ ألا يريد أن يفهم ؟ . أختلاف بسيط هو الذى يضع كلا منا على ناحية من المائدة .

هذه اللحظة التى أعيشها الآن أين هى . . ومن سرقها منى ؟

وظل الحصان الأجوف . يحدق داخل نفسه . ويتذوق الصمت .

زهـــر الليمـــون

زهـــــــر الليمـــــون

(١)

أيقظه ضوء التاسعة صباحا . الذى يصبح حادا مزعجا فى الأدوار العليا مـــن العمـارات ، بعـد أن يخـتـرق النوافذ ذات الشـيش الورقى الضعيف .

التاسعة صباح خميس ، اليوم خميس وغـــدا جمعة ، ضوء صيف باتر ، سريع ، يلامس أطراف الأثاث القليل ويملأ فراغ الغرفة الخالية التى يسكنها عبد الخالق المسيرى فوق سطح بيت قديم فى السويس الساكنة .

محنة القيام من الفراش صارت مكررة ، معروفة الدروب والدوائر ، المد والجزر ، الرغبة والخوف من القيام ، والخوف والرغبة فى الرقاد . كل يوم تضاف تفاصيل جديدة . حسب الليلة الماضية واليوم المقبل . صارت الوحدة شرنقة كاملة الغزل ، غطاء سلحفاة عجوز ، الرأس يخرج يرى الضـوء ، يسمع الأصـوات ، يلامس الناس والأشـيـاء ثم تعـود الرقـبـة البيضاء الرخوة إلى داخل غطاء السلحفاة القديم . الوحدة : وحدة عبد الخالق المسيرى الفريدة . وحدة المنفى ، والسجن . وحدة أمام حاضر غامض وعالم بعيد قديم كان .

اليوم خميس وغدا جمعة . اليوم يسافر إلى القاهرة . عادة شهرية غير منتظمة كعادة شهرية لامرأة تقارب سن اليأس ، عندما يسألونه فى

القاهــرة لماذا تأخر ؟ سيقـول : العادة الشـهرية قـاربت الانقطاع . ويقـهقـهون . تغلب على منحة اليوم بالضحك فى سره ونفض الملاءة فى حماس لا يتعدى أرنبة أنفه .

أنا لا أنكش الماضى . هو الذى ينكش نفسه ، هو الوحيد الذى يسكن معـى هنا . هو الوحيـد الذى يدخل معى تحت غطاء السلحفـاة بلا استئذان . تحت الجلد وفى العروق . لم يبتكر أحد بعد طريقة للخلاص من الماضى . فى وجهك وفى أطراف أصابعك . هو الذى ينكش نفسه ويفرض صحبته بلا استئذان .

سينزل من السرير بقدمه اليمنى ، عندما يفعل ذلك يكون لليوم طعم . مزدحم على الأقل ، أما القدم اليسرى فهى تفرض على اليوم الكآبة . عاود الابتسام . وأصلح من بنطلون البيجامة القديم .

وصنع ابريق الشاى وغسل وجهه جيدا بسرسوب الماء الرفيع الذى ينزل بصعوبة .

عاد يسأل نفسه : أى النافذتين أفتح : الكبيرة الغربية التى تطل على السطح ، أم العالية الصغيرة الشرقية التى تطل على الخليج وعلى جبل عتاقة . هو لا يرى المنظر الا عندما يتسلق الكرسى لكى يفتح الشباك . يراه للحظات قصيرة ثم يهبط من على الكرسى فلا يرى شيئا . يظل المنظر فى خياله فقط . لايرى منه سوى الضوء المنعكس على الجبل الداكن .

فتح النافذتين معا ، رغم تكرار المنظر فقد صدمه جمود الجبل

وصمـوده . صـامد ، لونه داكن قـاتم ، مـازال الليل يسكن فـيـه . لابد من عيون حية يقظة لكى تقتحمه وترى تضاريس الصخر والزمان فيه .

نافذة السطح الكبيرة ، تطل على سطح فقير أجرد تنبعث منه رائحة حرارة وغبار . وفى الأطراف مجموعة من صفائح وفخار مات الزرع فيها وجفت العيدان . باب غرفة أم يسرى جارته مغلق ، عليه حدوة حصان كبيرة ، ورسوم ملونة بالطباشير ، وبعد السطح على مدى البصر تربض المدينة ساكنة . أسطح قذرة ونوافذ مغلقة صماء .

عاد إلى غرفته ببصره ، وهو يقول : سأترك اليوم يمر ، سأنزلق على سطحه كما أنزلقت بى أيام كثيرة . فى فمه طعم صابون رخيص ، يتأكد عندما يغيم النظر ، أو يبحث فى رأسه عن معنى مستحيل ، أو يجهد عين خياله بحثا عن منظر قديم لا يريد أن يعود .

فتح باب الغرفة أيضا . فتح كل ما يفتح ، وجلس على المنضدة الصغيرة وسط الحجرة ، تحيط رقبته الفوطة المبللة ، جرى بأصابعه على سطور الجريدة المفرودة على المنضدة وقال لنفسه : كنت أظن أن صمت الجسد علامة الصحة . ليس بى الآن مرض أو مرارة ، ليس عندى لا تمرد أو اعتراض . لا الرأس مثقل ولا الأحشاء منقبضة . ألا يمكن أن يكون صمت الجسد هذا من علامات الموت ؟

أسرع إلى المرآة الصغيرة يمشط شعره ، ويتأكد من وجود ملامحه هو بالتأكيد . دقق النظر . . فقد كانت المرآة مليئة بالبقع السوداء التى لا تزول . الشعر صار ناعما خفيفا لايحتاج إلى تمشيط . من صاحب هذا

الوجـه الخـامـد . هـذا الوجه الجميل القبيح . أين تختفى المشاعر والأفكار ؟ . أليس من الضرورى أن يكون لكل وجه تعبير ؟ ماذا يسكن وراء زجاج هذه العيون العسيلة الطيبة ؟ هى وحدها التى تتحرك : تدور على انعكاس الأثاث القليل فى المرآة . ثم تحدق فى الفراغ والصمت . ولاترى وجه صاحبها . . أنا صاحب هذه العيون واسمى الثلاثى عبد الخالق حسنى المسيرى ، حرك وجهه وأنسحب من أمام المرآة ، وقد عاوده ذلك الابتسام المزمن الغريب .

قالت له ذات صباح : أفتح نوافذك العسلية ، انها تستطيع أن تحتضن الناس والأشياء ، وأغرقت عيونه بالقبل .

مع طعم الشاى الساخن الحاد الذى يجيد صنعه ، زال الطعم الغريب الـذى يملأ فمه واستيقظت أطرافه . سمع خطوات أم يسرى تصعد السلم ، فكسا صدره العارى بالقميص الأبيض النظيف ، مازال يحب رائحة الملابس النظيفة ، وتقتله رائحة العرق . سبقت أم يسرى رائحة خبزها الطازج الذى تجلبه كل يوم من أطراف السوق . دقت على الباب بكف يدها ، وانداح صوتها الطيب يلم أشلاء الصباح ، وهى تقول :

– صباح الخير ياسى عبد الخالق .

غمغم بردود كثيرة . وكأن صوته قادم من مكان بعيد . لم يعد يستطيع أن يخرج من لحظاته الخاصة بسرعة . فيخرج منه الكلام فى البداية مجرد أصوات تحمل الايقاع والشعور . تعود الناس منه هذا ، وصاروا يفهمون ما يريد أن يقول . استمرت أم يسرى تعلق على الحر والرطوبة .

والسلم الملعون ، واختفاء السمك والخضار ، والزحام وهو يشرب الشاى ويردد اتفضلى . . ادخلى . . اقعدى . وضعت شنطتها البلاستيك على الأرض ، وأخرجـــت رغيفين فاخرين كعادتها معه عندما تذهب إلى السوق . .

قال :

– دايما عامر . . أنا نازل مصر النهارده .

أعادت الخبز إلى الشنطة ، وتأملته وتأملت الغرفة فى محبة وود وقالت :

– بالسلامة . . متنساش تقفل المحبس .

وتنهدت منصرفة وهـــى ماتزال تتكلم ، أحس فجـأة بالندم . لم لـم يأخـــذ العيش ؟ لم لم يستبقها لحـديث أطول . . ولماذا يسافــر على أية حال ؟

كانت الغرفة قد بدأت تمتلئ بذباب الصباح البليد ، فقام يغلق النوافذ ويكمل ارتداء ملابسه . وفى عتمة الغرفة التى جلبها اغلاق النوافذ ، راح يعيد ترتيب الكتب القليلة المتناثرة ، وكأنه يطمئن عليها . دواوين الشعر العربى القديم وروايات مترجمة ، وكتب قليلة أهداها اليه الزوار ، وبعض الأصدقاء القدامى .

وقف أمام صورته الكاريكاتيرية التى رسمها له زميل قديم وهو يمسك فى يده سيفا خشبيا وعلى كتفه مخلة من قماش ملون ، ثم قرأ للمرة الألف الكلمات . التى كتبها صديق سكر عنده فى ليلة بعيدة ، كتب بقطعة من الفحم إلى جوار النافذة : إنما الناس سطور كتبت لكن بماء .

(٢)

أخذ عبد الخالق المسيرى يؤكد لنفسه أنه ذاهب إلى القاهرة فى فسحة وأنه ليس مستدعى لتحقيق ولا يساق إلى سجن أو اعتقال . ولكن شعورا ثقيلا لم يكن يفارق قلبه . خليط غريب من الخوف والانقباض ، لم يعد يجدى معه محاولة السخرية أو التفكه .

عندما جاء إلى السويس منذ أربع سنوات لكى يعمل موظفا فى قصر الثقافة كان هناك حلم غائم بأنه سيجد فى هذه الوحدة نفسه ، وأنه سوف يلم تلك الفوضى التى صارت اليها حياته ، لم يكن يحلم بتغيير كبير أو بأعمال عظيمة ، ولكنه كان يقول : إن قطع علاقاته بالقاهرة سوف يجعله يرى الأمور بشكل مختلف ، وأنه على الأقل يصبح قادرا على التعايش مع الواقع الجديد . . والأهم أنه سيصبح قادرا على تنظيم علاقاته بالماضى .

مرت السنوات الأربع كأنها ساعات مكسورة ، زمن متناثر موزع ، لم يكن هناك عمل يذكر فى القصر ، وأن وجد فهو شكلى ، وموسمى ، وسخيف . وهو غالبا مستبعد من اللقاءات والمناسبات لأن ماضيه الشيوعى يطارده . أو هو على الأقل يتصور ويريد ذلك . ليس هناك علاقة بين تلك الحفلات السخيفة الصاخبة ، وبين حلم العمل مع الناس ومن أجلهم . ذلك الافتراض الجهنمى الذى يطارده فى الواقع وفى الأحلام .

تغير الرؤساء والزملاء فى العمل واستقر هو فى المكتبة بلا زملاء ولا كتب ولا رواد . قاعة فى نهاية ممر طويل ، مفتوحة النوافذ ، يتناول فيها

الشاى ثلاث مرات فى النهار ، ويقرأ الثلاث جرائد ، يراجع الثلاثة دفاتر ، ويرتب الثلاثة كتب . جاء من يريد أن يقرأ ، وذهب لأنه غير هوايته . أو لأنه لم يجد ما يقرأه .

جاء له رجال المباحث والمخبرون وذهبوا لأنهم لم يجدوا عنده ما يخبرونه عنه ، جاء الراغبون فى الصداقة والحديث ، ولكنهم وجدوا أن روحه قد جفت ، وجدوا أن الملل يغطيه كما يغطى التراب رفوف كتبه وأوراقه القديمة .

فكر أن يكتب أسمه على خشبة هرمية – كما يصنع الموظفون – ويضعها على مكتبه ، ويكتب على الناحية الأخرى «امكانية مهدرة ووقت ضائع» ، يقلب فى خياله الهرم الخشبى ويواجه أسمه ثم يواجه شعار المرحلة . يقوم ليطل على الخرابة المليئة بالزبالة المجاورة للقصر .

خلال السنوات الأربع لم يخفت حضور القاهرة فى حياته . غول يأكل الأيام ليس شوقا اليها ؟ وليس حبا فى نهارها أو ليلها أو ناسها الذين كانوا . ولكن كأنها جملة ناقصة لم تكتمل كلماتها . لاهى اتسقت ، ولا هى أفصحت عن معنى . وحش يسد الحلق .

يحب السويس ، فقط لو أبعدوه عن الميدان ، ومبنى المحافظة والقصر : لو أبعدوا عنه البوتيكات الجديدة والميكروفونات ، والمجمعات السكنية التى خربت قبل أن يسكنها الناس .

يحب السويس لو أعادوا لها معناها ، اتساق «الكبانون» مع البيوت القديمة ، والكازينو الخشبى البعيد .

يحب السويس لو عادت الفراندة الكبيرة التى تطل على الخليج . والشاعر أمل دنقل فى الليل يروى شعره فى ظلام الفراندة ، وجهه مثل جبل عتاقة وقامته مثل حبال السفن . لو أعادوا الناس كما كانوا بدون القمصان الملونة ، والأكمام المشمورة ، والشعر الملصوق والبنطلون المحزق والمشية المخلعة .

يحب سمك الادراج والسرنباق ، والطحينة المحوجة والسمسمية والرجال والبحر قبل أن يلوثه التهجير والأكاذيب والآمال المحبطة .

يحب الشوارع كلها قبل أن تنهشها فئران القذارة واللصوص الجدد .

يحب المد والجزر فى القمر تحت جبل عتاقة فى ليال ذهبت ولن تعود .

يحب الأربعين ، والحلقة ، وسيدى الغريب وكراسى المقهى المدهونة باللون الأخضر .

عندما دخل مع صديقه أحمد صالح إلى مبنى وزارة الثقافة لكى يقابل الدكتور محمود فهمى ، كان يغالب شعورا بالغثيان لم تفلح فى دفعه السخرية السوداء التى يلقيها أحمد صالح على كل شئ .

أحمد صالح رفيق قديم ، هو الآن صاحب ورشة صياغة فى الأزهر ، تغلب على تناقضات كثيرة ، وزرع نفسه فى أرض جديدة لم يبق ما يربطه بالماضى سوى أحاديث الليل المطولة المكررة فى السياسة وفى تحولات الناس ، يعرف الجميع من أدعى ومن خان ، ومن أنكر واستنكر ، ومن تمسك بالأوهام ومن ضاع ، فى نفس أحمد صالح صفاء غريب ، وفى يده مهارة وفى قلبه سماح .

ولأن للدكتور محمود فهمى ذوقا خاصا فى الفضة ، فإن علاقته مع أحمد صالح صارت أكثر من حميمة ، يحمل له أحمد أطقما جديدة ، ويعثر له على قطع قديمة نادرة ، ويطلى للمدام القطع القديمة ، ويصلح ما أنكسر منها ، يراه فى البيت وفى الورشة ، والتليفونات بينهما لا تنقطع : «لذلك يا أخى هو لا يرفض لى طلبا . . بل هو يتمنى . لذلك يا أخى لا تكن قفلا . . أرجوك ، ثم من يدرى قد ينقل من منصبه هذا غدا . . والمهم أنه يعرفك» .

ولأن أحمد صالح بارع ، وله حضور سمح ومريح ، فقد كان اللقاء أسهل مما تصور . انشغل أحمد بشرب القهوة . ثم فى تأمل قطع الفضة ، الأطباق والميداليات التى تملأ المكتب الكبير . قام الدكتور محمود ، وضع يده على كتف عبد الخالق وسحبه بعيدا إلى النافذة العريضة وقال :

– اجراءات الأمن ووزارة الداخلية ، أنا سأتولى انهاءها مع الوزير مباشرة ، مثل هذه الأشياء يجب أن تأتى من فوق ، حتى لايعقدها الصغار ، بقى ياسيدى أن تختار : الاسكندرية زحمة ، والصعيد بعيد عليك . . مارأيك فى السويس ؟ .

تدخل أحمد ، فقد كان الدكتور قد رفع صوته فى الجزء الأخير من الحديث قال :

– عين العقل ، الله يبارك فيك . . وعبد الخالق عاشق قديم للسويس .

– على بركة الله . . بعد أسبوع تستلم .

تغير كل شئ فجأة ، وفى بساطة ، وحمل صالح معه بعض الميداليات والكئوس الفضية التى فازت بها الوزارة لكى يعيد طلاءها فى الورشة .

فى الخارج ، ضرب عبد الخالق فى صدره وقال :

– عشان تعرف . . أنا أسمى أحمد صالح صانع المعجزات .

وابتسم عبد الخالق فى امتنان ودهشة .

(٢)

أنت يا حبيبى مركز الكون والوجود . كل شئ معك سعيد وممتع ، حتى ولو كان مراقبة عمال يرصفون الطريق .

أريد أن أعيش معك فى قارب صيد ، غليظ المجداف والخشب ، نركن تحت الكبارى ، وندخل ليلا إلى القرى الصغيرة .

أريد أن أغسل ثيابك . . أنت لاتعرف كيف أجيد الغسيل . . وأنت هل تجيد الصيد والتجديف ؟

الساعة تقترب من العاشرة ، عليه أن يغادر السويس قبل الظهر ، حتى يصل إلى القاهرة قبل العصر ، فيجدهم جميعا فى الخمارة مجتمعين . عليه قبل ذلك أن يحصل على قطة حشيش جيدة ورخيصة حتى يفرحوا بما جلب لهم من السويس .

تجنب الشوارع الرئيسية حتى لا يلتقى بواحد من الموظفين المتنطعين فيسألونه ويجيبهم بأدبه الذى ضاقوا به ، وضاق هو به قبلهم .

لا يريد أن يعرف أين كان مدير القصر أمس ، ولا ماذا فعل . لايريد

أن يعرف من جاء من مصر إلى المحافظة أمس ، ولا عن ماذا يسأل ؟ .

يريد أن يتجنب الشوارع ذات الأرصفة المدهونة حجر أبيض وحجر أسود . يريد أن يتجنب الشعارات المكتوبة على سلال القمامة الفارغة . واشارات المرور التى لايتبعها أحد .

سلك طريقا خلفيا يدور حول المدينة القديمة ويخرج به إلى شارع ترابى يحده مرتفع مزروع بغابة من التين الشوكى العجوز ، تكسوه ستائر من العنكبوت والتراب ، يمتد الشارع حتى يخرج من المدينة ، وعلى جانبه الآخر حقول حرقت حوافها أتربة الطريق السريع ، وشكمانات عربات النقل .

سار فى الطريق الترابى مسرعا تثير أقدامه خلفه ترابا . حرارة الشمس المتزايدة ، وأشباح العابرين تخلق حوله زمانا ومكانا معلقين على ذرات غبار تخترقهم شمس ضحى بليد .

– أنا الضابط فتحى فرج ، سوف أشوى جلودكم . . وأبدلكم بعدها جلودا جديدة . وأنت . . أنت يا ابن البغى . . اخلع ثيابك كلها . . كلها .

كان الضابط سمينا قصيرا يلمع نحاس بدلته تحت الشمس ، وعيونه فتحات سوداء لامعة .

يدفع عبد الخالق عن نفسه ذكرى سنوات الاعتقال بترديد أغنية قديمة كان يرددها له صديق . . صار اللحن بلا طعم . . والذكرى تزداد وحشية ووضوحا .

اذهبى عنى يا أشباح . يا سنوات من هباء . . أصعدى واستقرى

هناك ، وسط أدغال التين الشوكى . اخلطى دماء الشيوعى القديم بستائر العنكبوت . أو ادفعى فى حلقى بزهرة التين الحمراء ، أو بثمرة التين ذات الشوك نفسها ، فقط لاتتركينى أسيرا ، أنهش نفسى بالنكش والتقليب .

سقط غبار الطريق تدريجيا ، وأسلمته رطوبة الطريق الترابى إلى الأسفلت فدخل إلى المقهى الندى ، الذى تغطيه تكعيبة عنب . وسأل عن تاجر الحشيش فقالوا : انه لم يحضر بعد فجلس يشرب شايا رديئا . . وينتظره فى قلق .

(٤)

فى المقاهى وغرز الحشيش يشعر عبد الخالق بمزيج من القلق والفرح الطفولى ، هنا عالم خارج على القانون ، بعيد عن القواعد المرعية ، مضاد للعجلة الدائرة والتيار المندفع .

لم يعد الجلسات ممتعة كما كانت . هو ليس مدمنا على التعاطى ، أو حشاشا لكنه يقتل الفراغ ويتفرج ، هناك تراث قديم فى نفسه ضد الحشيش وتعاطيه . كانوا يقولون : أسكر لو أردت . . ولكن اياك والحشيش فهو أقصر الطرق للقضاء على الثورية ، للقضاء على إية رغبة فى التغيير .

هو لايتحدى التراث القديم ولا يناقشه ، لكن الأشياء تداخلت وفقد الكلام معناه . هو لايصنع شيئا ، لايقوم بأى عمل ، فلماذا يذكر هذه الأفكار القديمة ؟

فـــــى وقت من الأوقات كانت هذه المقاهى الصغيرة عالما مستقرا راسخا ، تصب فيه المدن ما تحتويه من قصص وأساطير ، لكل مقهى طابع يرتبط بجزء من الواقع الحقيقى الذى عاش يتكلم عنه ولم يدخله .

مقاهى القاهرة : الأزهر ، والحسين والجمالية ومعروف ، هى الأصل ، مؤسسات راسخة ترتبط بالتاريخ والتقاليد القديمة ، أما ما عرفه من مقاهى الأقاليم فكلها مقامة على الطريق السريع .

لم يعد لهذه الأماكن سحرها القديم ، لقد هاجمها الزبون الجديد قبل أن يهاجمها أو يهدها البوليس . الزبون الجديد قلب الغرز إلى بوتيكات . كان يحب مقهى قديما فى حى الأربعين ، وعندما زاره أخيرا ، وجد على المدخل فترينة تقدم سندويتشات الكبده ، فتختلط رائحة زيت القلى برائحة الدخان العبقة .

وعندما سأل الساقى قال : كله أكل عيش يا أستاذ ، الحشيش بيجوع ، والحلو بقى غالى . غادر المقهى وكأنه فقد صديقا ، فقد كان ظلامها الرطب الهادئ الممتد إلى الداخل يحتويه فى فترات العصر ، ويبدو الشارع من الفتحة المضيئة البعيدة : كأنه عالم صامت لا شأن له به .

كانت بعض هذه الأماكن تحمل له معنى خاصا من السلام ، لم يعرفه منذ الطفولة ، خاصة عندما يجلس وحيدا ، ويشرب على مهل ، خمسة كراسى أو عشرة ثم يتلوها بكوب من الشاى ليخرج بعدها فيجد أن المدينة قد وقعت معه صلحا منفردا وصارت كل حروبها لاتعنيه .

صار الحشيش هو الآخر غالى الثمن محفوفا بالمخاطر ، رديئا لاطعم

له يسبب له صداعا وغثيانا ، ولولا صديقه فتحى نور الدين الذى يسأله فى كل زيارة عن حشيش السويس لما فكر أن يجلس هنا ينتظر المعلم صابر الذى يبيع فى هذا المقهى قطعا صغيرة من الحشيش الملفوف فى عناية ، حشيش منظره خادع ولكن نوعه ردئ . ليس فيه من الحشيش سوى الأسم وبعض الرائحة . سأل عن المعلم مرة أخرى فى قلق فقال له الصبى وهو يبدل بكوب الشاى كوبا آخر : المعلم على وصول . . حالا يا أستاذ .

كانت أمه سمينة بيضاء ، تتحرك من الصباح الباكر بنشاط فى بيتهم الكبير ذى النوافذ والأبواب الكثيرة المفتوحة ، تسوق الخادمة سعدية أمامها لكى تقلب البيت وتمسحه كل صباح .

كانت سعدية سمراء تكبره بسنة أو سنتين . لم تكن سعدية تكف طوال النهار عن العمل ، أو الخروج إلى السوق ، أو اختلاس لحظات قليلة لكى تلعب معه فى الطين ، أو تتركه يتحسس جسدها ، حتى تنادى عليها سيدتها وتلكمها فى جسدها المدكوك الأسمر ، فتبكى سعدية بصوت عال ، ثم تضحك ، وتعاود الجرى هنا وهناك ، حتى تستلقى فى آخر النهار على فرشتها القذرة إلى جوار باب المطبخ . أما أمه فقد كانت تستحم فى العصر وتبدل ثيابها ، ومنديل رأسها وتفوح منها رائحة خاصة تملأ البيت كله .

كان فى الثالثة عشرة عندما أختلس من كيس النقود الذى تتركه أمه فى الصالة خمسين قرشا . كانوا فى أجازة الصيف والأيام فارغة

طويلة ، وأصدقاؤه يذهبون إلى السينما ويفعلون أشياء كثيرة ، ولم يكن هو يحصل من أهله على أية نقود . كانت الورقة أم خمسين قرشا مطوية فى عناية فى أسفل الكيس ، ولم يكن يعتقد أن أمه سوف تكتشف ضياعها بسرعة .

أخذها حوالى الثالثة ظهرا ، والبيت نائم ، وخرج لكى يمضى مع أصدقائه وقتا ممتعا طويلا أخفى ما تبقى من قطع معدنية فى الحذاء وعاد إلى البيت حوالى العاشرة .

عرف أن أمه ضربت سعدية حتى سال منها الدم ، وأن البنت طفشت بعد أن أقسمت أنها لا تعرف شيئا عن النقود وأنها لن تعود أبدا ، وانهم لن يعرفوا لها مكانا .

قال هو أنه يعرف أين ذهبت ، وأنه سيذهب لاحضارها ، فهناك نجار فى السوق كانت تتكلم معه كثيرا ، ويقول لها : انه من بلد قريب من بلدهم . فقالوا له أذهب ولا تعد من غيرها .

لم يصدق أنه خرج مرة أخرى إلى الشارع ، فى الظلام ألقى بالقطع المعدنية بعيدا ، وظل يجرى حتى وصل إلى الدكان . قالوا له حمدى النجار أخذ البنت إلى بيته . هناك وجدها منكوشة الشعر ، مكومة على الأرض تبكى ، ألقى بنفسه عليها وأخذ يضمها اليها ، ويقبل رأسها وحمدى النجار يقول : «حرام عليكم يا ناس . . البنت أمانة عندكم ، حد يعمل كده فى أولاد الناس . . أفرض الفلوس ضاعت أو وقعت أو تكون الست صرفتهم وناسية» .

عادوا هم الثلاثة فى موكب حزين . كان يشعر بسعدية تسير خلفه ، ودقات قلبه تصم أذنيه . لم يكن يستطيع أن ينظر اليها ، وهى تبكى بكاء غريبا ، ليس كذلك البكاء الذى يعقبه ضحك . . كان الطريق طويلا ، وحمدى النجار يقول بين الحين والآخر : «ليه كده بس ، ده انتو ناس طيبين ، وأبوك راجل طيب وأمير» .

وجدوا البيت مضاء ، وجميع من فيه ينتظر .

استقبلت أمه سعدية وأخذتها فى صدرها وهى تقول : «خلاص يا بنت أمشى استحمى ونامى فى فرشتك ، خلاص ، قلنا خلاص ، هو أنا مش زى أمك» .

تكلم أبوه مع النجار قليلا ، ثم صرفه والرجل يدعو له ، وللست الكبيرة ويقول : احنا كلنا خدامينكم ربنا يبارك لك فى الأولاد ، البنت دى أمانة . أحسن بنت فى شغالات الحتة كلها ، والله كده يا سعادة البيه ، دى بتحب البيه الصغير زى أخوها» .

ظل هو يدور فى الصالة ، وهو يسمع نشيج سعدية ، قامت أمه لكى تضع بعض الطعام لسعدية فى طبق وتطمئن أنها نامت فى فرشتها .

قالت أمه لأبيه فى آخر الليل : «فلوس ولا مش فلوس . . البنت كبرت ، وأنا ماعتش عاوزاها فى البيت ، لازم تسافر البلد» .

بعد أن رحلت سعدية ، أصابته حمى شديدة كان يخاف أن تفشى الحمى والحرارة سره . كان يمسك بحديد السرير ويضغط على أسنانه ويبكى ، وأخته إلى جواره تبدل الفوطة المبلولة على جبهته التى تحترق ،

وقد استحالت الغرفة وكل ما فيها إلى قطعة واحدة من رخام صامت .

عندما دخل المعلم صابر إلى المقهى دب فى المكان نشاط مفاجئ ، كان يرتدى جلبابا أبيض نظيفا ، ويتحرك فى ثقة واطمئنان .

وضع فى يده قطعة الحشيش وقال : «دى حاجة جديدة . . حلوه عشانك أنت والحبايب» .

ابتسم له غير مصدق ، وأسرع منصرفا من المقهى ، والحشيش مازال فى يده .

(٥)

موقف الأتوبيس والتاكسيات : هذا هو الجنون بعينه . أربعة أو خمسة من أجهزة التسجيل تندلع زاعقة من الرصيف ، أو من محلات العصير ، بعضها يردد القرآن بأصوات عالية غريبة ، واحد يصيح بمدائح صعيدية غير مفهومة ، وامرأة تصرخ فى غنج ملتهب على راجلها الذى سافر ولم يرسل خطابات .

وقف إلى جوار أقفاص فاكهة رديئة عليها أثمان غالية ، وكاد الرجل ومساعده أن يدفعاه دفعا إلى قفص من العنب المشوه القبيح . كانت النسوة المحجبات يسرعن فى ملابسهن الطويلة ، أجسادهن محشوة رخوة تهتز ، وهن يسرعن خلف رجالهن المتجهمين يتدافعون بحثا عن مكان خال فى تاكسى ، أو تذكرة متبقية رخيصة فى أتوبيس مزدحم .

أرض الموقف قذرة ، وصناديق زجاجات المشروبات مرصوصة عالية ،

كأنها متاريس حرب ستقوم فى أية لحظة ، ورائحة الأطعمة نفاذه رديئة ، ولكن الأفواه حول العربات تأكل ، وتلقى بالبقايا تحت الأقدام ، وصبية يغسلون الأطباق البلاستيك والصاج فى جرادل من الماء القذر .

من أطلق كل هذه الغيلان ، وماذا تريد ؟

كاد يتشاجر مع بائع الفاكهة الذى يلح عليه ، وصاح فى وجهه : «مش عاوز يا أخى . . مش عاوز» ، استدار الرجل عنه وكأنه لم يسمع ، وعاد يصرخ على بضاعته بصوت قبيح .

أخذ يبحث فى وسط الفوضى عن سائق تاكسى يعرفه ، حتى يضمن الجلوس إلى جواره ، الا أن الوجوه كلها جديدة متعجلة ، فاليوم خميس وغدا جمعة ، وهناك فرصة لزيادة الأجرة أو لسائقين أغراب عن الموقف .

أحس بيد تشد بنطلونه ، لمح شحاذا أسود يزحف على الأرض وقد التوت سيقانه تحته ، يشد بنطلونه وينادى عليه بكلام غير مفهوم ، أحس بحرارة لاهبة تندلع فى جسده ، وقفز هاربا من مكانه .

كان الضابط السمين الأبيض واقفا فوق رأسه ، وهو منبطح على وجهه فى الرمل الساخن يلكزه بالحذاء فى ضلوعه ، قال له :

– ابتلع هذا التراب ، حتى لا أسمع صوتك ، كل حتى لا أسد به حلقك ، إلى جوار الضابط ، اثنان من العكسر ، فى أيديهم كرابيج سودانية مدلاة ، أمامه صف طويل من زملائه ، وقد انبطحوا على وجوههم يزحفون .

– يا عبد الخالق . . ياسى عبد الخالق . رد علينا يا أخى . أنت مش

نازل مصر .

كان الصوت المعدنى الصارخ هو صوت مصطفى الكردى ، زميله المعار للعمل فى السعودية منذ ثلاث سنوات . . قبض على ذراعه وسار به مبتعدا عن مركز الفوضى . . لم يكن يشعر بالأشياء حوله وهو يخترق الزحام فى ثقة واقتدار ، وقد أسلم عبد الخالق له قياد نفسه . .

تغير مصطفى الكردى ، صار لونه أبيض ، وأختفت البثور والخروم التى كانت تملأ وجهه وذقنه . . صار وجهه ناعما يطفح بالنعمة ، وتبدو عليه آثار الطعام الجيد والمعلبات ، والعصائر والفيتامينات . قميصه ملون واسع ، والبنطلون يلمع فى الشمس ، وفى يده حقيبة بنية جلدية كبيرة كأنها خزانة متنقلة .

سمع عنه حكايات كثيرة : سمع أنه اشترى شقتين بواسطة كبيرة فى المحافظة ، للبنتين اللتين يعدهما معا لزواج قريب . وسمع عن الهدايا التى يحضرها من السعودية ، كما سمع أيضا أنه إلى جانب ذلك كله سوف ينشر مجموعة قصص على حسابه ، قصص كتبها فى السعودية .

كان التاكسى «البيجو» ينتظرهم خارج الموقف وقد احتلت الكنبة الوسطى زوجته وابنتاه ، وفى المؤخرة شابان بلا ملامح يرتديان بدلا كاملة ويتصببان عرقا . النسوة الثلاث كن يرتدين غطاء رأس وردى اللون ، وفساتين طويلة ملونة وقد صبغن وجوههن بطريقة واحدة ، وقطع من الذهب تلمع على الصدر وتتدلى من الأذنين . قدمه مصطفى فى حماس قائلا :

- زميلنا الأستاذ عبد الخالق المسيرى ، شاعر وفنان كبير ، زميلنا في قصر الثقافة . .

حيا الجميع ، وغمغم بكلام لم يسمعه أحد . وانحشر بين السائق ومصطفى الكردى الذى جلس وقد وضع يده خلفه ، وأدار نصف جسده لكى يواجه أسرته التى تحوم فوقها سعادة ورضا خانقان .

لم يعط مصطفى الكردى فرصة لأحد لكى يتحدث ، هو الذى يتكلم فقط . أنه يرى أن البلد فى أحسن حال . العمارات الجديدة والمبانى فى كل مكان والناس أحوالهم عال . ما ينقص البلد هو بعض الحرية والتجارة والأعمال ، والقضاء على الروتين ، وميراث التخلف والفقر ، وآثار سنوات الارتباك والعك . إننا لم نعرف بعد كيف نستفيد من علاقتنا مع أمريكا والغرب . الموانى مثلا مازالت متأخرة جدا . شئ لايقارن بموانى السعودية والخليج . ثم استدار إلى عبد الخالق وقال فى ود مصطنع :

- وأنت يا عبد الخالق ، أحوالك عامله ايه ، مافيش حاجة جديدة ؟ أخرج يا أخى بقى من الشرنقة بتاعتك دى . سافر ، أو أتحرك شوية . حرام عليك العمر بيضيع . وأنت راجل كلك مواهب .

ابتسم عبد الخالق ابتسامة لا معنى لها ، ولم يستطع مصطفى أن يستمر فى هذا الحديث فبدأ يحكى له عن سبب سفرهم إلى القاهرة .

هناك أشياء كثيرة تريد البنات شراءها من مصر أنت عارف دلع البنات ، مع أن مافيش أى حاجة ناقصة ، كل حاجة جايبنهالهم من السعودية ، بدل الطقم الواحد طقمين وثلاثة . وأمهم مطوعاهم فاكرين

أبوهم قاعد على بنك . عـــارف يا عبد الخالق يوم الغربة يساوى آلاف . لكن حنعمل ايه . .

أحس عبـد الخـالق انه أخطأ بأن ترك نفسـه ينزلق إلى هـذا المطب . ذهنه مـجـهـد ، وحـديث مـصطفى ، وجـوده كله لايثـيـر عنده أية رغبـة فى التعليق . كل شئ كاذب ومصطنع ، والشـابان الصامـتان اللذان يجلسان فى الخلف يجسدان له مصيدة النقود الجهنمية التى يقع فيها الجميع .

القروش القليلة التى فى جيبه حصن حصين . لايريد شيئا من كل هذه الأشـيـاء التى يتكلمـون عنهـا . عليـهم أن يتـعلمـوا ألا يتكلمـوا فى أشـيـاء لاتخصـهم . مالهم ومـال البلد . مالهم ومـال الناس ، أو المعانى أو القصص أو الأشـعـار . لـم لايتكلمـون فـقط عن نقـودهـم ودولاراتهم . لـم لا يخـرج مصطفى من حقيبته الآلة الحاسبة ويعكف عليها طارحا وجامعا وضاربا . ويتـركه فى حـاله يراقب الصـحـراء . ويتـمـتع بانطلاق السـيـارة وبحـركـات السائق الواثقة . كان السائق نوبيا لطيفا صامتا . لم يتكلم وكان شاهدا .

ويبدو أن مـصطفى الكردى قد أحس هو الآخر بأنه تورط عندما حشر هذا البائس الفقير معهم فى العربة ، فاستدار إلى زوجته وأخذ يهمس لها بحديث خاص هو لب الموضوع والحياة . أغلق عبد الخـالق عينيه . وسـأل نفسـه : أين ذهب الحب ، والود الصـادق «أين ذهبت الأفـراح» واسـتـسلم للنسمات الساخنة التى تهب عليهم من الصحراء .

بعـد أن خـرج من المعـتـقل بعـام أو يزيد ، ودخل إلى جنة عـرضـهـا السماوات والأرض . . عثر عليها فى شـوارع القاهـرة . . هى التى عثرت

عليه . . منى المصرى . . منى فقط . كم ردد اسمها فى الليل لكى يغسل به أحزان روحه . منى وكفى . . راحت تدخل إلى حياته كما تلبس يد رقيقة قفازا ناعما . .

عندما كان يدق باب شقة صديقتها الأجنبية التى تنتظره عندها ، كانت تردد اسمه فى شوق وفرح ، كأنها تلقاه مصادفة فى عالم غريب وتقوده إلى غرفتهم الصغيرة ، وتغلق الباب . سر النسيج السحرى الذى يدمج اللحظات والساعات مبذول متاح .

كان له كرسى قديم يطل على النافذة الطويلة ، يسكن إلى الكرسى وجسده يرتاح . لم تكن تضئ النور ، يراقبان معا دخول الظلام مع موسيقى موزار . نغم موزار يسحب روحه ويداه فى شعرها فى جسدها ، فى قلبه موسيقى وعلى شفتيها تضئ نجوم . ما أجمل السكون بعد العاصفة ، يحترقان معا لساعة ، ثم يحل صفاء غريب . . هل لهذا الذى كان اسما . وكيف تكون الحياة بدونه . . سؤال لم يعرف له جوابا . .

كانت الاسكندرية مغسولة فى الشتاء بماء المطر ، والمقهى الذى يسكنون اليه أكثر النهار خاليا الا من بعض اليونانيين العجائز والعشاق . يراقب تحت ضوء الشمس زغبا أصفر ناعما على ذراعها الممتدة نحوه على المنضدة ، قلب كفها ، ودار بأصابعه مع خيوط الكف وهو يحدق فى عينيها قالت :

– أنت لن تعرف أبدا . جئنا إلى الاسكندرية لكى أخبرك ، انتهت اجراءات الهجرة بالنسبة لأخى وديع . أمضينا أنا وهو ليلة صاخبة

أمس . . انتصرت ووافق على كل شئ ، سنتزوج اليوم . . أو غدا ، أو متى تريد . سيترك لنا شقته . وديع الآن يتحدث مع أبى وأمى وأنا الآن صرت لك . .

هم بالحديث ، لكنها سحبت يدها ، ولامست عيونه وشفتيه . .

إنتبه على صوت الكردى المعدنى يقول :

– نمت ياعم ، يابختك . . لابنت ولا ولد . . احنا حننزل وسط البلد . . التاكسى يركن فى أى حتة . . واحنا نقضى المشاوير . ونتغدى ، ونرجع الليلة إن شاء الله . تحب تنزل فين :

– أى حتة فى وسط البلد . . أى حتة .

– لازم تيجى . . لازم أشوفك ، بلاش الهروب الدائم ده . عاوز آخذ رأيك فى القصص الجديدة .

فى أول اشارة مرور ، شكر السائق والكردى ، ودع الجميع : سلام . . سلام . ونزل مسرعا يخبط بالجريدة المطوية ترابا وهميا يغطى جسده كله واندس فى سيل الزحام .

(٦)

هى القاهرة . لم يغادرها . هى لم تغادره . هى الجلد والعظم والنخاع . هى الصليب والذكرى الأبدية . مدينة المدن . متوحشة وجميلة ، فى هوائها حرية وفى ضوئها قدرة واقتدار . من يسكنها عظيم ومن يغادرها منفى مسكين . لا يقدر أن يغيرها أحد .

نفض عن نفسه هم الوحدة . واستقبل الناس والزحام بحب كاد أن ينساه .

أخرج الجنيهات العشرة الجديدة التى يحتفظ بهافى جلدة البطاقة ودخل إلى محل بقالة كبير . اشترى قطعة من الجبن الأبيض الفاخر ، وزيتون أسود . وبحث حتى وجد عيش شامى ، ناشف ، منى كانت تحب الجبن الأبيض والزيتون . ولم تكن تأكل سوى العيش الشامى الناشف .

لامس أحجار المبانى القديمة التى تقوده إلى «بار الأمراء ، وشعر بسعادة معتقة قديمة . وكأن شيئا لم يحدث . مازلت أعيش . مازلت أعيش يا فرحتى . أعيش كما تعيش تلك الحجارة ، وقباب المبانى القديمة . مازلت أعبر تحت البواكى العالية . وأرى محلات الزهور القليلة وأراقب الماء ينساب على الزجاج .

تصادم فى فتيات صغيرات مرحات . وأحب صخب بعض الفتيان وضحكاتهم العالية المنطلقة . وقبض على لفة الطعام الصغيرة فى يده ، وألقى بالجريدة - المتسخة فى سلة المهملات وقال : اليوم الخميس وغدا جمعة . سأسمع أطنانا وأطنانا من القصص والأكاذيب ، يا فرحتى مازلت حيا . .

(٧)

عندما ترتفع عن روح عبد الخالق المسيرى . لسبب أو لآخر ، أستار الكآبة فإنه يشعر بنوع من النشاط يمر فى جسده كله كأن شيئا لم يحدث

بعد . أو كأن الأشياء فى بدايتها مدهشة وجديدة .

يفكر فى مشروعات متتالية . وسعادات صغيرة . بل وأحيانا فى مطالع قصائد أو أشطر من أبيات الشعر .

دخل إلى «بار الأمراء» والساعة قد جاوزت الثانية بقليل ، كان المكان هادئ الاضاءة ونظيفا ، يمتد بطول عمارة قديمة ، وقد رصت على جانبيه مناضد رخامية صغيرة . يفرشه الضوء المنساب من نوافذ زجاجية عالية مفتوحة لتجديد الهواء .

استقبله عم سيد الجرسون النوبى العجوز بفرح واشتياق حقيقى . وقف إلى جواره يعد له المنضدة . وينظف رخامتها فى تمرس واتقان وهو يسأله عن حاله وصحته وعن أحوال الدنيا معه .

ثم زعق :

– بيرة سخنة . . .

تركه بعد أن أخذ لفة الطعام التى فى يده ، لكى يعده له فى أطباق ، كان عم سيد آخر الجرسونات الذين تربوا على حب العمل واتقانه .

ليس فى خدمة الشاربين ما يشين ، ولا ما يبرر التحايل أو النصب أو اساءة الأدب ، يتصرف بأدب وكرامة نوبية أصيلة لم يغيرها تبدل الزبائن أو ملاك المحل .

يعرفه ، ويعرف الأصدقاء منذ سنوات ، ويستدل بأستمرار ترددهم على المكان على أن الدنيا مازالت بخير ، وأن هناك ناسا طيبين ، تأتى إلى هنا لكى تشرب وتتكلم وليس فقط تلك الغيلان الشابة التى انفلت

عيارها ، وانقلبت سحناتها وانتفخت جيوبها ، تشرب لكى تسب وتلعن وتتشاجر ، وتخرج المطاوى . وكل ما فى جعبتها من دناءة وقذارة أو كل ما يقع عليها فى الحياة من ظلم واهانة .

كان عم سيد يأتنس بهذه الشلة ، ولايمكن لأحدهم أن يتصور المكان بدونه .

وضع الأطباق حول زجاجة البيرة بعد أن أضاف اليها الترمس والجرجير الأخضر وسأله عن السويس ، ولماذا لا يأتى كل أسبوع ؟ وحكى له عن نوادر فتحى ، وعن الحدة التى تعامل بها أحمد صالح مع بعض الأنطاع منذ أسبوعين ، ثم تركه قبل أن يضيق بحديثه أو يشعر بفضوله .

مع الجرعات الأولى من كوب البيرة ، أحس عبد الخالق بالاستقرار والهدوء وراح يتأمل بعض المعلمين المتحلقين فى دائرة إلى جوار البار القديم ، يتحدثون عن مباراة كرة القدم غدا ، وعن شئون لهم غامضة ومليئة بالأسرار والأرقام ، يقطعون جدية الحديث فيها بضحكات عالية حرة ، وعم السيد يخدمهم بحرص واتقان ، فهم ضيوف صاحب المحل الجديد الذى يريد أن يوطد علاقته بهم .

لم يكن فى البار غيرهم سوى زبون أرمنى قديم ، يأتى كل يوم لكى يمضى فترة الظهيرة يراجع أوراقا كثيرة قديمة يخرجها من حقيبة جلدية ، أوراقا قد تكون أشعارا وقد تكون حسابات . لكنها تستغرقه كلية ، ليصبح منظره فى الركن ، تحت الضوء الخافت مثيرا للخيال ، كأنه بطل فى رواية روسية قديمة . وحيد وحدة مطلقة ولكنه راض وراسخ فى

مقعده .

كان البيت الذى يقصده ، يسد حارة قديمة داخل حى الجيزة ، يقع إلى جوار كنيسة فى حوشها عدد من النخيل السامق العريق .

بعد أن صعد السلم النظيف ، وجد الباب الجانبى مواربا ، كان هناك زميلان قد حضرا قبله ولكن الاجتماع لم يبدأ بعد .

الكنب البلدى القديم على جانبى الحجرة ، وقد فرش بقماش ملون زاه ونظيف ، وفى الوسط منضدة رخامية بيضاوية يغطيها مفرش أبيض مشغول .

قدم لهم صاحب البيت الشاى ، واستمر بينهم صمت وقلق . . فقد كانت أخبار الاعتقالات تتزايد يوما بعد يوم . . وتشمل الصغار والكبار .

عندما جاء المسئول كان يبدو متعجلا وفى حالة غير طبيعية ، قال انه سينهى الاجتماع بسرعة ، وطبعا سننصرف واحدا بعد الآخر ، لا أعرف متى يكون اللقاء ، المهم الأوراق . . الاعتقالات لا تهدأ ، سيصلون الينا حتما ، المهم المحاضر ، محاضر الاجتماعات . . وكل الأوراق المطبوعة ، لاشئ يجب أن يبقى فى البيوت ولا لقاءات . أحسن شئ هو التصرف بطريقة طبيعية ، البقاء فى البيت ، أو زيارة الأقارب ، اذا كان هناك وقت ستصلكم تكليفات جديدة ، والآن إلى اللقاء ، سأبقى هنا قليلا أرتب بعض الأمور مع الزميل .

كان وجهه طيبا وضخما ، وشاربه الكث يهتز من الانفعال . احتضنهم بحرارة وانتهى الأجتماع .

قبل أن يترك عبد الخالق الشارع نظر خلفه فانطبع على عيونه منظر البيت القديم والكنيسة والنخيل .

كان ينظر إلى ضوء الباب عندما لمح أحمد صالح واقفا ساكنا ضد الضوء ، ينظر إليه فرحا بوجوده . ثم أقبل عليه مبددا وحشته ، ناشرا حوله نوعا خاصا من المحبة الخالصة . فتح أحمد صالح قميصه وأخذ يجفف عرقه ، وملأ عم سيد المنضدة بالأكواب وزجاجات الصودا وزجاجة البراندى المعتاد الذى يشربون منه . جاء أحمد صالح مبكرا قليلا لكى تتاح له فرصة الجلوس مع عبد الخالق وحدهما قبل أن يبدآ الصخب والضجيج .

منذ سنوات الأعتقال وهما يتبادلان تفاهما انسانيا عميقا لايتغير . أصبح أحمد تقريبا هو الصديق الوحيد الذى يزور عبد الخالق فى السويس بين الحين والآخر ، لكى يمضى معه نهارا أو ليلة هادئة ليس لأحد منها على الآخر مثالب أو مأخذ . كفا عن الحكم واللوم ، وقبل كل منهما الآخر خارجا عن الأحداث والأيام . أحمد صالح يمده فى آخر الشهر بجنيهات يداوى بها حاله كما يقول . وعبد الخالق يسمع منه دائما أخبار مغامراته النسائية ، التى تقترب وتبتعد عن التورط فى زواج جديد ، وأخبار الألعاب القليلة التى يمارسها فى سوق الفضة والأشغال التجارية الجانبية التى تبقى المركب سائرا .

أما السياسة فقد صارت موضوعا يقتربان منه فى حذر ، يرددان أخبارا وطرائف ولا يغوصان أكثر من هذا حتى لاتبرز الأشواك ويحتد

الكلام ، ثم ينتهى إلى صمت خانق مرير .

الوضع الانسانى هو موضوعهما المفضل يتفلسفان حوله فلسفة مكررة غير باهرة تدور حول : أن الضياع أو الهروب أو حتى الهزيمة ليست سوى نوع من الإصرار الأحمق على معان انسانية أصبحت قديمة ومستحيلة . ولكنها هى كل ما يملكون ، ويتفقان على أن يتركا الأمر دون اقتناع كبير .

يقول أحمد صالح : منذ أن نشر نسر صلاح الدين جناحيه جلسنا جميعا إلى جوار الحائط نبكى مع أننا لسنا يهودا . وعندما ضم جناحيه وجدنا أنفسنا فى العراء .

أصبح أحمد يشرب كثيرا وينهم فى أوقات فراغه ، أصبح يحتد كثيرا فى جلساته عندما يدور حديث السياسة ، فيطلب منهم الصمت أو تغيير الموضوع ، ويحاول الاستغراق فى شرابه أو اعداد مزة مبتكرة جديدة ، وعندما يراه عبد الخالق فى هذه الحال فإنه يشعر بأن صديقه يستعجل نهاية ما ، فيشفق عليه ولا يدرى كيف يساعده .

أما أحمد صالح فقد كان يقول له وهو يداعبه : أنت من تعرى على شط الحياة ولم يستحم ، أنت غواص فى كوب شاى . . شاعر بلا جنون . فيضحك عبد الخالق لكنه يظل يذكر الكلمات .

(٨)

كان البار قد بدأ يزدحم . عندما دخل فتحى نور الدين ومعه باقى

الشلة كامل رستم المحامى المزدهر وناشد مراد الصحفى نصف المشهور .

أسرع عم سيد يعد لهم مائدة صغيرة حتى يجلسوا فى ارتياح . وامتلأت . المنضدتان بالسودانى والطعمية ، وطلب رستم من عم سيد أن يأمر لهم برأس من الضأن تأتى لهم قرب النهاية ، وجاءت زجاجات البيرة والبراندى الوفير .

بدأ كامل رستم يخطب ويتلذذ بصوته العالى فتختلط الكلمات بصوت مضغ الطعام ، كان يحكى عن أسرار التعديل الوزارى المقبل لا محالة . وعن فضيحة البنك وزوجة صديقهم التى سحبت من فراش زميله . وصديقهم الذى اشترى مطبعة وقطعة أرض ومازال يتكلم عن الكفاح والطبقة العاملة .

ثم مال رستم على ناشد الصحفى وأخذا يتهامسان بكلام نصف مسموع ، لعل أحدا يسأل أو يطلب مزيدا من التفاصيل .

كانت الضوضاء مع الخمر قد بدأت تخترق رأس عبد الخالق فقال لفتحى نور الدين الذى يجلس إلى جواره :

- أشتاق لهذه الحكايات ، لكن ما أن أسمعها حتى أصاب بالغثيان . ولا أطيق طريقته فى التلذذ بالفضائح والقذارة . كيف حال الأولاد ، وأمهم ، ستأخذنى معك بعد أن ينتهى هذا الهم إلى البيت . أليس كذلك ؟ نعم . . نعم معى زفت يا سيدى . زفت من بتاع السويس .

ضمه فتحى نور الدين وهو يضحك فى فرح طفولى وقبل رأسه . قال

عبد الخالق لنفسه وهو يراقب الأرمنى العجوز غارقا فى أوراقه ، وأمامه كأس الزبيب الذى لا يفرغ : يكفينى من الدنيا أن يكون لى صديقان مثل أحمد صالح وفتحى نور الدين . كان يريد أن يكف رستم للحظات عن الكلام ، وأن يترك الغبار الذى يثيره كلامه يهدأ ، ولكن فمه والطعام والكلام كانوا أمامه شيئا واحدا لا يتوقف عن الحركة . فصاح عبد الخالق فى رستم قائلا :

– وبعدين : وبعدين يا أبو العريف .

كان هذا التعليق كافيا لكى يخرج رستم مخالبه . برقت عيناه بنوع خاص من العدوانية . وتذكر عبد الخالق محاولات رستم القديمة لكى ينال منه ومن منى المصرى زوجته السابقة . وكيف كان يتكلم عنهما . وفى كل مكان . لقد حدثه عن منى بالسوء وحدثها عنه . كان يسعى بالوقيعة ملسوعا من سعادتهما التى لم تدم طويلا .

لمح أحمد صالح طيف الموضوعات القديمة يخيم على الجلسة ، حاول أن يوقف التدهــور لكن رستم وناشد الصحفى كانا قد شكلا جبهة عبد الخالق . وأصبحت العاصفة قادمة لا محالة .

عندما دخل مكتب الضابط الكبير ، أستقبله الرجل واقفا وقال :

– طبعا الاستدعاء غير رسمى ، ولولا الوقت لكنا تقابلنا فى مقهى – أريدك أن تشرب معى فنجان قهوة مضبوطا ، وأن نتحدث حديثا وديا .

قال فى غضب يحاول أن يتمسك به :

– لا أحب القهوة ، لا أحبها عندكم هنا على أية حال .

- لا داعى للحدة . . أنا أريد أن أكون صديقا .

- بكل أسف . . أنا لا أريد .

- نحن نعرف أنه لا نشاط لك الآن . .

ولكنك تعرف الناس ، وهم يعرفونك ، نريدك أن تنسى الماضى . أنا أمد لك يدى . .

- ياسيدى أنا لا أبيع . . ولا أشترى . . لقد أغلقت الدكان ، أتركنى فى حالى أرجوك .

ودعه الضابط غاضبا وهو يقول :

- الحمقى يضيعون فرص العمر ، ولا يطرف لهم جفن ، مع السلامة يا مسيرى .

كان رستم المحامى يواصل هجومه قائلا :

- يدك دائما فى ماء بارد . أنت تحب دائما المكان الدافئ فى الشتاء ، والطراوة فى الحر .

أسرع ناشد الصحفى بصوته الرفيع الطفولى يقول :

- ليس هو وحده . الجميع يفعلون ذلك . . الموضة الآن هى محاكمة كل من يتحرك . كل من ينجح فى شئ ما .

ها هم اولاء يحاولون أن يأكلوا كتفه من آخر الذراع مرة أخرى . لقد ترك لهم كل شئ ولكنهم يحومون حول جسده مثل الغربان . ابن البغى لا يستحى .

قال رستم وهو يضع قطعة كبيرة من لحمة الرأس فى فمه ثم يمسحها

بكأس كبيرة :

- الأخلاق البرجوازية لا تسمح للواحد بأن يرى حقيقة موقفه أبدا ، لقد تعود الواحد أن يعيش وراء دخان كثيف تطلقه ذاته المتضخمة ، إنى أكره هذا التواضع والصمت الذى يخفى وراءه نوعا لا يغتفر من التعالى السخيف .

سحب عبد الخالق نفسا عميقا من صدره ، وأسند ظهره إلى الحائط ، حسب حساب أحمد صالح وفتحى نور الدين ، وعم سيد الجرسون ، كان فى الحقيقة يريد أن يبصق فى وجه الخطيب الكاذب ولكنه قال :

- اسمع يا كامل يا رستم . . أن المؤامرة الشخصية التى تقيم عليها حياتك لاتسمح لك ولا تعطيك رخصة لأن تحكم على . إنك تحمل رخصا كافية لأشياء أخرى كثيرة . تركت لك ولأمثالك القاهرة ، صرت صاحب الصوت العالى ، المتحدث الوحيد . ورثت الجيفة . ورائحة كلامك تثير القرف . ماذا تريد بعد ذلك بالضبط .

أمسكه أحمد صالح من يده ، وجذب فتحى نور الدين كامل رستم إلى دورة المياه .

أما ناشد الصحفى فقد أخذ يتلفت حوله باحثا عن لحظة مناسبة للفرار .

وجاء عم سيد يلم الأكواب ويجمع ما بقى من طعام فى صينية معدنية . وقد خيم على وجهه وعلى المكان كآبة وحزن .

(٩)

خرج عبد الخالق المسيرى ومعه فتحى نور الدين من البار ، فى هيئة جيش مهزوم .

قال فتحى :

– أنا مسئول عن هذه البداية السيئة .

أستند عبد الخالق على ذراعه وقال :

– لا أحـد مسئول ، إنهم هكذا دائما ، وهـذه حياتهم ، ليس هناك شئ حقيقى يحدث لهم ، ليس عندهم شئ يفعلونه ، سوى أن ينشبوا مخالبهم فى أول شئ يتحرك هذه هى المتعة الوحيدة التى يعرفونها . لاتهتم . نحن مازلنا معا . هذا هو المهم .

كانت مضايقات الناس ، وسخافة أقولهم وأعمالهم تجد طريقها إلى سرداب فى نفس المسيرى فيقول لنفسه : «وما لجرح بميت ايلام» .

لمح حيرة طيبة وحرجا انسانيا فى عيون صديقه فمرت على روحه نسمة ندية خففت من حرارة الشمس وضوء الشارع فى منتصف النهار ، ومن صداع الخمر والشجار وتلاشت من رأسه عيون الأصدقاء ، وكلماتهم الجارحة التى خرجت ممزوجة بالطعام الممضوغ ، والتى حاولت أن تهتك أستار عزلته التى ارتضاها لنفسه بديلا عن الموت أو الجنون .

من أجل هذه المشاحنات الحمقاء ترك القاهرة وحاول أن يستكن فى السويس ومن أجلها – أيضا – يعود فى زيارات خاطفة ، فى حلقة مفرغة من العذاب وتعذيب النفس ، يحتملها وحده ، وقد كفت أشعة الأمل أن

تتسرب إلى داخله ، الا للحظات كأنها دوائر ضوء تحرق هشيم نفسه ولا تضئ لعينيه طريقا .

توقف لكي يشترى سجائر وحلوى لأولاد فتحى ، وعندما عثرا على تاكسى أخيرا - استقر هو فى المقعد الخلفى . بينما جلس فتحى إلى جوار السائق يحدثه ويقوده وسط الزحام إلى بيته خلف ميدان السيدة زينب قرب زينهم .

فتحى هو الآخر زميل من أيام الاعتقال ، تعرف عليه هناك وليس لفتحى علاقة لا بالصحافة ولا بالثقافة ، كان موظفا اداريا صغيرا ، ارتبط ارتباطا هامشيا بالشيوعيين . . ولكنه اعتقل وأمضى هناك أربع سنوات ، وعندما خرج تقلب فى البطالة وفى وظائف كثيرة حتى استقر أخيرا فى وظيفة صغيرة بشركة الكهرباء ، يحمل لعبد الخالق نوعا من الحب والاعجاب وتربطهما صداقة كأنهما أقارب أو بلديات .

أستند إلى جدار . وأمامها صحراء مترامية ، وقطع صغيرة من أرض خضراء زرعها الزملاء بالخضراوات .

سأل فتحى نور الدين عبد الخالق المسيرى بلا مناسبة :

- هل أنا خطر على الأمن العام ، هل أنا خطر على مصر ؟ لم أحلم بالاضرار بأحد ، أراجع نفسى بالليل فلا أرى سوى أننى أردت الخير للجميع ، أنا فى الحقيقة معجب بعبد الناصر ، أراه شهما بطلا من الصعيد ، هل هو الذى وضعنا هنا ؟ هل هو الذى يأمر بالضرب والتعذيب . هل تفهم أنت ؟ اشرح لى أرجوك ، اشرح لى بكلام غير هذا

الكلام المرصوص الذى يردده الزملاء الكبار ، فهو كلام يزيد الأمر غموضا بالنسبة لى .

قال المسيرى ، وهو يتقاسم معه سيجارة وحيدة :

– كل ما أعرفه هو أننا نعيش كابوسا فى منتصف النهار ، هم يريدون أن يكسروا شيئا فى داخلنا ، يريدون أن يحولونا إلى بشر من نوع آخر ، ونحن نتمسك بما فى داخلنا كأنه الحياة ، المهم ألا نخرج من هنا على ظهورنا .

وظل فتحى وعبد الخالق يرددان هذه الكلمة لسنوات : المهم ألا نخرج من هنا موتى :

خرجا ولم يكونا من الأموات ، الا أن حيرة غريبة وقفت حائلا بينهما وبين أن تعود الحياة كما كانت ، أصبحت تلك الحيرة هى الرباط ، كأن الحياة صارت بعيدة لا تلمس ، كان الناس الذين يخوضونها بحماس ونهم مردة أو غيلان لاتشعر .

استقر فتحى نور الدين وتزوج من فريال لاعبة العرائس التى استطاعت أن تدخل إلى حياته ألوانا بسيطة وجميلة من السعادة ، كانت له زوجة وصديقة طيبة ، لم ترهقه بالاسئلة ولا بالمطامح ولا بالطلبات ، عرفت كيف تحول شقتهم الصغيرة التى حصلوا عليها فى المساكن الشعبية إلى بيت نظيف أنيق ، وأنجبت له محمد ونجلاء ، كانت فريال شيئا نادرا يدب على الأرض ، لا يستحقه سوى شخص طيب مثل فتحى نور الدين .

ظل بيت فتحى وفريال أجمل مكان فى القاهرة بالنسبة لعبد الخالق

المسيرى ، فيه يستريح ، ويأكل وينام ، ويلاعب الأطفال ، ويمتد بهم السمر حتى الفجر .

الفقر هنا ليس جارحا ، والوحدة مطرودة ، والهم يبدده شاى جيد الصنع وخبز ساخن وطعام بسيط ، وفريال تتقن الدخول فى جمعيات تحل بها الأزمات الدورية ، وتتقن شراء الأشياء الرخيصة ، وخياطة الملابس والأقمشة الملونة ، فتبعث فى حياة زوجها وأولادها بهجة بسيطة ميسورة ، الشئ الوحيد الذى لم تفلح فيه فريال هو أن تطرد تلك السحابة الداكنة السوداء التى تحل أحيانا فوق رأس فتحى نور الدين ، فيغرق فى نوبات من الصمت والكآبة ، فيبدو وكأنه قد سقط فى جب أو عاد إلى المعتقل . ساعتها تحاول معه فريال بكل الحيل وعندما تعجز ، تأخذ أولادها وتزور قريبا أو صديقا أو تمضى ليلة عند أهلها فى الريف .

كان فتحى فى تلك الساعات يبدو كفلاح عجوز يبحث عن أبرة فى كوم من التبن أو الهشيم .

ويقول فتحى لولا هذه المرأة التى تزوجتها لكنت الآن مجرما أو مجنونا .

كان يوما شتويا ، قرب رأس السنة ، التقى فتحى بعبد الخالق حوالى العاشرة صباحا ، جمعا فى الليلة الماضية نقودا تكفى المأنون ، والغداء الذى قررا أن يكون فى كازينو الحمام ، وأن يكون هو العرس والزفة وكل الاحتفال .

جاءت فريال مع منى المصرى فقاما من المقهى ، واتجهوا جميعا إلى

المأذون .

كانت فريال سعيدة ، أما منى فكانت تنظر إليهما فى حذر .

فريال ترتدى فستانا أزرق ، وتعتصر فى يديها حقيبة بنية صغيرة ، منى المصرى كانت ترتدى جاكت شمواه طويلا ، وفى صدرها مفتاح فرعون من الفضة ، كان فتحى منوما مأخوذا ، يبحث فى جيبه عن سجائر أو منديل ، وكانت منى تسعل سعالا عصبيا قصيرا ، أما عبد الخالق فكان يتصرف فى ثقة واستقرار غريبين عليه .

صعدوا إلى غرفة المأذون عن طريق سلم خارجى ضيق ، يتقدمهم عبد الخالق ، كان المأذون مضحكا متعجلا ، ظن عبد الخالق العريس .

قال عبد الخالق :

– يا ريت . ضحكوا . منى لم تضحك .

فى الكازينو على النيل تأمل عبد الخالق وجه فريال زوجة صديقه ، لم تكن باهرة الجمال ولكنه كانت سعيدة وراضية بطريقة فريدة لاتنسى . دخـــل فتحى فى الكرسى المجاور لها وفرد ساقيه ، وألقى رأسه إلى الوراء . من حق هذا الكائن المتعب أن يسعد وأن يستريح .

طول الجلسة كانت منى قلقة متوترة ، همست فى أذن فريال بكلمات لم يسمعها أحد وأصرت على أن تنصرف مبكرة ، بقى عبد الخالق مع العروسين حتى ركبا تاكسى قاصدين بيت أهل فريال فى الريف .

عندما التقى عبد الخالق بمنى فى اليوم التالى وعاتبها لأنها انصرفت مبكرة قالت فى تعمد وتحديد :

- أنا أحب فريال جدا ولكن طيبتها وسعادتها كانتا فوق احتمالى .

لم يفهم ، سألها مرة أخرى ، فقالت :

- كدت أختنق .

فسكت .

(١٠)

صافحه وجه فريال على باب الشقة ، استقبلتهما بترحاب وسعادة ، كأنها أم أو أخت فى صحن دار عامر وكريم ، كان وجهها مجهدا ، ولكنه مازال راضيا وسعيدا يحمل رائحة الأيام الطيبة ، فى وجهها شئ فلاحى رجولى ، طيب وشريف أفسحت لهما مكانهما المعهود على الكنبة إلى جوار النافذة ، قالت :

- تأخرتم . الطعام برد والأولاد أكلوا ، هكذا أنتم دائما .

للبيت ضوء خاص لا علاقة له بالمكان الذى يقع فيه . له رائحة نظيفة وهدوء مرتب تتحرك هى فيه فى أناقة وبدون افتعال ، أخرجت له جلبابا أبيض نظيفا وأعد له فتحى الحمام ، فغسل عن نفسه كل آثار السفر وصداع البار ، كان فى الحمام نبات متسلق باذخ الخضرة رطب ، وصورة فرعونية لأوز ملون ، للصابون رائحة نفاذة ، وكذلك للمنشفة ، كل شئ يحمل جزءا من روحها المجدة النظيفة التى لاتستلم للهم أو للضيق . سأل عبد الخالق نفسه للمرة الألف كيف تعيش فريال بيننا ، ولا يلمس روحها ذلك التقاعس العام والأهمال وعندما يسألها كانت تقول ضاحكة : أنا لا

أشغل نفسى بكلام فارغ لا جدوى منه .

تناول هو وفتحى طعاما جيد الطهو ، ذا مذاق خاص ، ولف فتحى سيجارتين بينما أعدت لهما فريال الشاى بالنعناع ، فتح النافذة ذات القضبان التى تطل على ساحة يلعب فيها أولاد الحتة الكرة ويثيرون غبارا وضوضاء ، الا أن هدوء البيت ونظافته ينزلان عليهما سكينة وهدوءا خاصا .

فى الشقة التى عاش فيها مع منى كان هناك توتر مخزون وقلق دائم ، كانت منى تخرج وتدخل باستمرار كأنها عاصفة ، تغير ترتيب الأثاث كل بضعة أيام . عندها دائما أفكار جديدة ، كانت مجنونة بالستائر ، تبحث عن لون يحتمل تراب القاهرة ، ولا يكون داكنا . لا تريد القماش الفاخر الغالى ، وتكره القماش الرخيص المطبوع ، لاتطيقه .

اشترت جهاز تسجيل لكى تسمع عليه الموسيقى الكلاسيك ولكنها أرادت أن تسمع مع عبد الخالق كل المصحف المرتل بصوت الشيخ مصطفى اسماعيل . هى مسيحية لكن قلبها مسلم ، هى لم تغفر لنفسها أنها ارتبطت به . تنتابها لحظات صمت وبكاء ثم تخرج وتعود له ببعض الأزهار .

لم تكن تطيق أن يزورهم أحد ، هى تريده لها ، لاتعرف كيف تتحرك أمام الآخرين فى البيت . السندباد كالإعصار إن يهدأ يمت ، تشرب معه ثم تضيق برائحة الخمر . الحياة معها كانت حلما مشحونا بالألوان ، لم يكن لليوم أول أو آخر ، كانت الساعات تتراكم أو تتساقط أو تستطيل ،

تقول له أنت مركز العالم ، أنت قلب الدنيا ، هى التى كانت كذلك ، ولكنه لم يقل لها ذلك ، ساحرة كانت تفلت من يده كشعاع الشمس .

قالت فريال وهى تحمل فى يدها خطابا أزرق صغيرا .

– جاء هذا من كندا منذ أسبوع ، من منى ألا تريد أن تقرأ ؟ به صور لها وللاولاد . ألا تريد ؟

أخذ الخطاب والصور . جرى على المسطور وجد أسمه . أنها ترسل له سلاما خاصا وتريد أن تطمئن عليه .

كم تبدو المسافات بعيدة .

وتلك التلال الخضراء التى تبدو خلفها فى الصورة . هل شاهدها قبل ذلك فى فيلم ؟

دقق فى ملامحها ، هل تغيرت ؟ جاء إلى فمه طعم شفتيها الحاد .

وضع الصور فى الظرف وناوله لفريال ، التى نظرت اليه ، ولم يقل أحد شيئا .

اندفع الأولاد محمد ونجلاء من باب الشقة ناحية عبد الخالق الذى استقبلهما فى حضن جلبابه الأبيض . كانت بهما شقاوة وعواطف فياضة . امتلأت بهما الصالة وتبدد ما كان قد خيم عليها من صمت ، انشغلت فريال بهما للحظات ، وقال فتحى فى جدية مفاجئة :

– مش عارف . . موضوع السفر – ايه رأيك . مش عارف أكلم فريال فى الموضوع ، رأسها مثل الحجر .

كان هناك مشروع قديم مؤجل ، لكى يسافر فتحى نور الدين إلى

الكويت مع زميل له فى العمل . العرض قائم ، ولكنه قد لايبقى كذلك . فريال تقول لا . تقول لو سافرت سأموت ، هكذا رأيت فى الأحلام . واحد منا سيموت ، فتحى يقول ، الأولاد لاشئ عندهم ، لا شئ . فريال تقول لا نريد ، لاشئ ؟ كل هذا ولا شئ ؟ كل هذه النعمة ولا شئ ، أن نقفل علينا الباب وأن نراك بيننا ، تغضب وتضحك ولاشئ . أنت لاتقدر كل هذه النعم . اسأل عبد الخالق المسيرى ، لو وافق . . أنا موافقة .

ولم يكن عبد الخالق موافقا لكنه كان يرى أن رغبة فتحى فى السفر تتزايد . كل شئ حولهم يضيق ولا شئ يتغير ، فريال وحدها مصدر الحياة والأمل . ولكنها هى الأخرى متعبة ووجهها متعب ، وملابسها قديمة . ويداها خشنتان من المسح والغسيل ، الشجاعة تنزوى فى الأركان . والحياة الشريفة أصبحت تحتاج إلى أنبياء .

فى ٩ يونيو ٦٧ نزل عبد الخالق مع فتحى من نفس هذه الشقة ، بعد أن سمعا عبد الناصر يتنحى ، كانت أمواج من البشر تخرج معهم ، والمدينة مظلمة تضئ سماءها قنابل الصوت والضوء ، وقنابل أخرى بعيدة تنفجر فى الجبل وعبر النهر .

عندما وصلا إلى ميدان التحرير كان التعب قد هدهما وسد حلقهما الصمت والتراب ، أشتد الضرب فى السماء فجلسا على الرصيف والميدان أمامها يضئ وينطفئ . خرجت نسوة متشحات بالسواد قادمات من حى عابدين ، كان صراخهن كئيبا ومخيفا .

قال عبد الخالق :

– بطلك الصعيدى تركنا . . والسماء تنطبق على الأرض . كان فتحى يبكى فى صمت وقال :

– اسكت أرجوك . .

كانا قد تركا فريال وحيدة فى الشقة الجديدة ، تبكى وقد أغلقت الباب على نفسها فى حجرة خالية من الأثاث .

استمرا سائرين بلا اتجاه فى شوارع وسط البلد . من كل الحارات والشوارع الجانبية كانت جموع من الرجال والنسوة والأطفال تخرج لتغمرهما بضجيجها للحظات ثم تنحسر عنهما وتخلفهما وحيدين بلا اتجاه .

أمام محل حلوانى كان معلم سمين يجلس فى هدوء يدخن الشيشة بينما صبيه قد خلع ملابسه كلها ما عدا سروالا قصيرا وأخذ يسكب الماء على رأسه من جردل كبير ، ويغمر الشارع حوله بالماء وهو يصيح ، حريقة حريقة .

كانت فريال تعد لهما شايا جديدا ، بعد أن صرفت الأولاد مرة أخرى ، عندما جاءت تحمل صينية الشاى كان فى عينيها دموع .

جلست على منضدة مقابلة لهما ، وقد جمعت رأسها بين يديها .

– أنا مثل أمى أحلامى لا تنزل الأرض . . أرى نفسى أموت لو سافرت سأموت . . هل هذا ما تريد . .

رد فتحى فى محبة :

– ياستى خلاص . . خلاص . . ينعل أبو السفر وسنينه ، قلها يا

عبد الخالق .

ظل فتحى بقية المساء يحاول أن يستجلب جوا من المرح . ولكن فريال كانت تقوم وتختفى فـــى إحدى الغرف ثم تعود وقد أحمرت عيناها وتورمتا .

قام عبد الخالق ، ودخل إلى غرفة الأولاد لكى يخلع جلبابه وعاد يرتدى القميص والبنطلون . تمسكا به ولكنه كان مصرا على النزول .

- إلى أين . .

- أبدا . . لا أدرى . .

ولم يفلح معه أى الحاح . وهو يغادر الشقة لمح الخطاب موضوعا على المنضدة فكر فى أن يعيد قراءته ، أو أن يعاود النظر فى وجهها مرة أخرى ولكنه انصرف ، قال وهو يغلق الباب :

- قد أمر غدا قبل السفر .

(١١)

لابـد أن يكون لعبد الخالق المسيرى بيت ، وأن يكون له - أيضا - وطن . هكذا خاطب نفسه باللغة الفصحى وهو يهبط سلالم عمارة المساكن الشعبية ، تاركا بيت صديقه الذى يحبه ، فى حالة تصدع وكأنه مشرف على الأنهيار .

تلك الرغبة الفاسدة ، المفسدة فى السفر بحثا عن المال . من زرعها ، وكيف تنمو هكذا فى كل مكان . من الذى سيبقى اذن ؟ الكل يرغب فى

السفر ويتحايل عليه ، ومع ذلك مازالت الشوارع مزدحمة ، ومازالت المدارس تقذف بالأولاد فى الفسح وفى نهاية الدورات وكأنهم قطعان غير مهذبة وغير مرعية ، أين البيت ؟ وأين الوطن ؟

كان يخترق تلالا من التراب ومن أكوام الزبالة ، ويخوض فى خرابات كانت حدائق أقيمت فيها بيوت خشبية للايواء السريع ، الغسيل فى الشوارع ، وحلل الطعام على النوافذ والنسوة يتحلقن حول التليفزيون فى مداخل الغرف المفتوحة على الشارع .

لم تستطع عيونه أن تتعود على هذه الفوضى التى لا اسم لها ، انها ليست فقرا وليست تخلفا ، انها حالة مرضية تسلبه الهوية والشعور بالانتماء ، مازال للبيت معنى وصورة فى ذهنة ، كذلك مازال للوطن معنى وصورة ، صورة خضراء بها فلاحون يعملون فى حقل ، وعمال يخرجون من مصنع ، واسطوات يعملون فى ورش تقع فى حارات رطبة ونظيفة ، وتلاميذ ينتظمون فى صفوف دراسية ، لم يعد يرى هذه الصورة ، تحيط به تراكيب جديدة مشوهة ، يتوسطها التليفزيون الذى لايكف عن الارسال ، يخطف الأبصار والعقل بتداعيات الصور ووميض الألوان يتكلمون فيه عن مصر غريبة ، مصنوعة من ديكورات ملونة وأنوار كاشفة وصبية وفتيات يتمايلون فى خلاعة ويرددون اسم مصر فى أناشيد وطنية تتميز بالرقاعة .

لاتخلو نافذة من تليفزيون ، ورجال ممدون على الأسرة أو الكنب ، أمام التليفزيون ، وأطفالهم أمامهم على الأرض يغوصون بأصابعهم فى

أطباق طعام له روائح نفاذة .

الليل مازال فى أوله ، والمسلسل التليفزيونى يشد الناس جميعا ، فيسود صمت فاجع ، كأن وحشا أسطوريا يزور المدينة كل يوم ، فيغتصب النساء ، ويسلب الرجال قدرتهم وعقولهم ليتركهم بعد ساعة غير صالحين لشئ ، كأنهم مدافعون أغبياء عن مواقع مهزومة .

تنفس الصعداء عندما صعد إلى الشارع الكبير ، وخلف وراءه الحى الذى نما بلا منطق ولا اسم كأنه مستنقع صناعى يموج بالبشر ، العربات السريعة تجرى فى الشارع معلنة بأضوائها الباهرة ولونها اللامع انفصالها عن كل شئ واستهتارها بكل ما يحيط بها من بشر وعلاقات .

ظل يصعد فى الشارع وهو لا يدرى إلى أين تذهب بالضبط ؟ كان يقول لنفسه لقد أوغلت فى السفر يا مسيرى ، السفر فى نفس المكان ، وما يحيط بك غريب ومفاجئ لا تعرفه ولا يعرفك . لقد صرت عجوزا ولا يحق لك أن تبدأ من جديد .

لامس الهواء الجاف القادم من الجبل – عبر المقابر – العرق الذى يبلل وجهه ويديه ، أعاده إلى حالة لينة من اليأس المعتاد . تعود أن يحمل يأسه معه فى سير طويل بلا اتجاه كأنه قاصد إلى قلب الغربة أو الفراغ .

ليس من المؤكد من قال هذا ، ولا متى قاله ؟ وليس هناك شهود معتمدون . لكنهم اتهموه بأنه يعمل مع البوليس ، هكذا ، مع البوليس ، مخبر وكاتب تقارير ، اتهموه بأنه ينسق مع المباحث لكى تخترق جلساتهم وتعرف كيف يفكرون .

كان التوقيت مرعبا ، عقب أن هجرته منى المصرى ، وسافرت . يدور فى الشوراع ، وبيوت المعارف ، والأصدقاء ، يسكر ويضيع وينام فى أى مكان ، يمضى النهار نائما والظهر فى مقهى . يمضغ الصداع والاسبرين ، وفى الليل يبحث عن مأوى جديد ، يتجنب الأصدقاء المقربين ، ولا يحب أن يقرب بيت الأسرة ، كان يغوص وحيدا ، ذقنه غير حليق ورأسه مشتعل بالقسوة والدمار . يتلاطم مع محيط دائرة بلا مركز ، ويسقط فى نوبات طويلة من تعذيب النفس والاشفاق عليها ، ويشترى بكل ما يملك زجاجة خمر ردئ ، المصائب لا تأتى فرادى ولكنها تتجمع وتتوالى على رأس الضعيف .

والساعة قد قاربت الرابعة ظهرا ، فى يوم شتوى كئيب عندما دخل إلى المقهى الجانبى الرخيص الذى يتجمع فيه بعض المثقفين ، دخل حاملا همه ، وصداعه الدائم ، كانت عيونه تحرقه . طلب الشاى ، وأسند رأسه بيديه لكى يغطى عيونه الملتهبة .

عندما رفع يديه من عينيه رأى أمامه فحلا طويلا من المجموعة التى تجلس إلى جواره . مال الفحل واستند على منضدته وقال :

– رائحتك أصبحت كريهة ، لولا ماضيك ، وكونك رجلا كبيرا ، لكان الحل علقة لا تنساها ما بقى من عمرك ، لكننى أحذرك من المجئ إلى هنا مرة أخرى . . يا مخبر يا ابن الكلب .

انه لا يتقن الشجار . . ولم يتعود أن يستعمل يديه ، ولكنه قذف الفحل الزنيم بمقعد مجاور . استعدت المقهى لمعركة بالأيدى والأكواب والمقاعد .

– أنا مخبر يابن البغى . . أنا مخبر ، وعليك أنت ، وما قيمتك ماذا تفعل ، ومن أنت ؟

ظل يقذفه بالأكواب والكراسى ، ويبصق عليه ، والفحل يتقافز والناس تحول بينهما .

ضمه الجرسون وصاحب المقهى ، وسارا به بعيدا حتى الناصية وطلبا منه أن يقصر رجله عن المكان قليلا فهؤلاء لا يعرفون التفاهم .

أصابه الحادث فى أم رأسه ، وظل راقدا عند فتحى نور الدين وفريال لعدة أيام حتى استعاد توازنه ، وعاد مرة أخرى إلى الطريق .

(١٢)

وصل إلى الحدائق الخضراء الواسعة المقامة تحت القلعة ، وكأنه صحا فى مكان غريب نظيف مفروش بالخضرة وبالأضواء . مبنى القلعة العالى المضاء يحجب عنه المدينة بكل ما فيها ، وهو يخطو تحت النور ثم يندس فى الظلام فى لعبة تسرى عن روحه وكأنه قطعة شطرنج على رقعة فسيحة .

كان هناك رجل عجوز يدور على النجيل الأخضر وفى يده خرطوم كبير ، تنساب منه مياه غزيرة مندفعة ، يروى الأرض فى استغراق واتقان ، وقد شمر بنطلونه وبدت سيقانه رفيعة قوية ثابتة فى الأرض ، عربات صغيرة ركنت قرب الحدائق ونزل منها ركابها . فتى وفتاة وسيدة وأولادها . كان يسود المكان هدوء واتساق . زاده هذا احساسا بالغربة

فإن تجاوز الأشياء ، الشيء ونقيضه ، أصبح يخيفه ، هل هذه هي الحقيقة المحيطة به . أم ان هناك فسادا في قدرته على ادراك الأشياء والربط بينها . ان تصبح الحياة مشاهد متجاورة أو لحظات متتابعة لا يشدها شيء ولا يدفعها شيء ، هل هكذا يبدأ الجنون والانفصال ؟ !

ظل يمارس لعبة النمور والظلام . ينتقل من بقعة مضيئة الى بقعة مظلمة ، وهو يقول لنفسه : منذ مدة لم أتذوق اللون الأخضر ، لم أعد أذكر أن في حياتي ألوانا ، إنني أتردد في خط لوني قصير : يبدأ بالأبيض ويمر بالرمادي وينتهي عند الأسود . أين ذهبت باقي الألوان ؟

كانت هذه رحلة الرحلات ، فيها اجتمع مع مني المصري وذابا واختلطا وقررا الزواج . حياته قبل رحلة مرسى مطروح شئ وبعدها شئ آخر . الأيام العشرة التي قضاها معها هناك في آخر سبتمبر من ذلك الزمن البعيد ، لها سلطان خاص على القلب والروح ، تعود ذكراها كأنها القمر أو حليب مصفى . ليس لها حدود جارحة تنساب على روحه كأنها غفران يمسح ما يحل به .

كان زمانا غير هذا الزمان ، لو سئل فيه لما تصور أن تصير الأمور إلى ما صارت اليه .

الماء أزرق والرمال بيضاء ، أقدامه العارية وأقدامها تتلاقيا ، في قلب ماء دافئ وجسدها القوي الحر المليء بالأسرار يبعث فيه نشوة وهدوءا ، لأنه قريب ومستحيل . يبزغ ويغيب مثل الشمس هناك . دائما في فرح

واحتفال سر غامض يخصه هو وحده .

أيام حسن فيها الحظ ، واستوت الريح في الشراع .

كانت قد أخذت منه وأعطته في أيام تعارفهما الأولى في القاهرة ، كل ما يؤخذ ويعطى . كانا معا في كل مكان وفي لامكان - وكان رفيقهم الشعر - تقول له : كل ما تلامسه يضيئ . الشعر على طرف لسانك ، أذوقه وأنت تقبلني وهو الحل ، والخلاص لك . ولدت لي ولكي نقول الشعر . يقرأ لها قصائد مما يحفظ ، فتطلب أبياته هو : وتهب كالموج الغامر تضمه في تحقيق لم يحلم به . تتوالد معها الأشعار ، تتوالد وأن لم تكتب ، وتختلط بالأحلام الغضة العذراء .

قرارهما السري الذي اتخذاه هو أن يكون شاعرا فقط . يكتب حبه وأحلامه للناس . وذابت قضايا وصراعات كثيرة على لسانها ولسانه ومحت بجسدها وروحها صفر الصحراء وعذاب الاعتقال .

كانت هناك دائما ، رطبة ندية ، تحمل له طعامه وشرابه ، وظله ، وتدفع عنه الضوء والضوضاء .

كان يعمل بالترجمة في إحدى الوكالات الأجنبية ، نقوده كثيرة وإن لم تكن منتظمة ، أما هي فلم تعرف حاجة للنقود . كان المشروع ألا يرتبط هو بعمل منتظم وأن يضع لنفسه معها تفرغا متصلا للشعر ، وكان للمشروع تقاسيم وتفاصيل كثيرة ، يزوران فيها القرى ويجمعان الرقص والأغاني وأشكال النسيج والفضة والفخار ، وتجمعت في حقيبتها أوراق كثيرة وكتب ، وعناوين يفردونها في المقاهي ويقضون النهار في ترتيبها

واعادة الترتيب .

بعد أن كاد الصيف ينتهى قررا أن يذهبا إلى مرسى مطروح وكان مفهوما بينهما أن هذه الرحلة هى لأخذ القرار ، وتحويل المشروع ، عملية واقعية يتحدون بها اختلاف الدين والوضع وكل تلك الاختلافات التى قام فوقها ذلك الارتباط العاصف الغريب . كان مفهوما - بينهما أيضا - ان كلها اختلافات جوهرية وهامة - ليس فى حد ذاتها ولكن لأنها متباينة فى حياتهما فى تركيبهما الشخصى . وكان اكتشاف أى اختلاف جديد يعنى اكتشاف فرصة جديدة للقاء .

ذهبا بعيدا ساعة الغروب . كانت تقترب منه وتبتعد . وكان يشعر كأنها الهواء الذى يتنفسه .

عندما التفت إلى الوراء وجد أصوات المدينة قد اختفت تماما . كذلك الناس لم يكن هناك أحد . ليس على الشاطئ الأبيض الممتد بلا نهاية . سوى قارب قديم رابض على جنبه لايصلح لإبحار .

ارتجف فجأة وهو يسير على النجيل الأخضر وكأنه أحس بها تسير إلى جواره . نفض عن نفسه البارق الغريب . وعبر شارع صلاح سالم قاصدا المقهى القديم الواقع فى حضن الجبل .

صار المقهى الحجرى البسيط كازينو ، بطريقة رديئة . أعيد تنظيمه ، فاختفى الجبل ولم تعد تراه أو تشعر به وامتلأ المكان بلمبات كهربائية ملونة ومناضد مخبوءة سيئة القصد .

تردد فى أن يجلس ، ولكنه رأى منضدة بعيدة تطل على الجرف

المنحدر . أمامها الأحجار الكبيرة المقطوعة من الجبل . ملقاة بلا نظام . كان هناك شئ حقيقى قوى الوقع فى ذلك الفراغ البدائى المنظم الذى تطل عليه المنضدة ، فجلس يواجهه وقد أعطى ظهره لدمامات الناس فى المكان .

(١٣)

حدق فى الظلام الذى أخذ ينتشر فى الهوة العميقة التى أمامه . فلم تضايقه كتل الظلام بل بعثت فى نفسه سكينة . وأخذ جسده يتراخى ويستقر فى المقعد عندما جاءت الشيشة وشد منها أنفاسا طويلة صعدت إلى رأسه .

يوم آخر وليل آخر . الخميس ينتهى . ولم يحدث شئ سافر ولم يسافر لم يغادر نفسه . ولن يغادرها أبدا . الحصار الخفى الذى يحيط به ، لم يعد يزعجه كثيرا يلتفت اليه ، فيشعر به ، فيدفعه عن نفسه ، بدمدمة لحن أو كلمات . أخذ الليلة يردد «كهيعص» يرددها دفعة واحدة ثم يعيدها ممطوطة منغمة ، وعلى سحر الحروف فيها يرضى بوحدته ويقبل وجوده الغريب هنا وحيدا .

تمنى لو كان معه كرسى قديم وقلم ، وخط فى بحار الصفحات حروفا وكلمات وأشكالا معلقة فى الهواء . لم يجد سوى المفرش الذى يغطى المائدة فظل ينقر عليه بأصابعه وهو يشرب الشيشة وعصير الليمون البارد .

رفع أبوه - قبل أن يموت بسنوات - قضية على المصنع الذى يعمل به موظفا قديما فى الحسابات لكى يطالب بتعويض أو مكافأة ما يراها حقا له .

ظل يتكلم فى القضية ليلا ونهارا لسنوات يراجع مذكرات المحامين ويرجع إلى كتب فى القانون ، ويمضى نهاره فى صحبة وكلاء المحامين والمحضرين متنقلا بين المكاتب والمحاكم ويستعين على ظلم الظالمين - إلى جانب كل ذلك - بالصلاة ليلا وقراءة القرآن .

كان قد بنى بيتهم القديم على يديه ، فى أطراف الدقى التى كانت حقولا . استنزف البيت كل ما أدخره ، واقترضه أو تحايل فى الحصول عليه ، واستغرق بناء البيت حياة الأسرة كلها : أبوه وأمه ، وأخوه وأخواته البنات وأيضا . . هو . دارت حياتهم حول هذا البيت : غرفه الواسعة ، وحديقته الصغيرة ، وعناية أبيه المبالغ فيها بكل تفاصيل البناء ، والتجارة والتشطيب ، وخوفه الدائم من «العوايد» والضرائب ومن تسرب المياه فى الجدران .

وبعد أن استقام البيت واكتملت جدرانه وأسواره ، عصف بأبيه «مشروع» جديد بأن يبنى فوقه «الدور الثانى» ، استطال المشروع واستبد ودخل فى حيز التنفيذ كان العزم قد وهن وارتفعت الأسعار وبلغ هو الستين ، واستحدث لنفسه قضيته الجديدة المسيطرة .

ولم يكن يملك سوى أن يسمع له ، يلفه حب أخرس لذلك الرجل العجوز الوحيد ، الذى يموت أمامه بالتدريج من جراء الهم والضيق الذى يحمل به

نفسه فى الصباح والمساء .

كان حصوله على هذا التعويض يعنى كل شئ . يعنى انتصارا ما ، واكمالا لهذا البناء الشبحي الذى قام فوق البيت ولم يكتمل . كان يعنى نهاية طيبة وشيئا تحقق ، ولكن حكم المحكمة كان رفض الدعوى والزام المدعى بالمصاريف .

فى أيامه الأخيرة كان يسحب جلد خروف أبيض ، ويصعد إلى السطح وقد توضأ وترك الماء يجف على وجهه وجلبابه الأبيض . وهناك فى بقعة نظيفة فى السطح بين الأعمدة ، يقيم صلاة هادئة مستقرة لا تنتهى .

كان هو يراقبه عن بعد ، وقد جلس عند مدخل السطوح يلفه ظلام ، ثم يضئ جلبابه الأبيض نور شاحب . . ومات .

شهر وأسبوع لم يذهب إلى البيت . . لم ير أمه المريضة ولم يزر أخاه ولم يسمع شيئا عن أخبار اخواته البنات . يذكرهم فتستيقظ فى نفسه عواطف متناقضة من المحبة والانكار وخيبة الأمل . لكنه يراهم جميعا غرباء بعيدين ماعدا أمه . التى تنتزع ذكراها قلبه من موضعه ، وتبعث فيه رغبة فى أن يهم من مجلسه ويذهب اليها .

لكنها الآن بعيدة مريضة ، تحرك له أصابع يديها المعروقتين ، وتبتسم فى وجهه ابتسامة شاحبة ، ويتركها وهى مازالت تدور بعينيها المندهشتين على وجهه وجسده ، تحب أقراص النعناع وكولونيا ماء الليمون ، وسجائر قليلة تدخنها خفية ، وهى راقدة مستسلمة لرعاية وتسلط العائلة الجديدة التى أقامها أخوه فى البيت .

منذ عامين والجسد ساكن والأدوية ثابتة ، والجميع ينتظر أمر الله ، سترحل هى الأخرى قريبا إلى ذلك المعلوم المجهول .

كانت ساعة حرجة بين العصر والمغرب ، النافذة مفتوحة ولكن الضوء خانق ، كان يدخن سيجارته إلى جوار النافذة ، بينما منى المصرى قد جمعت ساقيها وكورت جسدها على الكنبة فى نصف ظلام . قالت ليس أمامنا سوى أن نكون عمليين . ثقل وقع الكلمة على قلبه ، كان الصوت ليس صوتها قالت : هى قررت أن تسافر ، تريد بيتا وأولادا وهنا لن يكون لها أبدا أولاد . هذه الحياة ، لا يمكن ، لا معنى لأن أقف على كتفك أو تقف على كتفى ، كلنا نغوص ، نغرق .

أخرجت سيجارة ودخنتها ، أدار وجهه ناحيتها ، لم يستطع أن يرى تفاصيل وجهها المختبئ تحت الشعر والظلام . كانت قد اتخذت قرارها منذ أيام . ما الذى أفزعها بالضبط ؟ هو ؟ أم كل شئ حولها .

كل الكلمات والمحاولات كانت تنقل اليه شعورا واحدا بالنهاية وبالمستحيل .

فى الحمام حاول أن يتماسك ، ولكن عمودا من فراغ كان يدق من رأسه إلى قدميه ، قال لها : لنخرج لنأكل شيئا فى الطريق .

كانت نار الشيشة قد انطفأت ، عبث بأصابعه فى بقايا الدخان ، ولم يشعر بشئ ، فكر فى أنه قد يكون سقط من فوق هذا الجبل ولم يشعر . موجود هنا على هذا المقعد بعد السقوط . حجر من الأحجار ، لكنه لا يثير غبارا ولا يسمع لسقوطه ضوضاء .

قام واقفا ، وهو يسأل نفسه إلى أين ؟ إلى النيل أم إلى سيدنا الحسين .

كان النيل بعيدا ، أما الحسين فليس عليه سوى أن يقطع الشارع ، ويسير بحذاء المقابر ، فيجد نفسه هناك .

(١٤)

سأل عبد الخالق المسيرى نفسه ، أيهما جاء أولا : الليل أم النهار ؟ أجلس مسرعا : «الليل مصباحى» ، ولدت فى الليل ، وأرى نفسى - فى الليل أموت .

خرج إلى الطريق بعد منتصف الليل ، لم يكن ليله مشروعا من المشاريع التى تصنع فى المناضد المزدحمة بالرجال والنساء ، أو فى السيارات التى تخترق المنحنيات إلى مقاصد مبهجة مضيئة . كما لم يكن ليلا حانيا فى غرفة تبقى نوافذها مضاءة حتى الفجر . كان ليلا مطرودا ، جافيا ، جفت فيه المباهج والدموع .

يدخل فى الليل إلى الشرنقة القديمة ، إلى غرفات ضيقة خالية من الأثاث . ويكون وحيدا . سكون يتصاعد ويبقى رأسه خارجا ، ينظر ويتنفس . تغلق صفحات الكتب .

هو لايحلم كثيرا فى الليل ، النهار هو العذاب الحق . الذكريات بالليل يحيطها عازل من الصوت ومن الصدمات . فى الليل يجد نفسه ثقيلا ، ثابتا على الأرض . أما النهار فإنه يقتلعه ويقذفه ويصنع به ما يشاء .

أسفلت الشارع يلمع صاعدا ، هابطا يحده من الجانبين كتل من ظلام المقابر المغبر تتناثر فى داخل بقع من الضوء تقاوم الانطفاء ، وعبد الخالق المسيرى يقطع المسافة التى أمامه حتى ميدان الحسين مسرعا متأكدا من مقصده كأنه ذاهب إلى محل عمله ، يسقط ظله أمامه طويلا نحيلا يجذبه إلى عالم مسحور لا يصل أبدا إليه .

يتنفس هذا الأبد الذى يحيط به . الأبد الذى لا يقبله ولا يرفضه . يخترقه ، يسير خلاله ، ويشعر له بكثافة ككثافة الماء المالح ، يطوح ذراعه اليمنى فيه وهو يسير كأنه يريد أن يدرك بها شيئا ، أما ذراعه اليسرى فهى مدلاة إلى جواره يتحسس بها وجوده .

كشافات السيارات المبهرة ، وغبار المقابر ، وبقايا اليوم المتصاعد من المدينة الراقدة فى الظلام ، يأخذونه جميعا فى رحلة عبر زمانه ومكانه ، رحلة مكررة من الكشف المحبط والتحقق المستحيل .

يفكر ، ولا يفكر ، تتعثر الأحلام فى الأحجار ، ويتصادم الأقبال والأدبار فى الحوارى الضيقة التى صارت هى كل تلافيف دماغه .

ركنت روحه إلى شاطئ مهجور ، قارب قديم ، تشربت أخشابه بالماء وتفتت حوافه فى الرمال .

فى الغرفة الداخلية ، طاقة نور وحيدة مغطاة بالسلك والعنكبوت تسقط منها أشعة ثابتة مليئة بالغبار . يقع تحتها دولاب الفخار يديره رجل صامت ، تتحرك ساقاه ويداه على طين رطب ، فتتصاعد أمامه أشكال من الأوانى والقلل ، فيما يشبه السحر . يحملها صبية ورجال ، الى ساحة

واسعة تحت الشمس ، تقع أمام بناء غريب الشكل ، تطل منه نيران قديمة ، تحرق الحجر وتضئ فى النهار .

فى أطراف المكان أشجار كافور وسنط تحتها «قلل» مكومة كثيرة ، وآلاف من القصارى «الفخارية» المرصوصة كالطرابيش ، وكلاب تتمطى فى الشمس .

وهو صبى كان يذهب إلى هناك مع أخته لكى ترسم العمال والمنظر الطبيعى . تحمل معها الأوراق والأقلام والفحم وتأخذه معها لكى يؤنسها ويحميها ، فقد كانت تخاف من الكلاب .

أبدا لم يتكلم ذلك الرجل الجالس خلف الدولاب . كان يرفع عينيه اليهما فى أهمال ، ثم يعاود التحديق فى الطين الطرى الذى يتشكل تحت يديه .

كانت رسوم الرصاص والفحم ساحرة بالنسبة له ، يتأملها فى طريق العودة ، ويفرح هو وأخته بها . لكن استغراق الرجل فى الطين والدولاب ظل سرا غامضا يتحدى الاختراق .

الميدان يضج بزحام مفاجئ وضوضاء ، كأنه جزيرة يصب فيها كل ما بقى فى المدينة من حياة ، دخل إلى الميدان مع عربات الجرائد التى تلقى على الأرض بأكوام من الورق محدثة صوتا مكتوما يضيع وسط النداءات المسعورة التى تنطلق من حناجر الرجال والصبية وهم ينادون على الجرائد . وكأن هناك ثورة أو انقلابا .

تسربت النداءات إلى عدد من الشوارع الجانبية ، وبقيت أكوام

الجرائد على الأرض . وقف يتأمل عناوينها . ثم اشترى واحدة مها ، وهو لا ينتظر أن يجد شيئا يقرأ . لكنه وقف يقلب صفحاتها ويراقب حركة الميدان وهى تعود إلى سابق عهدها قبل ضجة قدوم الصحف .

كان واقفا تحت عمود من أعمدة النور ، يفتش فى الصفحات الداخلية عن خبر طريف أو جريمة مثيرة . بعد أن انزلقت عيونه على التصريحات المكررة والأخبار المعادة .

من أجل هذا جاء إلى القاهرة ، من أجل أن يقرأ الجرائد مبكرا فى سيدنا الحسين . عادة قديمة تمتد إلى أيام كان يشعر فيها أنه يضع يده على نبض قلب حبيب . رأسه والجريدة الآن يدوران فى فراغ عقيم . يستعجل نهاية الخبر قبل أن يقرأه ما بين مبتسم وغير مصدق ، ويتوقف عند المقالات والأعمدة كأنه يحصى مصارع الرجال .

وجد مقالة لزميل من السنوات القديمة . كان يرتدى مسوح الكهان الزاهدين . يقرأ الكلمات وكأنه يسمعها منه كاذبة ملوثة لا تخفى سوى شبق غريب للحياة والمتع . صعد ببصره إلى رأس المقال فوجد صورته مبتسما ، تلمع أسنانه البيضاء ويتساقط الكذب من شفتيه . صنع من الجريدة عمودا ورقيا رفيعا ، وضرب بها ساقه . وتحرك صوب مطعم ممدود فى الشارع .

كان يخفى كتب الشيوعية القليلة التى يمتلكها مع بعض المنشورات فى أسفل درج من أدراج المكتب الكبير الذى تركه له والده قبل أن يخرج إلى المعاش بسنوات .

كانت كلمات الكتب تفتح له عالما سحريا غريبا ، عالما رجوليا قويا يعيش فيه رجال قادمون من عالم «جوركى» ، حيث العمال أبطالا يحملون أحلاما ومآسى ، ويتحركون فى الفجر خارجين من مصانعهم وسط ضباب ودخان . والمثقفون يتكلمون كلمات قليلة حسنة التركيب عميقة الدلالة تلامس واقع الحياة وتمتلكه وتقلبه .

كلمات كأنها طقوس ديانة جديدة يمارسها فى الخفاء . فيشعر فى نفسه برضا وتفوق ، يرددها أمام الناس بحساب ، وكأنه يخشى على كلماته ، وعليهم ، لقد صار يمتلك التفسير والأجابة ، ولا يحب أن يلقى بها مرة واحدة .

صار يعرف ما هى الاستراتيجية وما هو التكتيك ، أصبح قريبا من حل لغز العمل والنقود وأصبح أسيرا لكلمة العدل والعدالة ، كأنه يمتلك مفاتيح المستقبل .

عندما فتح الدرج لم يجد أوراقه مكانها ، وجدها موضوعة فى مكان ظاهر على المكتب . . دخل أبوه جادا متجهماً وأغلق عليهما الباب ، قال :

– صرت الآن رجلا ، هذه نيران تضعها فى بيتى . أوراقك هذه لا مكان لها هنا . تريد أن تهدم كل ما بنيت . نريد هنا أن نتعلم وأن نعيش ، وأنت ماذا تريد ؟ ليس وراء هذا سوى الخراب . هل تريد أن أجرى وراءك فى السجون . .

لم يعرف بماذا يرد . شعر بأن الكلمات التى يعرفها ليس لها مكان أمام هذا الرجل . تلعثم غاضبا معتذرا ، مدافعا عن نفسه قال أبوه فى

حسم :

– لا أريد أن أرى هذه الأوراق هنا . أليس عندك دراسة ، لا وقت عندنا لمثل هذه الأشياء ، التفت لنفسك ، ولحياتك .

كان يأكل كبده ومخ . ويتأمل باب الحسين المفتوح ، عندما شعر بيد توضع على كتفه :

– مش معقول . . عبد الخالق المسيرى ؟

على رأسه كان يقف حمدى عبد المجيد صديقه الرسام ، ومعه ثلاثة من الأجانب ، فتى وفتاتان يرتدون ملابس متقاربة . كان حمدى مرحا يتحرك فى خفة وانتصار دائم . يبيع لوحاته بأسعار مرتفعة ويقيم معارض مستمرة مرة أو مرتين فى السنة ، يتكلم عن معارضه نقاد الصحف وينشرون صوره وصور أعماله ، فيبدو وكأنه يسير من نصر إلى نصر .

كان عبد الخالق يسميه بينه وبين نفسه الكذاب الملون المقبول . وكثيرا ما يفكر فيه وهو فى وحدته فى السويس ، فيحسده أكثر من أى شئ على كل تلك الألوان التى يكسبها على الورق ، وتلك الخفة التى يستطيع أن يحتفظ بها لنفسه .

كان يقول أنه مثل أم العروسة «فاضية ومشغولة» ويرتاح أحيانا لصحبته . يراقبه فى استعراض دائم لذاته . استعراض هو الآن يشاهده ويشترك فيه .

قال حمدى الرسام فى احتفالية مرحة :

– بسرعة . . بسرعة . . إنته من هذا الطعام السخيف . والحق بنا في الفيشاوى .

ثم مال عليه قائلا :

– الليلة صيد لا يعوض .

(١٥)

رفعت عنه هذه المصادفة عبء التفكير في الليلة ، فمع حمدى وأصدقائه يستطيع أن يكف عن التفكير . يستطيع أن يستمتع بمراقبة ألعاب نارية لا معنى لها ولا خطر منها ، تسليه وتنقله إلى الجانب الآخر من الحياة . الجانب الملون المزدحم .

انتهى من طعامه في بطء ، لكي يترك لهم فرصة الاستقرار في المقهى ، فهو يعرف تلك المقدمات الطويلة التي يتقن حمدى صناعتها ، في تعريفهم على المكان ، وتقديمهم إلى صاحب المقهى والجرسونات ، وكيف يرد على أسئلة الرواد فيما يتعلق بالخواجات وجنسيتهم ، وعملهم وكيف يدفع الفضوليين من رواد الليل ، ويدافع عن صيده في مهارة وظرف .

عندما وصل الى المقهى كانت الجلسة قد أخذت شكلها المستقر . الفتى الألماني دفع بكرسيه الى الخلف واستند على الحائط ، ونشر تحت الضوء كتابا مليئا بالخرائط يقرأ فيه ، ويضع علامات بقلم رصاص .

كانت «ايف» قد اقتربت من حمدى بشكل ملحوظ ، وقد استقر ذراعها على مسند مقعده ، تعبث في حبات السودانى على المنضدة ، وتضحك

بصوت عال وتقذفه بواحدة . كاشفة عن فم شهوانى رفيع وأسنان كبيرة .

كأن «مونيكا» كانت تنتظره . كانت تمد ساقيها على مقعد أخلته لعبد الخالق ، وقدمت له سيجارة .. سألته ان كان يتكلم الانجليزية ؟ هل هو رسام أيضا ؟ هل سافر الى أوربا من قبل ؟ كانت تتكلم بسرعة طفلية . وتدخن فى شراهة .

لم يبذل حمدى أى جهد فى التعارف أو التقديم بل ترك الأمور تجرى فى شكل طبيعى . سحب نفسه من صديقته . وقال لعبد الخالق :

– انت معانا الليلة .. مش كده ؟

كان آخر من وصل الى الاجتماع الذى يعقدونه فى مقهى «باريس» الكبير ، كانو أربعة وهو الخامس . كانت هى مسئولة الجماعة ، سمراء حادة الملامح عصبية ، وان كانت تكسو وجهها بابتسامة ثابتة ، قالت فى ابتسام ساخر :

– تأخرت . لا علاقة لك بهذه الاجتماعات .

الدقة فى المواعيد بداية الالتزام الصحيح .

أحس بحرج ولم يرد ، كان جدول الأعمال مزدحما . هناك التقرير السياسى الذى يناقش التطورات السياسية ، ثم التثقيف ، وكان عليه هو أن يقدم ملخصا لكتاب لكى يقدم فيما بعد للزملاء العمال ، أخذت منه الأوراق ، قالت : انها ستقرؤها فيما بعد وترد عليه . وعليه أن يقدم كتابا آخر ، عندما كان يراها تتكلم بثقة زائدة وبسرعة ، كان يفتقد شيئا حيا فيما يفعلونه .

فى كل اجتماع كان يفكر فى طريقة للخروج من لقاءات المقاهى ، والكلام المحفوظ المعاد ، وعندما كان يشير إلى مشاعره من قريب أو بعيد . كانت تنظر إلى الزملاء وهى تقول :

– لا نريد الدخول فى كلام مثقفين . ليس فى الاجتماع على الأقل هناك تكليفات كثيرة . . والوقت محدود .

أخذت مونيكا تتحدث فى انجليزية بسيطة عن «اليوجا» وأخرجت من حقيبتها كتابا قديما جلدته بورق أخضر قديم ، وأخذت تشرح له بعض البدايات والتمارين الأولى . لم تترك له فرصة للرد أو حتى السؤال ، كانت تأخذ موافقته وكأنها أمر بديهى ، ولم يكن هو يريد أن يجهد نفسه فى استعادة مفرداته الانجليزية .

ظل يتطلع إلى وجهها ويتأمل ذلك الحماس الغريب الذى تتكلم به وكأنها تعرفه منذ أعوام .

كانت تسبح فى عالم واسع غريب من الأفكار والأوهام ، وتحرك جسدها وساقيها فى حرية وكأنها فى بيتها واستغرقه ذلك الخليط الغريب من الحرية والبلاهة ، هى من النمسا رفيقة سفر «لموريس وايفا» لا تدرى كم ستبقى فى القاهرة ، ولكن حمدى قدم لهما فى بيته المأوى وسهل كثيرا من تنقلاتهم بسيارته الصغيرة .

موريس غارق منذ سنوات مع ايفا وحمدى الآن ينضم إلى الطابور .

أما هى فلا تشكو ، أنها تحب الوحدة . ولا تستمتع بالعلاقات العابرة ، هى لاتشعر أنها مهجورة . فهى تستطيع أن تتصرف مع نفسها ، يمكنها

أن تتكلم كثيرا ، كما يمكنها أن تظل صامتة لأيام . «اليوجا» فتحت لها أسرارا كثيرة لاتعرفها عن نفسها ، كشفت لها عن قوى غريبة ، وعن أنواع من الارادة لم تكن تشعر بها من قبل . أهم شئ أنها جعلتها تقبل الناس كما هم .

كانت منى المصرى قد رتبت سهرة مع عدد من الأصدقاء فى شاليه صغير مجاور للهرم ، كان هناك شواء وشراب كثير ، وعدد كبير من الناس .

كان قلقا ، ولم يحب الطريقة التى تتصرف بها وسط هذه الجماعة . كان يشعر بأنه غريب ، ولم يكن يجد خيوطا لحديث متصل مع أحدهم . أو معها ، سألته مرتين «مالك» فلم يقل شيئا .

كان قد شرب كثيرا ، كذلك هى ، وبعد أن انصرف الجميع انشغل هو فى جمع الأطباق والزجاجات ، لكى يتخلص من توتره وغضبه . اختفت فى غرفة داخلية ثم أطفأت الأنوار وخرجت عليه فى قميص شفاف لم تكن تستعمل مثله . كان فى شكلها شئ غريب كأنها استعارته من الأصدقاء ، لم يكن يريد أن يقبل هذا ، وتعلقت فوقهم لحظة صمت ثقيلة .

– أنت وماتحب . اذا لم يكن هذا يعجبك فسوف أخلعه . من البداية وأنت مصر على أن تفسد الليلة . .

– لقد فعلت كل هذا من أجلك .

كان موريس قد أغلق كتابه ، وأغلق عينيه وتناوم . بينما حمدى وايفا يتضاحكان وقد استطالت رقبة حمدى ، ولم يعد يخفى نظراته لصدرها

وساقيها .

اندس عبد الخالق بين الفتاتين فى المقعد الخلفى للسيارة الصغيرة . وهو يشعر بجسد ايفا «الباذخ» يضغط عليه فى لامبالاة ، بينما مونيكا لاتكف عن الحديث . كان حمدى يضحك فى عصبية ويحكى نكتا مترجمة . بينما احتل موريس المقعد المجاور له .

عندما دخلوا إلى الشقة الصغيرة المليئة بالصور المرسومة والأكواب المتناثرة بدا حمدى مشتعلا يريد أن يواصل السهر . أخرج زجاجة من النبيذ وأحضر أكوابا وحاول أن يستعيد «ايفا» . الا أنها انشغلت بخلع ملابسها واندست إلى جوار الألمانى الضخم الذى تمدد على كنبة صغيرة ، نظرت اليهم وهى تقول ضاحكة :

– إلى الغد . .

أما مونيكا فقد كانت تعد لنفسها المرتبة التى دخلت فيها ونظرت إلى عبد الخالق برأسها وكأنها حيوان أليف فى شرنقة وأدارت لهم ظهرها .

قال حمدى ، وهو يجرع كوبا كبيرا من النبيذ :

– معلش . . ضحكوا علينا الخواجات .

حاول حمدى أن ينشغل بالرسم والألوان ، أما عبد الخالق المسيرى فقد نام فى مقعده .

(١٦)

أيقظه أذان الفجر المتصاعد من ميكروفونات متعددة ، تحيط به في منطقة باب اللوق .

لم تطل الاغفاءة أكثر من ساعتين وصحا وجسده يؤلمه . كان المكان قريبا
بالنسبة له تحت الضوء الخافت الذي يتسلل من النافذة الكبيرة المفتوحة .

«ايفا وموريس» تحت غطاء ملون واحد على الكنبة ، و«مونيكا» في داخل حقيبة النوم ملفوفة كأنها دودة ضخمة ، لا يظهر منها سوى أطراف شعرها الذابل الخفيف . أما حمدى الرسام صاحب الشقة فقد كان صوت نومه ينبعث من الحجرة الداخلية التي تحتوى على سريره الكبير .

الأكواب متناثرة إلى جوار النائمين ، تحتوى على بقايا شاى وقهوة ، ونبيذ وأعقاب سجائر ، وقشر موز وبرتقال .

رغم كل الحياة التي أمضاها متنقلا في بيوت الغرباء ، فإن عبد الخالق لم يألف هذا الاستيقاظ المفاجئ في مكان غريب . تهاجم هذه اليقظة الغريبة ما بقى في روحه من وحدة وتماسك . أزال آثار النوم والليلة الماضية . وهو يتحرك ببطء في الحمام الملئ بالفوط . ووضع لنفسه أبريق شاى على النار . وجمع قدر ما يستطيع من الأكواب وحملها إلى المطبخ الذي استحالت الحركة فيه وسط «الكراكيب» وأكوام اللوحات والألوان المتناثرة في كل مكان .

مع السيجارة الأولى وكوب الشاى الدافئ ، وقف فى النافذة الكبيرة التى تطل على عدد من الأشجار فى حديقة مجاورة قديمة .

كان أذان الفجر قد أنتهى.. وخلف دمدمة عالية صادرة من الجوامع المجاورة ، وقد اختلطت بأصوات العصافير التى انطلقت فى ضوضاء صاخبة مجنونة . كان قد أعطى ظهره لذلك العالم المُرتبك الغريب الذى يملأ الشقة .

اليوم كان - أيضا - يوم جمعة . كان قد مر على زواجه من منى المصرى عام أو يزيد . هدأ كل شئ . دخلا وحيدين إلى الرمال الناعمة .

كراسات الشعر ذات الأغلفة الملونة السميكة التى تجمعها له من المكتبات القديمة ، تحتوى على أسطر قليلة وصفحات بيضاء كثيرة . وهو يتلفت حوله ، فيرى الأشياء بعيدة ، يتحرك فى دائرة ساكنة . يجمع الصورة ويتحدى الفراغ بزيارات سريعة للقرى يعود منها موزع الذهن قلقا .

هناك مسافة لا تعبر بين الحلم والتحقق . هناك أحلام ملونة تبهت أو نغمات تنوب بلا نهاية .

تسللت إلى شقتهم ، رغم الباب المغلق غربة خبيثة . تدفع بمنى المصرى إلى ركن بعيد ، تعالج فيه قلقها وحدها ، وتراقبه وهو يتخبط بين الأوراق ، والموسيقى ودخان سجائره الذى لايتوقف .

كان صباح يوم جمعة ، هو يخاف الجمعة دائما ، فراغ اليوم أو قلق مـــن ذكريات الطفولة ، يخاف امتداده ، وساعة نحس تختبئ فيه قبل

الظهر ، أو بعد صلاة العصر ، وتشيع قلقا وترقبا فى كل ساعات النهار .

أعد افطارا لها ، وله ، فى محاولة للصلح بعد الكدر الذى ساد ليلة أمس .

كانت تسأله فى قلق ، أسئلة دائرية تحاول حصاره فى هم يشمله ، ويشمل الدنيا كلها .

كانت تسأله ، وبعدين ؟ ماذا نفعل ؟

الطعام المنمق فقد طعمه . وكذلك كلمات الأحلام كانت تشعر انها ابتعدت عن كل شئ عن أسرتها ، وعن الأصدقاء الذين تربت معهم وعن زيارات الكنيسة التى كانت تبعث فى نفسها طمأنينة . قد ابتعدت عن الرفاق ، وهم أيضا ذابوا ، تفرغت لمشروع حياتهم والشعر ، فسقط فى هذه الشقة المعزولة التى تقع فى وسط البلد . يزورهم أصدقاء متناقضون بعضهم يتكلم عن الآثار والأزهار ، وبعضهم يتكلم عن الامبريالية والفقر والتخلف . بعضهم هاجر وبعضهم سافر للعمل ومن بقى يسأل :

– وبعدين ؟

فى تصاعد يثقل قلبه وروحها .

كأنهم استحالوا إلى عيون تتفرج وأيد تشير :

وهو يدور باحثا عن مخرج وكل المنافذ تضيق .

كان الصباح صباح جمعة ، جلست على مائدة الأفطار التى أعدها تقطع فتات الخبز ولا تأكل :

– لاداعى للنهايات الدرامية الفاجعة . أرسلت لأخى وديع فى كندا

أخبره أنني صرت الآن جاهزة للهجرة . سأنسحب من حياتك في هدوء . لايمكن أن أراك هكذا . فأرا في مصيدة ، ولايمكن أن أعيش أنا هكذا . لا يمكن أن يصيبك من ناحيتي ضرر . يمكن أن تبقى هنا في الشقة إلى أن تدبر مكانا . سأرتب هذا مع الأصدقاء ، قد تكون حمولك بدوني أخف . هل تسمعني ، لم لا ترد ؟

كان كل الهواء ساكنا ، مكوما لا نسمة هواء . كأن قيظ أغسطس سيستمر إلى الأبد .

فكر عبد الخالق المسيرى يومها : ليست منى المصرى هي التي تهجره ، الحياة تنسحب وتتركه جافا ملقى على الشاطئ الحجرى إلى الأبد .

انتابته نوبة سعال جاف . نظر خلفه إلى الشقة المرتبكة ، ورأى ضوء النهار يفرشها ببطء كأنه يدخل إلى أهل الكهف ، أخرجت «مونيكا» رأسها من حقيبة النوم ووضعت يدها على عينيها ، وأشارت إلى ضوء النافذة . كان لون وجهها شاحبا باهتا كأنها ميتة .

أسرع يصلح من شأنه في صمت ، وغادر الشقة متسللا وأغلق الباب في هدوء .

لم تكن القاهرة قد استيقظت بعد . لم يكن في الشارع سوى بعض عربات الزبالة تجرها حمير هزيلة ، يعتليها صبية اختفت ملامحهم ، يرتدون اسمالا لا لون لها .

ولم يجد الفجر ما يستقبله به سوى نسمة باردة سريعة ، لامست

وجهه ، أحس بحرقة فى عينيه وقال لنفسه : لم العالم خاليا هكذا كأن لم يكن هناك أبدا بشر .

(١٧)

مع ضوء الفجر سأل عبد الخالق المسيرى نفسه : هل ما مر من الحياة أصعب ، أم تلك الظلمة المغبرة التى يسير اليها مترددا بين الشوارع الجانبية والطريق الكبير ، الطريق الذى يقوده عبر ميدان التحرير والكبارى إلى الدقى : حيث بيته وبيت أبيه وأخيه ، وغرفة من حبلت به .

مغرم هو بالسؤال الذى لا أجابة له .

هل تحمل الأيام له شربة ماء ؟ أم أن أمامه صحراء ورمالا ؟ القاهرة صامته لا تجيب . نوافذها موصدة غامضة ، ترد الأيدى الممتدة نحوها فــى سؤال ورجاء . وهو يدب فى طرقاتها فى وهن ، لا يسمع لخطواته وقع ، وليس فى روحه نشيد .

كانت الكبارى العلوية الحديدية تحجب عنه اتساع السماء التى لونها الضوء . أعمدتها القصيرة الغليظة المتتالية كأنها أسوار سجون بعيدة لصبية أبرياء .

أسرع فى خطوه وهــو يعبر الميدان الخالى الا من عربات مسرعة قليلة ، وتمنى أن يصل سالما إلى النيل . بدأ سواد أسفلت الشارع يلمع بندى الصباح والأضواء المنعكسة عليه . أحس برطوبة ماء النيل تتخلل

جسده العجوز باعثة فيه بعض الهمة . على كوبرى قصر النيل لامس الحديد المندى البارد ، واستنشق بعمق رائحة المدينة التى يعرفها .

لم يكن السور الذى يحيط بيتهم قد اكتمل بعد . أرض فراغ وحقول صغيرة تحيط به من كل جانب .

فى الناحية الشرقية سكنت عائلة «أم رضا» فى عشة مصنوعة من الصفيح والطين مقامة تحت شجرة ليمون كبيرة .

شجرة فارهة ضخمة كثيفة الأوراق ، صحيحة كثيرة الأزهار والثمر . كانت أم رضا تعيش من بيع ثمارها وبيض الدجاج ، وأشياء أخرى كثيرة تقضيها أو تبيعها لأصحاب البيوت المجاورة .

تعيش فى قطعة الأرض هذه ، كأنها ملكة ، مالكة ، تحت شجرة الليمون الفارشة . على مدار السنة ، تتداخل خضرة الأوراق اللامعة ، مع الزهر الأبيض الناصع مع صفرة الليمون المفرحة عندما ينضج على الشجر . كانت «أم رضا» تصنع فى قطعة الأرض الفراغ هذه ، تحت شجرة الليمون . بهجة ونظافة لاتشوبها شائبة .

ورغم أن «رضا» كان ابنها الصغير فإن الجميع كانوا ينادونها «أم رضا» . كان فى مثل سنه مليئا بالحيوية ذكى العينين ، باسم الوجه ضحوكا . يدخل كل البيوت ويخرج منها يجر وراءه عجلات من بكر وصفيح . تداديه النساء والفتيات ويتمنى كل الأطفال أن يلعبوا معه . لم يكن يشغله عن بهجة الحياة لا مدرسة ولا تعليم ولا يحجبه عن ملامستها لابنطلون أو حتى حذاء .

كان صديقا لعبد الخالق ، لم تكن تفصلهم سوى المدرسة . وضيق أمه وأخوته بأن يبقى جالسا فى العشة مع رضا وأم رضا طوال النهار . لم يبق الا أن يأكل وينام هناك .

كان رضا بارع اليدين يستطيع أن يصنع بيديه ما يشاء من الطين والحديد والحجر . له هوايات كثيرة متنوعة ، ولكن جمع قطع الحديد وفكها وربطها كانت أحب الهوايات وأعظمها . يجوبان المنطقة كلها بحثا عن قطع الحديد والعلب وكل ماله شكل غريب ، ليصنع رضا من هذه الأشياء عجلات وعربات ونحلا وعصافير . ومن الأوراق والفتل يصنع طائرات ومدافع . لم يكن رضا يحتفظ بما يصنعه ، بل كان يغدق بها على كل من حوله من أطفال .

عندما عاد فى العصر من المدرسة كان كل شئ قد انتهى . . عثر رضا على قطعة حديد كبيرة ، أحضرها وأخذ يعالج فكها تحت الشجرة . لم تكن قطعة الحديد سوى قنبلة قديمة منسية فى إحدى الخرابات . انفجرت لكى تمزق جسده إلى قطع .

ظل يسمع تفاصيل الحادثة لسنوات ، يجمع التفاصيل قطعة قطعة . لم يدر كيف انسحبت أم رضا من قطعة الأرض . ولا أين اختفت . ولم يعد يذكر متى ذبلت شجرة الليمون وفقدت ما كان فوقها وتحتها من بهجة وحياة .

كانت مياه النيل ساكنة يعلوها ضباب كثيف يرتفع ببطء ، لكى يرى النهر عملاقا راقدا لا يتحرك ، انطفأت أنوار الفنادق وأعمدة الشارع

والكوبرى ، يحب عبد الخالق المسيرى أن يشهد هذه التحولات حيث لا تذوب اللحظة فى اللخطة التى تليها بل تعلن بصراحة عن الانتهاء .

واصل السير إلى منطقة الحدائق والأشجار الكثيفة . وراقب بعض الملاهى وهى تقذف الزبائن الأخيرة والعاملين . وهو يشق طريقة إلى ميدان الدقى .

وقفت منى المصرى خلف زجاج المطار . كانت تحمل حقائب قليلة وقد علقت حقيبتها الجلدية الشهيرة على كتفها . مازال فى الحقيبة أوراق له ، بها كلماته ورسائله وقطع من الشعر كتبها ولم يكملها وبها صور له معها ، وتذكارات من البحر والصحراء .

وقفت خلف الزجاج ، تتحدث مع ضابط .كأنه يعرف ما تقول .

نظرت ناحيته نظرة أخيرة .

عندما استدارت كانت كأنها كوكب خرج عن مداره وتفتت إلى شظايا متناثرة .

عندما وصل إلى الميدان كانت الحياة قد بدأت تدب فيه . جلس إلى المقهى المجاور لبائع الجرائد الكبير ، كان يفرش الجرائد والمجلات والكتب .

جلس على كرسى مجاور له . وطلب شايا ودخانا . الجرسون جديد لايعرفه . وفى المقهى من الداخل بعض العمال ، أما الخارج فالكراسى مرصوصة والرصيف نظيف .

عليه الآن أن يهدأ ، وأن يستعد للذهاب إلى بيت العائلة . المكان أقوى

فى الذهن منه فى الواقع . ثقيل مزدحم ، هناك أخوه سعيد ، أو الشيخ سعيد أستاذ الشريعة الذى خلع جبته وقفطانه منذ سنوات . سيجده وعائلته . زوجته والأولاد مؤسسة غريبة . استطاع سعيد أن يحشو حياتهم بالنقد بعد أن تغرب فى البلاد العربية لخمس سنوات . سيجد أيضا أمه على البرزخ بين الحياة والموت ، وعليه أن يسير على الصراط وأن يستعد لاقتحام كل هذه الأشواك .

هو لا يزورهم فى كل مرة يحضر من السويس . ولكنه فى هذه المرة يشعر بأن أمه تناديه وأن عليه أن يصل معها حوار اكاد أن ينقطع .

قالت له أمه : كنت عزيزا ، جميلا ، ولكنك لم تكن تكف ليلا عن البكاء . كان أبوك يطردنا أنا وأنت من الحجرة لكى ينام . فأحملك وأقف بك عند الباب الكبير حتى تهدأ وتنام .

سعيد كان يراقبنا وقد استيقظ للصلاة فى الفجر ، سعيد كان دائما قويا مستقلا صامتا لا يحب الكلام .

أما أنت – يا قلبى – حتى بعد أن صرت رجلا . . أراك كثيرا تائها ملهوفا تبكى فى الليل .

توالى الصباح سريعا على الميدان ، وانتشرت السيارات والأتوبيسات تسير فى كل اتجاه ، وأن له أن يقوم قاصدا محطته التالية .

جمع من بائع الجرائد بعض المجلات والكتب الدينية لأخيه سعيد . واشترى من بائع السجائر الكبير أقراص النعناع وزجاجة من كولونيا الليمون لأمه . وواصل السير فى اتجاه ما كان يوما ما أطراف الدقى

حيث يقع ما كان يوما ما بيتا له .

(١٨)

كان البيت قديما قصيرا . تحيط به مبان حديثة وعمارات عالية . دور واحد ، ترتفع فوقه بعض الأعمدة الخراسانية والطوب الأحمر ، فى مشروع لم يكتمل لدور ثانٍ .

من ناصية الشارع ، وقبل أن يدخل ، كان يستطيع أن يرى نافذة الغرفة التى تقيم فيها أمه . وقد فتحت وأخرج على نافذتها فرش السرير .

وجد الباب مفتوحا . وفى لحظات كان يقبلها ويلمس بوجهه الماء البارد الباقى على وجهها بعد أن مسحته بالفوطة المبللة .

منذ مدة طويلة لم يلمس أحدا ولم يلمسه أحد .

مدت يدها تتحسس رأسه ووجهه ، ودمدمت بكلمات مخنوقة حسبها دعاء له .

كانت نوافذ الغرفة مفتوحة ، وهى راقدة فى سريرها تحت النافذة ، لم يستطع بعد هواء الصباح أن يجدد ما فى الغرفة من رائحة الرقاد والمرض والأدوية .

سحب كرسيا وجلس فى أقرب مكان لفراشها . أخذ يديها وقبلهما مرة أخرى ، وضع أقراص النعناع فى يد وسكب ماء الليمون على صدرها وجبينها .

كانت أظافرها جافة وطويلة ومتسخة .

أحست زوجة أخيه بهما فجاءت تحمل لها بعض الطعام . . تكلمت بصوت عال سريع ، لم يعد خافيا أن المكان يضيق بهذا الجسد الراقد المعذب .

كانت قدرية زوجة أخيه سمينة بيضاء ، مازالت بعد كل هذه السنوات غريبة على المكان ، تراعى المريضة الراقدة بكل ما يمكنها من صبر ، وبكل ما يفيض من طاقة واهتمام .

لكنها كانت تهمس له فى كل زيارة بجملة مكررة محفوظة : أين اخواتك البنات ، أنت تزورنا أكثر منهن . . ألسن هن أولى برعايتها منى ؟

كانت تتحدث عنها دائما بضمير الغائب . وأمه تراقبها وهى تتحرك فى الغرفة فى قلق وخوف . لا يرتاح الوجه العجوز الا عندما تخرج من الغرفة .

أمسكت قدرية بزجاجة ماء الليمون . وشمت ما فيها . ثم عدلت فى مهارة من وضع الجسد الراقد لكى يتناول الطعام . دمدمت أمه بأصوات لم يلتفت اليها أحد .

قالت قدرية :

- سأصنع لك فنجان قهوة من بن الشيخ سعيد .

رفعت الأم وجهها فى رجاء فقالت :

- وأنت أيضا . . طبعا مادام عبد الخالق هنا . . يبدأ الدلع ويفسد النظام وسيجارة كمان ياستى علشان خاطره .

مدت أمه بيدها التى تحمل أقراص النعناع لكى تريها لقدرية فعاد يقبل يدها المعروقة من جديد .

انشغل بترتيب الأشياء حولها ، لم تكن تكف عن الهمهمة بأشياء لا يفهمها بالضبط ولكنها كانت خليطا من الذكريات والشكاوى والدعاء .

جاءت قطة سوداء كبيرة . وجلست على الملاءة المفروشة على حافة النافذة . عادت الأم تتناول طعامها القليل فى عناء واستغراق ثم طلبت منه كوب ماء بالإشارة . وطلبت أن يرفع الأطباق ، ثم طلبت أن يعيد جسدها إلى وضعه السابق .

فتح الراديو الصغير الموضوع إلى جوارها ، فانطلقت منه أغنيات الصباح .

كان البيت مازال ساكنا . الأولاد لم يستيقظوا بعد ، وأغلب الظن أن سعيدا فى حجرته يصلى أو يقرأ القرآن .

أطل من النافذة . ومن هناك رأى ما تبقى من الشجرة الليمون ، كانت ذابلة محصورة بين العمارات ، لم يكن يظهر منها سوى ساق غليظة قديمة خشنة ، وأوراق مصفرة ذابلة . .

سأل وهو لا ينتظر اجابة :

– هل مازالت الليمونة تطرح .

– مدت رقبتها ناحيته وهمهمت بكلام كثير .

دخلت قدرية تحمل فنجان قهوة عبق الرائحة . وكوبا به كمية صغيرة لأمه ، ومن خلفها أطل جسد سعيد الممتلئ بجلبابه الأبيض ، وقال :

– يا مرحب . خطوة عزيزة . . أوحشتنا يا رجل

(١٩)

مد عبد الخالق المسيرى يده لأخيه ، وقدم له المجلات والكتب الدينية التى اشتراها له من ميدان الدقى . قال :

- أنا أيضا مشتاق اليك يا أخى ، خذ هذه المجلات ، سوف ألحق بك .

هذا يوم جمعة ، معتق قديم ، قال لنفسه : امسك باليوم ، عانقه أو ذب فيه أن استطعت ، ولن تستطيع أبدا . . فهو قد فات .

أمه الراقدة ، اتساع البيت ، وارتفاع السقف وطعم القهوة المرة . كل هذا يحمله إلى حال جديد يشعر بحدود جسده ، وبزمن عجيب ، خليط بين الماضى والمستقبل .

إلى جوارها - أمه - وهى راقدة ساكنة ، وهو متنقل فى فراغ الغرفة بين المقعد المجاور لسريرها والنافذة ، غمضت عليه الأشياء رغم بساطتها ، واستحالت رغم المواقعة .

كل الأشياء العملية المفيدة التى يمكن أن يقوم بها ، أن يقدمها ، حاضرة . ولكنها تافهة مقطوعة الذيل ، تسقط فى سلة المهملات ، التى امتلأت بأوراق الدواء وقشر البرتقال . حملها كى يلقى بها فى المطبخ متوددا للحظة ، معتذرا للوجود .

عاد كى يجد أمه قد ابتلعت قهوتها بسرعة . وطاف بوجهها خيال رضا واستسلام . كان الراديو يدش كلاما متصلا ، فأسكته وراح يراقب فراغ الحجرة ثقيل الوقع .

اقترب يمسك بيدها الضعيفة الباردة بين يديه . تغيرت أشياء كثيرة فيها وفيما حولها . . لكن بقى لها هذا الوجود الطاغى الذى يخترق كل الحجب والحواجز ، وينفذ اليه فى الأعماق ، صار لها - الآن - وجود مطلق لا يناقش .

لا يرى فى عينيها نفسه فقط ولكنه يرى الوجود كله وقد استحال إلى جبل من القطن الأبيض ، يبتلع الصوت والصور .

كانت تحرك شفتيها ، جفون عينيها ، يديها ، أصابعها . هذا فقط هو ما يتحرك ، لابد أن القلب يتحرك ، وشرايين فى الدماغ ، تدفع أمامها صورا وخيالات ، وقصاصات من مواقف وكلمات .

عبر يدها ، جلدية الملمس ، التى خلت من الحرارة ومن الحياة ، انتقل اليه تيار بارد من الاستسلام .

كانت تشير اليه وتسأل لسانها الثقيل فى فراغ ، تهز رأسها فى ارتعاش فيشير لها فى تأكيد . هى لم تقل ، وهو لم يفهم . لكنهما ملتقيان على البرزخ بين السماء والأرض .

بعد أن سافرت منى المصرى إلى كندا ، كتب لها خطابا ولم يرسله :

رحلت أما أنا فلم أرحل . شب فى الدار حريق . الأشجار والجدران والأحلام ، فحم بللته مياه .

أذكرك كما يذكر رضيع أمه ، فم ملهوف ، ولا ثدى .

القطارات تحملنى دائما اليك ، ولا وصول .

تساقطت كل الأزهار بلا ثمرة . الجسد العارى لا تستره فى الشتاء

الخرق .

مد يده تحت الغطاء يلامسها ، بعد الفراغ من الحب ، فوجدها باردة تبكى قالت : نصفى معك ، النصف الآخر لا أدرى أين ذهب .

سكتت ، عندما قال لها : أحبك فوق الطاقة ، وبلا مبرر .

للوقت هنا ايقاع آخر ، اللحظات محشوة بالماضى ثقيله . تحدثه بلا كلمات عن ذلك العمر الذى توقف .

وقفت قدرية زوجة أخيه على رأسه . وكأنها تستعجله أن يقوم من الحجرة حتى تنفرد بالمريضة . لكى يفرغا من طقوس الصباح ، أصبح الكل معها يستعجل أمرا ما . هى وحدها التى تتعلق بالزمن .

رمقته بعينيها كى يبقى إلى جوارها ، تشير إلى الراديو وتقدم له أقراص النعناع . وهو يتلفت حوله . وقد تصلبت عضلات رقبته وأسقط فى يده .

بعيدة هى . لا يستطيع أن يقدم لها شيئا . ولا يقدر على الانسحاب .

(٢٠)

كانت غرفة سعيد تقع فى الطرف المقابل من البيت شبه معزولة مغلقة دائما . يشعل فيها أحيانا عودا من البخور . فتبقى فيها رائحة خاصة مختلطة بوضوئه وصلاته ورائحة الكتب القديمة التى لا يقرأ غيرها .

بينه ، وبين سعيد حوار حميم لم ينقطع منذ أن كان سعيد فى الاخوان . رغم كل ما حدث ، فإنهما يبقيان معا حوارا دائرا وكأنهما يفكران معا فى مصير البلد .

منذ سنوات عندما غادر سعيد مصر إلى الامارات ، كان يقول لى إنه يهرب برأيه ودينه . وإنه لا يرى معنى للبقاء هنا وسط أحلام الاشتراكية البلهاء وعسف النظام والطرق المغلقة ، وقال : هذه قصور من ورق . وأنتم تخدعون أنفسكم .

هناك فى الغربة . شاخ سعيد . أوغلت به الأيام فى أرض يقف فيها وحده . لم يعد يجد معنى للكلام أو الجدل . أصبح يراقب ، تراكم الوقت والنقود ، وعشرات التفاصيل المتعلقة بمصروفات البيت وسعر التحويل ، والمدخرات والودائع . لا يعرف هدوء النفس الا بالصلاة وقراءة القرآن .

زاد وزنه كثيرا ، وانقطع عن لقاء الأصدقاء ، انتهت سنوات الاعارة ، عاد الى الكلية يلقى دروس الشريعة ، ويسير جنب الحيط . تكور وأغلق أبواب روحه حريصا خائفا يتذكر صباه وشبابه كأنه شخص آخر .

دخل عليه عبد الخالق وقال مداعبا .

– ألا تفتح نوافذك هذه أبدا .

– وماذا سيدخل .. ضوضاء .. وغبار ..

– نظر سعيد اليه فى محبة واشتياق وقال له :

– اعتصم معى فى غرفتى . يكفيك لف ودوران .

كانوا قد تجمعوا حول أبيهم يسمعون الراديو بعد أن احترقت

القاهرة ، كان سعيد غائبا منذ أيام مع الفدائيين فى القناة . لم يستطع أحد أن يوقفه ، وظل أبوه يسأل عنه ويحاول أن يستعين بمعارفه لكى يعيدوه الى البيت . كان هو فرحا يدافع عن أخيه وينسج له فى خياله صورا وحكايات من البطولة والاستشهاد . كان خروجه مع الفدائيين شيئا خارقا واضحا وسط تراث من الأشياء المتوسطة الصغيرة .

عندما احترقت القاهرة تصور ان أخاه سوف يأتى فى جيش من الأبطال لكى يقلب البلد ، ويطرد الانجليز ، ويسافر فى أرض حرة من الاسكندرية الى السودان ، كان يدعو الله ألا تنجح اتصالات أبيه ، وألا يعرف مكان سعيد ، وحلم ذات ليلة أن أخاه جريح فى كهف جبلى وانه يحمل له الماء والطعام .

وفى تلك الليلة ، سمع دقات خافتة على زجاج الباب . كانت أمه نائمة فى مقعدها من الارهاق ، وكان هو بين النوم واليقظة ، يسمع برنامجا غنائيا فى الراديو .

هب أبوه واقفا وأخذ سعيدا فى حضنه . أجهش الاثنان فى البكاء .

أغلق سعيدا غرفته على نفسه ، وظل أياما لا يخرج ولا يكلم أحدا ، أما هو فقد ظل لفترة يتهم أباه ونفسه ، بأنهما هما السبب وانهما أقرب الى الخونة والجواسيس .

قال سعيد ، وهو يقلب فى المجلات التى حملها له عبد الخالق :

- كبرنا .. لم نعد ، نصلح لشىء .

- لا بل هى الأيام لا وجه لها ولا قفا .

ضحكا .. أخذ سعيد يحكى له عن الكلية . وعن الدائرة الراكدة التى يتحرك فيها . حتى البحث والمناقشات فى الفقه والشريعة ، أصبحت من رابع المستحيلات . انهم يتحدثون فقط عن الملازم ، وعن الدروس وعن الاعارات والاضافى ، قال سعيد :

- صار بينى وبينهم فراسخ . صرت راضيا بما عندى . راغبا عما عندهم ، وأنت ألم تهدأ بعد ؟

يستطيع سعيد أن يخترق معه السنوات ، وان يعيده الى أسئلة بسيطة واجابات مستحيلة .

- انت يا عبد الخالق فشلى الأول ، لم أستطع أن أستردك من ماركس ولينين .

- كبرنا على الوعظ يا شيخ سعيد .

- انت لن تكبر أبدا ، مازلت بالنسبة لى أخى الصغير التائه . وأنا هناك فى الغربة كنت أدرك فى أحلامى وقد اشتعلت نيران فى رأسك . اقرأ لك آيات القرآن . وأدعو الله أن يتوب عليك من الشيوعية والشعر .

- تاب الله علينا .. لا شيوعية ولا شعر .

- كلنا مذبذبون . لا نحن من هؤلاء .. ولا نحن من هؤلاء .

كان سعيد يقلب فى الأوراق الموضوعة أمامه على منضدته بالأرضية المنخفضة التى يستعملها للكتابة والقراءة . وقد جمع الى جوارها سجادة الصلاة ، والمصحف الكبير ، وبعض كتب التفسير .

صمت للحظات وعرف عبد الخالق انه سيعود الى موضوع البيت

والاستقرار وصلاح الحال . دخلت قدرية تحمل صينية شاى عليها أكولب صغيرة . وقفت وكأنها تتبادل مع سعيد حوارا صامتا ، فتأكد له أن الموضوع سيفتح لا محالة . لم نكمل الدور الثانى ، لم لا تستقر ، لم لا تتزوج قبل فوات الأوان .

يعتصم عبد الخالق حيال هذا الموضوع المكرر بنوع من التعالى الأجوف ، الذى يخفى ، خوفا دفينا لا يحب أن يدعه يظهر .

لقد أصبح الاقدام على أى نوع من التصرفات العملية حماقة ، لا يرى لها مبررا ، ولا يقدر على احتمال سخفها .

لا يمكن أن يفهم سعيد هذا ولا قدرية . لا أحد يستطيع أن يشاركه هذا الشعور ، هذا هو فساده الخاص ، الكامن فى النخاع . ليست هناك بطولة أو فخر فى أن تبقى حياته هكذا : أنه خوف ينمو كل يوم ، ويتعلم كيف يعتاد على صحبته .

كانت القرية بعيدة فى وسط النوبة القديمة قبل أت تغرق ، يقيم هو ومنى المصرى عند صديق رسام استأجر بيتا طينيا صغيرا ، وراح يرسم ويسجل لحظات الودا ع لأرض جميلة تغرق .

يحيط بهم فى القرية ، وفى البيت هدوء ضاغط ، كأنه صمت كنيسة خالية . يراقبون الشمس والقمر والنيل الرابض الضخم . يتحركون فى هدوء كأنهم يحاذرون من تعكير الصمت .

يخرج مع منى فى جولات بعيدة ، كل أثر للقرية ، وللنوبيين والنوبيات القلائل الذين يستعدون فى أسى وصمت للرحيل .

فوق التلال البعيدة ، أو عند منحنى مهجور للنهر ، كان يلتقط أحجارا صغيرة مستدير غريبة اللون والملمس ، لم يلمسها أحد من قبله ، ثم يتركها وقد أفزعه هذا الشعور .

كانت منى صافية ، تستغرق فى تأمل الأشياء وقد زال عنها قلقها وتوترها وانفتحت روحها لتلقى الشمس والهواء .

فى ذلك الصباح كانت قد غسلت له جسده بماء بارد جلبته من النهر ، واستعدوا جميعا لشاى وافطار متأخر تحت الشمس ، عندما جاءهم على غير العادة ضيف غريب . بدوى عجوز رحال يتاجر فى الدخان الأخضر الذى يجلبه من السودان .

مع الشاى الساخن والخبز الجاف ، تحدث الشيخ حسين عن حياته ، رحلة طويلة مع النهر والصحراء ، مع فراغ الليل والقمر الدوار . فى وباء الكوليرا ، ماتت له الزوجات والنخيل والأبناء جميعا ، وبقى وحيدا فى البيت لا زرع ولا عيال . بقى وحيدا بين الجدران . والأحجار . طلعت عليه شموس وأقمار وهو يجوب النوبة مترددا بين الحدود والحدود . ينزل فى القرى ضيفا ، يأكل الخبز الجاف ويشرب الشاى ، ويشعل شيشة صغيرة يشرب منها الدخان .

كان له وجه صلب قديم ، بعد أن شرب الشاى أسند رأسه إلى حجر كبير ومد جسده الفارع الطويل على وكأنه جزء منها وسط الرمال والأحجار .

حرك أصابع قدميه ، وجمع يديه تحت رأسه ، وحرك عينيه فى قبة

السماء ، وقال بعربية ناصعة :

- راحة البدن . . أكبر نعمة على الأرض .

«راحة البدن» فى شوق صادق تردد فى أرجـــاء الأرض .

ردت قدرية خلفها الباب ، وأصبحت الغرفة وكأنها مكان معزول عن العالم . هى تحمل معها قلقا مكتوما وقرارات مؤجلة ؟ . تريد دائما أن تنجـزها . انها لا تتعلم أبدا القانون البارد الـذى يستشرى فى لب الأشياء . تريد أن تضمن ، أن تحقق ، أن تقتنى أشياء ، ليس فى نهم ولكن فى حماقة . قلبها فارغ . وهى مشغولة من الصباح إلى المساء . كأن حركتها الخارجية انعكاس لقلق متجدد فى داخلها كينبوع ماء . دجاجة قلقة ترى جامع البيض يقف مستعدا خلف السلك . منذ أن تزوجها سعيد وهى هكذا لا يأخذها شئ ولا تعطى نفسها لشئ . قالت :

- طارق يذكرك كثيرا هذه الأيام يسأل عنك ويستخرج من الدواليب والأدراج كتبك القديمة . أنه الآن يدخن يا سيدى . صار فى الجامعة ويقول أيضا انه يكتب الشعر . يتجنب الحديث مع والده . . وأنا لا أكاد أراه .

سعل سعيد فى ملل وكأنه يريدها أن تتوقف أو تغير الموضوع ، ولكنها استمرت متنقلة من الحديث عن طارق ابنها ، إلى تطورات مرض أمهم فى الأيام الأخيرة إلى ضرورة تغيير الغسالة . . وأخيرا : ألم يحن الوقت لكى تحزموا أمركم بشأن البيت والدور الثانى . .

قام سعيد واقفا لكى يوقف تدفقها القلق قائلا .

– مائة مرة . . قلنا هذا موضوع أتكلم فيه أنا ، وعبد الخالق فقط . . أرجوك . ألـم يستيقظ الأستاذ طارق بعد . . ؟ لم أسمعه عندما جاء أمس .

تهربت من الأجابة ، وأوضحت أن عندهم اليوم فتة ولحما مسلوقا على الغداء وأنه لن يجد مثل هذا اللحم فى أى مكان آخر .

بعد أن خرجت تنهد سعيد . وأسند ظهره للحائط . وقال :

– جنون . أصبح البيت لا يطاق ، لا شئ ينتهى أبدا ، لاشئ يسكن ، كأنها تريدنى أن أعود ، وأسافر مرة أخرى . . ربما كان هذا فعلا هو ماتريد .

اختلفوا فى تلك الأيام اختلافا مرعبا كاد يصيبه بالجنون . كان الاختلاف بين الرفاق من أقسى أنواع العذاب . يتكلمون باستمرار . ويضربون رؤوسهم فى جدران المعتقل الذى وصلوا اليه أخيرا . القلق والتوتر يشكل وجوههم بأشكال جديدة ، غير تلك التى كان يعرفها من قبل .

كيف كان وجهه هو . من المؤكد أنه كان قليل الكلام . لم يخترع نظريات ولم يبتكر تحليلات .

قال أحدهم : القناع لا يخفى الأنياب ، قشور الاشتراكية هذه ليست الا برقعا عربيا مزخرفا ، تتستر وراءه الانتهازية الشمطاء .

وراح يشرح نظريته بجسده ويديه ، وكان منظره مفزعا .

وضع أحدهم يده على كتفه وقال :

- لابد أن نضع الملح على الجرح . كل هؤلاء يحاولون تمييع النضال ، أعرف نفسك تعرف عدوك ، الصدمة جعلت كل ما فى الرأس أوهاما . نحن أخلص أصدقاء النظام ومع ذلك نحن فى السجون والمعتقلات . هناك فى قمة السلطة قوتان . وفى القاعدة تحالف مستحيل .

واستمر يتحدث فى أذنيه حتى أصابه دوار ، جلس على الأرض حتى لا يسقط فى أغماء .

هناك صاحبه دائما شعور بأنه يعيش فى جب ،فلم يكن يسأل من أين تشرق الشمس ،كان يعد الشهور على أصابعه ، وتتجمد على وجهه ابتسامة لا يحب أن يسترجعها .

حاول سعيد أن يستعيد هدوءه وانبساطه مع أخيه فقال :

- هل مازلت تتطلع عبر البحار ، الى كندا .. واستراليا ، وما بين النهرين ، ألا تريد أن تجد لك زوجة قبل أن تخرج الى المعاش .

قام عبد الخالق ضاحكا يبحث عن ابن أخيه فى البيت . مع طارق تشرق دائما شمسوس صغيرة وكثيرة ، له وجه نبيل وجبهة رائعة قامت بينهما رغم السن والبعد . وندرة اللقاء علاقة روح ودم . يألفه طارق ويستريح الى صحبته طوال صباه ، كان يجلس الى جوار عمه وهو يقرأ .. وكثيرا ما أهداه هو كتبا اختارها له فى عناية ، عندما كان أبوه مسافرا . كان كل منهما يمد يده للآخر عبر سنوات كثيرة وزحام شديد .

وجده يقرأ الأهرام . ويشرب الشاى ، فى سريره هب واقفا فأخذه بين ذراعيه وضمه جيدا اليه .

كان فى جسده الشاب صلابة وتوقد ، صنعا ذلك الشعور الرخو الذى كان يشعر به . قال لنفسه : «عبد الخالق المسيرى . طارق المسيرى» ماذا يهم . وسأله بينه وبين نفسه : هل تسمع هذا الصوت جيدا ؟

جلس الى مكتبه الصغير ، لامس كتبه وكراساته المفتوحة وقال :

– أين السجائر : اعترف بكل ما ترتكب من آثام : هات بسرعة كل ما عندك من أسرار . أمك تشكو منك ، وأبوك يمتنع عن التعليق ، أما عمك فهو يريد أن يسمع . قل ماذا تفعل يا شيطان .

تمسك طارق بجريدة الأهرام ، يريد أن يسأل بسرعة عن تفسيرات . كان غاضبا محتجا على كل شئ . ولا يرى كيف يمكن أن يستمر الحال هكذا .

امتلأت الغرفة بالتساؤلات . وحاول هو أن يرد على كل شئ دفعة واحدة .

(٢١)

كانت الغرفة الشرقية مسكونة بضوء صباح الجمعة الفارغ البطئ .

يوم قديم عاشه من قبل ، كل التفاصيل فيه مفاجئة ومألوفة فى نفس الوقت . مرت به من قبل لكنها تعود اليه الآن تحت ضوء جديد مغسولة فى بحار الصمت البعيدة .

كأنه يحاول تذكر اسم صاحب وجه يعرفه حق المعرفة ، يعرفه كما يعرف نفسه ، لكنه لايستطيع الأمساك بالاسم .

سحبت دورة الزمن روح عبد الخالق المسيرى وهو جالس يراقب ابن

أخيه ، تأمل فيه مولده وصباه ، وسقطت أمامه ، سنوات عمره .

هذه الغرفة كانت غرفتي : الخلوة ، ومهبط الوحي ووكر الملذات ، ليس له فيها الآن سوى صندوق حديدى تحت السرير ، وذكريات أيام معلقة فى الهواء ، ونافذة مفتوحة امتلأت بها عيناه ، قام أمامها الآن جدار الجيران ، وابن أخ يحبه ويخشى أحكامه ويخاف من نفسه عليه ، قال لنفسه : لك يا طارق أن تسأل وعلى أن أجيب .

كان طارق فى السنة الثانية من كلية الآداب ، سار شوطا بعيدا مع اليسار الجديد ، يناقش ويعترض على كل شئ ، ويرى أن الكل متقاعس بليد ، وأن كل المتكلمين ليسوا سوى مبررين لأخطاء . داعين لقبول أوضاع لا تحتمل . كأن الثورة الشاملة على ناصية الشارع التالى ، وكأن التغيير الشامل حلم لايقبل الانقسام . هو يحتمل حياته هنا مع الأسرة ، وفى الكلية وفى كل هذا المجتمع بشكل مؤقت . ذلك الود والصداقة التى تجمعه بعمه عبد الخالق المسيرى . مصدر خطر عليه فهو يريد أن يكون نشيطا فعالا ثوريا بالمعنى الجديد ، حاسما باترا قاطعا فى الأحكام ، ويرى أن عمه وكل من كان يساريا قديما ، لا يصلح لشئ سوى المتاحف .

- ماذا يفعلون الآن سوى الدفاع عن تاريخ قديم ، انهم يقدمون المبررات ويصنعون شعارات يرددها غيرهم ، كل كلماتهم وأفكارهم أصبحت على أفواه من لا يؤمنون بها ، من لا يشعرون ، أصبحت شعاراتهم عملات يتاجر بها من يريد . الشعارات أصبحت مصدرا من مصادر الدخل . بعضهم جمع من وراء شعاراته أموالا وبعضهم اكتفى

بالندب والاتهام والبعض الآخر . . .

شعر عبد الخالق بتلك الابتسامة القديمة التى كان يكسو بها وجهه فى المعتقل تعود لكى تتجمد على شفتيه . انه يعرفها بتلك الشدة العضلية التى تحيط بفمه فلا يدرى ماذا يفعل بها .

أخذ يشير لطارق بيده لكى ينتظر أو يراجع كلامه ولكنه استمر قائلا :

– أنا لا أقصد أن أكون قليل الأدب . أعرف أنك قادر على أن تفهمنى ليس لأنك عمى فقط ، ولكن لأنك كنت أمينا ولأنك ترفض الادعاء .

ضحك عبد الخالق فى عصبية وقال :

– لذلك تريد أن تجردنى من كل شئ . على أية حال . لم تكن أفكارى ملابس أرتديها ، لم تكن بدلة نضال ، وكذلك أغلب الرفاق ، لو أن منظرنا صار غريبا فى عيون حضرتك ، فقد تمزقت ثيابنا فى الطريق ، من له عينان للنظر فلينظر .

كان الحديث بينهما مكررا يدور منذ فترة ولا يصل إلى جديد ، يرى عبد الخالق الحدة المتزايدة فى ابن أخيه ، ويرى التراخى والتسامح اللذين يقابل بهما اتهاماته ، يرى الحركتين كظاهرة من ظواهر الطبيعة .

يقول لنفسه فى ارهاق وضيق : قبض الريح ، تكسرت النصال على النصال . مع طارق راوده الاحساس كثيرا بأن الدائرة قد أغلقت . طارق يصعد الجبل ، وهو يهبطه . . لكنهما يحرثان فى أرض واحدة .

كانت حرارة الصحراء فى أغسطس ملعونة ، وعبث وجودهما هناك مازال مصيبة مجنونة لم تستقر بعد . وجوه جديدة مازالت تأتى أسماء

مشهورة ، أدباء ومثقفون ، طلبة ، وعمال .

الأفق فى النهار ينتهى باللون الأصفر ، تلمع الشمس فى سراب متكرر ، مازال يحمل صور الأهل والأحبة ، والشوارع ، والمقاهى ، والنيل . وفى الليل تلمع نجوم كثيرة ، وسجائر مشتعلة تضئ مجهدة للحظات ثم تنطفئ فيطبق ظلام على ملامح شاحبة .

زيارات الضباط ، والحراس الجدد ، تنهش فى الجراح الجديدة كل يوم . الأسئلة تصارع الاجابات ، فتصرعها لتهب من جديد ، تنين له ألف ذراع . يتجمد فى العروق أو يسيل ، وتمتلئ الأحلام بالرؤوس المتطايرة .

فى كل ساعة نبى كذاب ، أو شيطان غلبان لا مكر له ولا أنياب .

عليهم أن يجمعوا الحصى الصغير ، وأن يتركوا الكبير .

أن يقفوا فى الشمس ، وأن يتجردوا من الثياب ، من يذهب إلى مكاتب الادارة ليس خيرا ممن يعود منها ، تهمة لا أنكرها وشرف لا أدعيه ، بدون نظارة النظر لا يمكننى أن أرى شيئا . سقط الصف الأول . هناك حقائق يجب أن يعرفها المسئولون .

كان الطابور طويلا مهزوما ، به رجال أقويا خرجوا بروحهم بعيدا عن المكان ، واتصلوا بقوة نابعة من الناس والأرض ، وبه نفوس ضعيفة خائرة وأرواح حائرة ، لكن الطابور يتقدم فى رحلة عابثة إلى الجبل ، ويعود من هناك وقد جمع أعشابا وقشا ، وبقايا الآراء والأفكار مكبلة فى أرجلهم عاجزة مهدرة يجرونها بين الحياة والموت .

من أجل الوطن . والأجيال . . ومستقبل الاشتراكية ، من أجل فجر

لايطلع ، وعدل لن يكون . . . علينا أن نتمسك بالحلم والوجود .

في الغرفة كانت الأشياء ثقيلة ثابتة ، كأنها هنا منذ الأبد ، تطلع إلى طارق في ملابسه المنزلية وشعره المنكوش .

وسأل عبد الخالق المسيرى نفسه :

– ماذا عندى لكى أقدمه له ؟

(٢٢)

سحب عبد الخالق المسيرى حقيبة حديدية كبيرة من تحت السرير ، تركها هنا منذ سنوات . يكاد يعرف ما فيها دون أن يفتحها ، لها رائحة هى بقايا منى المصرى ، وبقايا الأيام التى أغلق عليها .

تلفت طارق حوله فى ارتباك فقال له عبد الخالق :

– دع الموتى يدفنون موتاهم ، وعد بعد قليل : أصنع لنا شايا بنفسك .

كأنه لم يختل بنفسه منذ سنوات ، هبطت عليه شجاعة نادرة وسكينة . أزال التراب الذى يغطى السطح فى جرأة ، وامتلأت خياشيمه بالرائحة الغريبة .

فى الحقيبة كراسات الشعر القديمة ، وخطابات من منى ، وخطابات اليها ، وديوان «أزهار الشر» بالفرنسية كانت تقرأ له فيه ، وأفراس بحر قديمة ، وقطع من الأحجار ، وزجاجة عطر فارغة ، وصور ، وأيقونة قديمة ، وصليب خشبى كبير ، وبها ظرف كتب عليه أوراق رسمية» وجواز

سفر لم يستعمل ، وعظام صغيرة وجدوها فى الصحراء ، وقواقع كبيرة يسمع فيها صوت البحر .

قال لنفسه وهو يدس يده فى الأركان البعيدة :

– قد أجد دنفسى مختبئة هناك ، لو وجدتها لقدمتها لطارق .

خرجت أصابعه وقد غطاها التراب .

تناول الكراسات ، وسقطت عيناه على كلمات شعر كتبه ، صارت الكلمات بلا طعم ، كأنها بئر مياه جفت ؟ استمر يمارس طقسه الغريب ، وقد خلت نفسه واستحال فراغها ثقلا محيرا ، يخاف هذا الارهاق الذى يحاصره فتبدو الطرق جميعها وقد سدت وصار يواجه نفسه كمن يقف فى مواجهة جدار أصم .

كانت منى قد صنعت فستانا جديدا لهذه المناسبة ، ليلة رأس السنة . يحتفلون بها عند صديق غنى يسكن فى شقة كبيرة تطل على النيل مليئة بالضوء والكئوس والموسيقى العالية .

كان حذرا منقبض الصدر . جديد عليه أن يراهم هكذا ، كانت تمسك بيده فى أول السهرة حتى لا يهرب . أو يسقط فى حالة من حالات السكر الشديدة التى تفصل بينه وبين العالم ، فيغرق فى الصمت ، أو يصيح بلا معنى كطفل مشاكس .

جديد عليه أن يراهم هكذا . . كل الرفاق والأصدقاء .

ينكمش فى ركن لا يتحرك ، معه كأس مختر بلا مذاق . تتركه قليلا ثم يعود اليه .

جديد عليه أن يراهم هكذا . . استداروا . . كل منهم دائرة صغيرة في قلبها كذبة ، أو مؤامرة صغيرة حولها رداء لامع . يأتي اليه واحدة منهم فرحا منتصرا بلا معنى ، كأن عيونهم من زجاج .

يتحدثون عن كل شيء عن السيارات ، والمرور ، عن الغلاء والشقق ، عن الاسكندرية ، والاشتراكية ، عن الاتحاد السوفيتي ، وأسعار الطائرات .

أحاديثهم ، والموسيقى الصاخبة ، والدوائر التي يتحركون فيها تطرده بعيدا إلى شرفة مفتوحة خالية . قطع من النيل يراها من خلال أشجار كثيفة .

تسللت خلفه ، واستندا صامتين إلى سور الشرفة ، تصلهما ضوضاء مدغمة ويفصلهما ظلام .

أمسك بوجهها بين يديه ، وحدق في عينيها وقال :

– نحن بلا مستقبل . . لأننا لا نعرف الكذب . هذا هو الباقي اذن ، تنحل أشياء الحقيبة أمامه إلى أيام ثقيلة بعيدة ، لا يدري أن كان هو الذي عاشها أم انها تخص شخصا آخر .

عندما فتح طارق الباب فجأة ، أغلق الحقيبة ودفعها بقدمه تحت السرير ، ونفض يديه بسرعة من التراب .

شيء في وجهه منع طارق من مواصلة الحديث . وضع الشاي أمامه على المكتب وعاد يقلب في جريدة الصباح .

وعندما طال بينهما الصمت ، قال طارق :

- يظهر أن جدتي تريد أن تراك ، أما أمي فهي تسأل إن كنت ستبقى معنا للغداء .

قال عبد الخالق وهو يسحب نفسه من بعيد .

- لا . . بل سنخرج ، تعالى معى حتى الميدان .

(٢٣)

انتزع نفسه من البيت بصعوبة ، هاربا إلى لا مكان ، وعند الباب الخارجي وجد طارق ينتظره لكى يسير معه حتى ميدان الدقى .

جاء غريب ، وغريب يعود .

بحث عن شجرة الليمون فلم ير سوى أطراف منها بعيدة ، تظهر خلف البيت بين العمارات .

هل يريد طارق أن يسمع حديثه عن شجرة الليمون ، عن زهرها الأبيض المتساقط على الأرض ؟

هل يستطيع أن يتحدث معه في ضوضاء الشارع المتزايدة عن سر تلك العلاقة بينه وبين الزهرة البيضاء ؟

سيحسب هذا رومانتيكية عرجاء .

هو يرى أن يتحدث عن الإنتخابات ، وعن أحداث الصعيد ، وعن حركة الطلبة في أسيوط . . هذا حقه وهذا مصيره .

أما عبد الخالق المسيرى فقد كان يرد عليه وعقله غارق مع زهرة الليمون . أريجها الذى لم يشمه اليوم ، أريج الماضى ، والأرض ،

والوطن ، رائحة رضا ، وأم رضا ، والعشة الرطبة ، والأرض الخضراء ، ألن يستطيع أن يدفع عن رأسه أبدا هذه الخيالات .

كانت الدكاكين تملأ الشارع ، وتحيط بالبيت من كل جانب . البيت مازال بأعمدته الخرسانية العارية التى تعلوه ، والطوب الأحمر الذى لم يكتمل ، قائما فى الوسط فى تحد يبعث على الضحك . . أو البكاء .

أعطى للبيت ظهره ، واندلعت الميكروفونات فى الحى كله تعلن الاستعداد لصلاة الجمعة ، وبدأت جموع المصلين تعبرهم فى جلاليب بيضاء نظيفة . وهو وطارق يخترقان الشوارع الجانبية فى طريق مختلف إلى الميدان .

أمسك بيد طارق الحارة ، وتمنى بينه وبين نفسه لو أنه امتلك كلمات بصيرة ، كاشفة يقولها فى اتساق ، فيعيد للقلب القلق بعض الهدوء .

كانت الزيارة قد فتتت كثيرا من التماسك الخارجى الذى يدعيه ، هو يريد أن يتمسك بصياغة الكلمات لكى يجمع واقعه المشرف على التفتت والانهيار . من أجل هذه اللحظات خلق الشعر . . ولكنه يبدو الآن بعيدا مستحيلا وليس أمامه سوى أن يسمع دقات طارق على الباب المغلق .

كان صغيرا يخرج قبل الغروب فى نزهة مسائية مع أبيه . أيامها كان أبوه مشغولا بإكمال بناء البيت ، بعد أن ينصرف العمال الذى يعملون فى البياض ، يغتسل جيدا فى الحمام الذى لم يكتمل بعد ، ويرتدى جلبابا أبيض نظيفا ، ويصحبه فى جولة بعيدة إلى حقول ممتدة حولهم ، حتى يصلوا إلى ساقية قديمة قرب السكة الحديد .

تبدأ الرحلة وتنتهى عند شجرة الليمون .

كانت هى العلامة والراية ، بيتهم كان هو البيت المجاور لشجرة الليمون كانت هى العنوان .

أريجها صاف ، يسافر فوق خضرة الحقول .

قال له أبوه :

– بعد أن ينتهى عمال البياض ، سنشرع فى زراعة الحديقة . هل تحب أن تعمل معى فى اصلاح الأرض والزرع ؟

كان غارقا فى حلم نبيل ، لوحت الشمس وجهه . وحطت على جبينه سعادة التحقيق والبناء .

سأله :

– هل ستزرع لنا شجرة ليمون ؟

داعب رأسه قائلا :

– كل الأشجار ، تكفينا ليمونة أم رضا . .

أمضيا النزهة يتحدثان عن أنواع الأشجار ، والزهور ، وعن المقاعد الخشبية التى سيقيمونها في الحديقة . اشترى أباه كرنبة كبيرة من فلاح فى حقل ، وقبل أن تغرب الشمس الحمراء فى الأفق استدارا عائدين يخترقان الحقول ، وجهتهما البيت وشجرة الليمون .

عندما اقتربا من عشة أم رضا . . قامت المرأة من أمام النار التى أوقدتها . وحملت لهما حبات ليمون خضراء نضرة زكية الرائحة . كانت الأرض أمامها مفروشة بزهر الليمون المتساقط ، أبيض ، أصفر القلب ،

مهدر ، وهي تدوس عليها بأقدامها الحافية الكبيرة . أما على الأغصان فكانت الأزهار قوية بيضاء نضرة كأنها تاج فوق الخضرة .

مال يجمع بعض الأزهار المتساقطة وتمنى بينه وبين نفسه ألا يزرع أبوه شجرة ليمون فى الحديقة .

كانت سورة «الكهف» تنساب من ميكروفونات الجوامع ، باعثة فى المكان جوا متصاعدا مفارقا للواقع ، تترسب الكلمات فى صدره فتجمع شتات نفسه فى نغم باحث عن قرار .

وعلى النواصى فرشت الحصر ، واجتمع المصلون فى صفوف ساكنة ، وقد أعطوه ظهورهم ، وهو يشق طريقه مع طارق إلى الميدان .

كان الميدان شبه خال ، والأتوبيسات تتلكأ عند المحطات .

قال طارق :

– اليوم ستكون القاهرة مدينة مهجورة . . فى الثالثة مباراة الأهلى والزمالك . استقل الأتوبيس الذاهب إلى ميدان التحرير ، قبل أن يصرخ خطيب الجمعة كأنه يريد أن يوقظ الأموات . .

(٢٤)

امتلأت أنف عبد الخالق المسيرى برائحة التراب المبلول في داخل الأتوبيس الخالى الذى يخترق حى الدقي والكباري قاصدا بسرعة إلى ميدان التحرير .

ربط السائق رأسه بمنديل مبلول . بعد أن غسل الأتوبيس من الداخل

وأغرقه بالماء وأدار راديو صغيرا على محطة تذيع أغنية دينية لأم كلثوم .

راح الكمسارى يغلق حساباته (فى المانفستو) ويدخن بنهم سيجارة غليظة فى يده ، يحصى النقود القليلة ، وهم يقتربون من محطة الوصول . فلن يركب بعد الآن - أحد .

«هدمت ما بنيت ، أضعت ما اقتنيت» . . الشعر مهاجر يسافر فى الاتجاه المعاكس .

كل الرحلة انتهت ، أو كادت ، وتصاعدت رائحة الانتهاء .

فى دقائق وصل الأتوبيس إلى ميدان التحرير ، بسرعة فاجأت عبد الخالق المسيرى .

اذا كان القلب خاويا هكذا ، فكيف تكون الأطراف . كان الميدان بلا شك كأن يدا باطشة غليظة قد عبثت به ، وراح عبد الخالق يبحث عن ممر يفضى إلى رصيف أو مقهى ، امتلأ الميدان بالسدود والجدران الخشبية وقد اعتلاه غبار ناعم يجعل الضوء ثقيلا كأنه ضوء الساعات الخانقة التى تسبق الغروب .

حلت به وحدة ثقيلة ، وغربة لا يعرف كيف يدفعها عن نفسه . ليست هذه هى الأماكن التى كان يقصدها ، وليس هو الكائن الذى يعرفه ، من كان يتصور أنه سيسير فى ميدان التحرير عجوزا هكذا ، تائها ، لا يعرف مقصده ، وقدمان لا تحملانه إلى مكان .

جلس إلى أول مقهى يعرفه ، كان واسعا فصار مثل الخندق ، كان مفروشا بالضوء والشمس نظيفا ، فسار معتما مصطنعا يضاء بلمبات

صغيرة فى النهار .

كان المقهى خاليا الا من فتاتين تغطى وجهيهما أصباغ رخيصة ، ومعهما شابان من العرب يختفون فى ركن من الأركان .

الجرسون قد شاخ هو الآخر ، واتسخت ملابسه البيضاء ، صارت يده تهتز وهو يصب له القهوة ، تعرف عليه وتذكر وجهه ، ولكن الاثنين كانا أكسل من أن يفتحا حديثا .

انتهت صلاة الجمعة ، وامتلأت الشوارع بالناس للحظات ، ثم خلت المدينة وكأنها تنتظر انفجارا ، وبقى الجرسون العجوز مستندا إلى باب المقهى ينظر إلى لا شئ .

كان هذا منذ عصور سحيقة . فى نفس هذا المقهى ، وكان اليوم أيضا - يوم جمعة ، ينتظر منى المصرى لكى يستلما الشقة . ويبدأ فيها حياة زوجية بعد أن مضى عليهما شهور بين بيوت الأصدقاء ، والبنسيونات ، والشوارع والحدائق . . وكل العالم . . أحضرت معها حبات من اليوسفى وسندوتشات وشنطة كبيرة .

جلست إلى المنضدة أمامه ، وامتلأت الحياة حولهما بالأشياء الممكنة والبسيطة ، أشياء لاتحتاج إلى سؤال تقدم نفسها . تشاركه دون ازدحام كان يريد أن يقبلها ، أن يحتويها وقد أسلمت وجودها له .

حديقة الميدان ، خضراء لامعة مليئة بالزهور ، كان يريد أن يسجل تاريخ اليوم فى تمثال ٢٣ أكتوبر ، شرب شايا ساخنا مع السندويتشات وأكلا اليوسفى ، وجمع القشر فى كيس ، أمسك يدها وقد استسلما للحظة

كاملة فى شمس خريف مصرى جميل .

لم يكن أحد منهما متعجلا للقيام ، فشربا قهوة ، وسألهما الجرسون عن سر البهجة التى تسودهما هذا الصباح ، ولماذا لا يشركانه فيها ؟

مرت به لحظات حسب أن لها صفة الدوام ، ورأى أن منى خلقت له ، وجاءت هنا من أجله فقط ، فى عيونها فرح عذب ينهل منه ، وفى بشرتها ووجهها يضج الابتسام .

سأل عبد الخالق المسيرى نفسه : ثم بعد ؟ إلى أين من هنا ؟ وكيف أحمل كل هذا الارهاق والعناء ؟

تعلقت أشلاء الميدان ، وبعض من أشلاء نفسه على زجاج المقهى وأحس أن كل العالم يقف على كتفيه .

(٢٥)

تحركت اللحظات والساعات كما تتحرك ، وخرج منها إلى وهم الاستمرار الذى يبقيه متفرجا ، فقد حماسه .

عليه أن يبقى فى الطريق حتى تحين ساعة الركوب إلى السويس . اكتملت عطلت الأسبوع بلا بهجة أو فرح . مباراة الكرة قد أخلت المدينة ، وتجمع الناس فى المقاهى التى أغلقت نصف أبوابها . وامتلأت بالكراسى المرصوصة لمشاهدة التليفزيون .

يعطيه الجميع ظهورهم ، ولا يتعرف عليه أحد ؟

لماذا جاء اذن ولماذا يعود ؟

لا أحد يحتاج اليه ، ليس له ضرورة . لا هنا . ولا هناك ، تساقط وتساقطت أيامه ، كما يتساقط زهر الليمون ، بلا نبل ولا أريج .

تتخبط أقدامه فوق أرصفة شوارع وسط المدينة الخالية بلا هدف أو رغبات ، العمارات ، والشقق تتجمع ضاغطة عليه ، وحياته حبات عقد منفرط في يديه . ذقنه نابتة وقد اتسخ قميصه ، ولم يبق في جيبه من الجنيهات العشرة سوى أوراق قليلة .

لم يكن هناك سوى أحمد صالح ، في ورشته الصغيرة في الأزهر ، سيكون هناك مشغولا ، وخالي البال ، يراقب الصبيان يعملون في الدكان ، والنساء يعبرن الطريق أمامه ، يعد لسهرة أو يقلب في سيرة الناس في حكايات لا تفرغ .

لم يره في هذه الزيارة سوى لحظات في جلسة البار السخيفة ، وتركه حتى دون وداع .

بعث تذكر صديقه بعض الحماس في خطواته . فأخذ يبحث عن أتوبيس يقله إلى الأزهر .

هو لا يريد أن يدخل إلى بيت مرة أخرى الآن . لا يريد أن يسمع شقشقة نساء ، أو أزيز خلاط ، وهو بالتأكيد لا يريد أن يسلم عينيه لوميض تليفزيون .

وجد الطرقات التي تؤدي إلى ورشة أحمد صالح أكثر رحمة وانسانية ، كانت رطبة ظليلة ، منداة برائحة العطارة والحياة ، ومشغولة بالعابرين ، والعاملون لا يكفون عن القاء التحية أو الصياح بالنكت أو

السباب .

من آخر الشارع رأى أحمد صالح يجلس على باب الدكان ، حوله ، وفى يديه ، بعض الأوانى الفضية يفحصها ويلفها فى أوراق ناعمة .

أكد له أحمد صالح أنه كان يفكر فيه . كان يسأل نفسه أين أمضى الليلة وكل النهار ، فكر فى أن يسأل الليلة فتحى نور الدين ، ولكنه ابن حلال جاء فى الوقت المناسب لكى يتناولا معا طعام الغداء .

كانت الورشة صغيرة مزدحمة بالمشغولات والأوانى المليئة بالماء وبنشارة الخشب ، وصوت وابور الجاز الكبير يختلط بضوضاء الشارع .

وقد عكف ثلاثة من الصبيان على الأوانى البلاستيك يخرجون منها أزرارا ونجوما فضية ، أما أحمد صالح فقد جلس عند باب الدكان إلى منضدة قديمة يراجع العمل ، ويلف الشغل فى أوراق وقد استغرق فى أفكار بعيدة .

لم تكن هذه عادته ، منذ شهور لم يتكلما معا ، ولم يسهرا سهراتهما الحميمة لا فى السويس ولا هنا ، كانت عيون أحمد مأخوذة وقد سكن على وجهه خوف غامض .

من مجلسه إلى جوار أحمد صالح ، كان يراقب السماء ونهاية الشارع وقد بدت بعض المبانى القديمة المهدمة فى ضوء العصر المبكر ، داكنة سوداء كأنها ظهور قافلة .

أخرج له أحمد من درج المنضدة سيجارة حشيش ملفوفة ، ولم يشعل لنفسه واحدة . حسب انه يريد أن يتقاسماها معا ، ولكن أحمد قال :

– خلاص . . عليه العوض .

وحكى له حكاية الأزمة القلبية التى فاجأته منذ أسابيع ، وكيف أنه مات وصحا مرة أخرى ، وأن الدكتور أنذره أخيرا بالتوقف عن التدخين ، والطعام والشراب ، وأشياء أخرى كثيرة . .

وبعد أيام تسربت القرارات والأوامر ، وعاد إلى الشارع ، ولكنه صار حقا – يخاف من السيجارة .

كان فى وجهه شئ داكن ، وأحس أن هناك قلقا حقيقيا لا يقدر على اخفائه ، انتقل اليه بسرعة فزع جديد ، ولكنه تماسك قائلا :

– ليس هناك شئ جديد ، هذا ضرورى ، بعض الراحة ، وترجع زى الحصان .

ولكن شيئا كان يقف على أكتاف أحمد صالح ، ويحوم حول وجهه ، يؤكد أنه لا يصدق صديقه . انشغل فى لف قطع الفضة ، وأرسل أحد الصبية لكى يستعجل لهما صينية الغداء .

بدأت النهاية من أطراف الأصابع ، لم يكن أبوه يعرف المرض ، ولم يكن يستسلم اليه . لا يذكر أنه شاهده راقدا فى سريره . يدعك جبهته بالليمون اذا أصابه صداع ، ويشرب شايا بالليمون اذا أصابه مغص ، ويسخر من النساء المتمارضات ويقدم لهن عصير الليمون .

بدأت النهاية من أطراف الأصابع . كان يصيح : نار يا أولاد . . نار فى أصابعى ، كان يغسلها بالماء ، ويرفعها إلى السماء مستجلبا عليها الهواء . ثم أخذ يحضر من الأجزخانة أدوية مختلفة الألوان يغمسها فيها .

أخذت نوبات الالتهاب الشديد الذى يصيب أصابعه تتقارب وتتكرر وبدأت حبوب حمراء تملأ أصابعه .

قال له الأطباء الذين أخذ يتردد عليهم : «أوكزيما» ، حساسية من نوع خاص ، صار لا يتحدث الا عن هذا الموضوع ، يكرر أمام الزوار انها ليست معدية ، وأن الدهانات والمراهم لن تجدى ، فهى مرض داخلى ، يسكن الجسم كله ، وهو متأكد أنه لا علاج له .

ومع ذلك ، أخذ يبحث فى الأعشاب ، وفى الوصفات البلدية . رجل فى أقصى المدينة فى حلوان ، يقدم لمرضاه مرهما خاصا من تركيبة .

سافر إليه ، وجاء بزجاجة غريبة ، وعلبة صغيرة ، يخلط ماء الزجاجة بمسحوق العلبة وتتصاعد رائحة كريهة ، ثم يسقى بالسائل أصابعه ، التى صارت حمراء ملتهبة ، وانعقد على جبهته قلق وألم .

كان يخفى يديه ، ثم يعود فيحركهما ، ويستغرق فى مراقبة حالتهما ، استحوذت أصابعه الملتهبة على حياته .

جاءت صينية الطعام ، مستديرة وشهية ومليئة بالأطباق الصغيرة ، وقد غطاها رغيفان كبيران ، أخلى أحمد المنضدة أمامه ودعاه للطعام ، أخذا يتناولان طعامهما دون شهية كبيرة على غير العادة . فقد كان أحمد يحسن دائما استقبال الطعام .

كان قد بقى فى الصينية طعام كثير ، عندما ملأ بطنه بماء القلة البارد وأشعل سيجارة ، فأشعل أحمد صالح هو الآخر سيجارة . . وراحا يراقبان الطريق .

حل عليهما مع كوب الشاى ، صمت ثقيل ، وكأن كل منهما يسمع دقات قلبه ، وأحس بأن أحمد يقاوم لكى يدفع عن نفسه الخيالات الثقيلة وأنه يستجلب بصعوبة نكتة هنا أو حكاية من هناك .

وعده بأن يأتى قريبا إلى السويس لكى يرتاح عنده أياما .

– تعرف تشتغل ممّرض ، وتعمل شوربة خضار بس يا أخى السلم عندكم عالى ، لازم تدور على فيلا . . أو شقة على البحر . .

وضحكا .

قام عبد الخالق متثاقلا ، لا يريد أن يفارق صديقه ، الذى أصر أن يسير معه حتى آخر الشارع . وأن يعطيه بعض النقود سلفة حتى أول الشهر .

وافترقا .

(٢٦)

من خلال طرق متعرجة كثيرة ، وجد عبد الخالق المسيرى نفسه مرة أخرى فى مواجهة بحار البشر والضوضاء فى موقف التاكسيات .

كان الغروب قد أقبل مسرعا ، والناس من حوله يستعجلون كل شئ . واحتفظ هو فى داخله بشعور بطئ وثقيل كأنه يسير فى مياه سميكة .

غريب جاء ، وغريب يعود .

تدلت يداه إلى جواره ، وانحط فى مقعد إلى جوار سائق يعرفه ، فى تاكسى «بيجو» . مالبث أن امتلأ وانطلق يشق غابة من الأضواء والخيالات

والعربات المسرعة في الاتجاه المقابل .

هبط عليهم الليل في الطريق ، وتدلت رؤوس الركاب على صدورهم ، ودار السائق شريط قرآن كريم بصوت قارئ قديم .

كان نور العربة يدفع أمامه كتلا من ظلام ، وأسلم عينيه لاتساع الصحراء حوله ، وسأل نفسه : كيف يحسب الناس الأيام ؟ ما الذى يجمعها .. وكيف ينفرط .. هل هى مثل المسافات ؟

عند مدخل السويس اختصر السائق الطريق ، وسار فى طريق ترابى قصير ، تحده أشجار التين الشوكى العجوز ، وأشجار أخرى تكشف الأنوار عن سيقانها الغليظة وأفرعها المتهدلة ، وتتبع العربة أشباح ضخمة تسبح فى الغبار .

فى السويس أسرع مبتعدا عن الميدان المضئ . وسار فى الشوارع الجانبية للمدينة التى نامت مبكرا .

تسلق درج السلم المظلم ، وجد أن أم يسرى جارته قد تركت لمبة كهربائية صغيرة مضاءة فوق غرفتها على السطح ، وصوت التليفزيون الجديد لم يسكت بعد .

المدينــــة كما تركها ، ساكنة ، أضواؤها خافتة كأنها مركب ضخم يبتعد . أما الزرع الجاف الذى يشغل زاوية السطح البعيدة فقد بدا له وكأنه شخوص صغيرة جالسة القرفصاء .

أطل من السطح على البحر البعيد ، وعلى جبل عتاقة ، حارس صامت يزداد فى الليل جهامة .

أخرج مفتاح الغرفة من جيبه الصغير ، أضاء النور ، وتعرف على نفسه من جديد فى الأثاث العارى والسرير الصغير .

وضع ابريق الشاى على النار ، وفى انتظار أن يغلى الماء ، استلقى على السرير ، وقد وضع يديه تحت رأسه ، وعيناه مفتوحتان تحدقان فى السقف .

الفهرس

الصفحة